[illegible]

[illegible]

[illegible]

سيرة خاتم المرسلين ﷺ

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

فاتحة الكتاب

هذا هو كتاب « سيرة خاتم المرسلين »، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

ومن صلوات الله بني الله ورسوله هو نشيد الإنسانية كلها، وهو منقذ الدنيا، ورافع لواء الحضارة، وناشر العلم والمدنية، والزائد عن العدالة والحق والحرية والإخاء والمساواة، وحامي حقوق الانسان، والمدافع عن الضعيف والمسكين واليتيم والعامل والمرأة والطفل والخادم والأجير.

ومحمد، صلى الله عليه من الأولين، وصلى الله عليه من الآخرين، حري بأن تكتب سيرته، وتدون حياته، وقد كتبت في سيرته العطرة آلاف الكتب، ولا زالت كل يوم تدر الكتب وتحبَّر المقالات في دراسة سيرته وحياته وشخصيته.

وهذا الكتاب، وهو مستمد من أوثق المصادر، ويجمع كل ما تفرق من جوانب السيرة، هو مما أشرف بانتسابه إلى كتب السيرة النبوية الخالدة.

وإني بكل إجلال وتقدير أقدمه هدية متواضعة إلى شخصية رسولنا العظيم، فهو العربي الأمين، ﷺ صلاة وسلاما دائمين الى يوم الدين.

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أعظم المرسلين وخاتم النبيين، محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأجمعين. وبعد.

فهذا كتاب في السيرة النبوية، يلخص تاريخها، ويوضح انتصاراتها ويعدد ذكرياتها، ويرسم مشرق صفحاتها وبطولاتها.

ومن الذي يمكنه أن يحيط بكل جوانب الإعجاز في السيرة النبوية الخالدة؟ ولقد كتبت عن السيرة من قبل عدة كتب:

١ ــ سيرة رسول الله ﷺ ــ أربعة أجزاء.

٢ ــ مواكب النبوة.

٣ ــ مشاهد من السيرة العطرة.

٤ ــ السيرة النبوية الخالدة.

كما كتبت فصولاً طويلة عن مختلف مواقف السيرة في كتب لي صدرت من قبل.

وهذا الكتاب أضيف به صفحات إلى السيرة النبوية العاطرة، وأضعه بين يدي القراء والدارسين، راجياً أن ينفع الله به الأمة وشباب العلم والدين.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب؟

المؤلف

الميلاد النبوي الشريف

١ ـــ في مكة ولد رسول الله ﷺ خاتم النبيين وآخر المرسلين، محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، ابن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن الياس، ابن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان.. من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وأمه سيدة بني زهرة آمنة بنت وهب بن عبد مناف، بن زهرة ابن كلاب بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر.

ويجتمع نسب أبويه الشريفين في كلاب بن مرة. وهو نسب شريف عريق عظيم، لم يجتمع لأحد من قبل ولا من بعد.

وكان زواج والد الرسول عبد الله بأمه آمنة، عام ٥٦٩ م.

ومات عبد الله وآمنة حامل برسول الله وذلك قبل الميلاد النبوي بسبعة أشهر.

وجاء الميلاد النبوي الكريم يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل ٥٧٠ م بعد حادث الفيل بخمسين يوماً، وقيل

إن ولادته ﷺ كانت يوم ثاني اثنين من ربيع الأول (٩ ربيع الأول ٢٠ أبريل ٥٧٠ م).

٢ ــ ومن المعلوم عند كثير من المؤرخين، وهو فحوى رواية الزهري[١] أن رسول الله ﷺ ولد عام ٥٦٩ ــ ٥٧٠ م بعد الفيل بنحو ١٧ ــ ١٨ سنة أي أن عام الفيل كان[٢] عام ٥٥٢ م.

وقيل: ولد رسول الله بعد الفيل بأربعين سنة[٣]، وقيل: بثلاثين سنة[٤].

وعن ابن عباس أنه ولد بعد الفيل بخمس عشرة سنة[٥]، أو بعشر سنين[٦].

ورواية الحسن البصري أن الرسول ﷺ توفي وعمره ٦٥ عاماً، فيكون ميلاده الشريف عام ٥٦٩ ــ ٥٧٠ م، وعن ابن عباس وغيره أنه ﷺ توفي وعمره ٦٣ عاماً فيكون ميلاده عام ٥٧٠ م.

---

(١) ٢٨/١ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ــ ٢٢/١ تاريخ الإسلام للذهبي ــ ورقة ١٢٩ جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار مخطوط.

(٢) في عام الفيل أقوال ثلاثة:

ا ــ أنه كان عام ٥٧٠ م وأن الرسول ولد عام الفيل بعده بخمسين يوماً وهو قول جمهور المؤرخين.

ب ــ أنه كان عام ٥٤٧ م لقول ابن الكلبي إن الرسول ولد بعد عام الفيل بثلاث وعشرين سنة.

ج ــ أنه كان عام ٥٥٢ م وهو ما يؤخذ من رواية الزهري (راجع التعليق رقم ١ في هذه الصفحة)

(٣) هو رواية مقاتل (٢٦٢/٢ البداية والنهاية لابن كثير).

(٤) ٢٦٢/٢ البداية والنهاية لابن كثير.

(٥) ٢٦٠/٢ البداية والنهاية لابن كثير.

(٦) ٢٠٣/١ السيرة لابن كثير.

وهذا مستمد من مقالة نشرها الدكتور خالد العسلي في مجلة المنهل عدد محرم ١٣٧٠ هـ ص ١٣ ورجع فيها إلى كثير من المصادر والنقوش في تحديد عام الفيل.

٣ ـــ ومن ذلك ندرك أن الرسول ﷺ ولد في عام الفيل على رأي، وهناك آراء أخرى في أنه ولد بعد عام الفيل بسنوات كثيرة (٤٠ سنة، أو ٣٠ سنة، أو ١٥ سنة أو ١٠ سنوات): وكان عام الفيل عام ٥٧٠ م وبعده ـــ على الأرجح ـــ بخمسين يوماً كان الميلاد النبوي الشريف.

٤ ـــ وكذلك اختلف في عمر الرسول ﷺ حين نزول الوحي قال ابن المسيب: عمره ثلاث وأربعون سنة، وقال أنس بن مالك[١] وعروة وابن عباس[٢]: أربعون سنة (راجع ٢٠١/٢ تاريخ الطبري، ١٦/٢ الكامل لابن الأثير ـــ ٦/٣ العبر لابن خلدون ـــ ٢٠١/٣ البداية لابن كثير، ٦٩/١ تاريخ الإسلام الذهبي).

٥ ـــ وفي كتاب « الأوائل لأبي هلال العسكري » ص ٢٧: أن رسول الله ولد بعد خمسين يوماً من حادث الفيل، وكان قدوم الفيل مكة يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من محرم، وولد رسول الله يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأول وهو اليوم العشرون من نيسان وقيل العاشر من نيسان، وقد مضت من ملك أنو شروان أربع

---

(١) عن أنس: بعثه الله عز وجل على رأس أربعين، فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفاه الله على رأس ستين سنة (٢: ١٧٤ و١٧٥ مختصر صحيح مسلم للمنذري) ـــ وعن أنس: قبض رسول الله وهو ابن ثلاث وستين ٢: ١٨٢ المرجع.

(٢) عن ابن عباس: أقام رسول الله بمكة ثلاث عشرة سنة يوحي إليه وبالمدينة عشراً، ومات وهو ابن ثلاث وستين ـــ وعنه كذلك: أقام رسول الله بمكة خمس عشرة سنة، يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين، وثمان سنين يوحي إليه، وأقام بالمدينة عشراً (٢: ١٨١ المرجع السابق).

وثلاثون سنة وثمانية أشهر، وكان رسول الله يقول: ولدت في زمن الملك العادل أنو شروان. ومن أيام ملوك الروم على عهد قسطنطين، ومن أيام ملوك اليمن في أول سنة من ملك أبرهة (!!) ولثمان سنين وثمانية أشهر من ملك أبي هند عمرو بن هند، وملك الشام الغساني يومئذ هو الحارث الغساني.

والمدة بين عام الفيل وموت كعب بن لؤي ٥٢٠ عاماً كما يقول أبو هلال في كتابه الأوائل ص ١٢٢.

وقد عاصر حياة الرسول عدد كبير من الملوك والأمراء: يزدجرد ملك الفرس (١٦ يونيو ٦٣٢ ــ ٦٥١ م: ١٠ هـ ــ ٣٠ هـ) النعمان الثالث (٥٨٠ ــ ٦٠٢ م)، وإياس بن قبيصة الطائي (٦٠٢ ــ ٦١١ م)، والمنذر بن الحارث (٥٦٩ ــ ٥٨٣ م)، وجبلة بن الأيهم (٦٢٩ ــ ٦٣٦ م).

وفي عام ٥٩٧ م (انتصر سيف بن ذي يزن ملك اليمن على الحبشة في أرض اليمن وأجلاها عن بلاده)[1].

وبعد أعوام من الميلاد النبوي كان يوم ذي قار الذي هزمت العرب فيه جيوش فارس في صحراء الحيرة، وفي هذا اليوم يقول الرسول الكريم: هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا[2].

وفي مكة في دار عبد الله بن جدعان عقدت قريش حلف الفضول،

---

(١) كانت دولة كندة في نجد واليمامة قد قامت بمؤازرة الدولة الحميرية اليمنية ــ وكانت عشائر كندة تقيم في حضرموت، ومقرهم (دمون) وملوكهم: حجر آكل المرار ثم عمرو بن حجر، ثم الحارث بن عمرو الذي جعل ابناءه: شراحيل ملكا على بكر، ومعد يكرب على قيس، وحجر علي بني أسد وابنه هو امرؤ القيس وقد ثارت عليه بنو أسد وقتلوه، وانتهت مملكة كندة قبل ميلاد الرسول بقليل ــ

(٢) سبب المعركة ان كسرى قتل النعمان، وكانت ودائع النعمان عند بعض بكر بن وائل فطلبها =

حيث تعاهدت قبائلها على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه، حتى ترد إليه مظلمته، وقد شهده رسول الله، وهو في سن العشرين، وقال فيه: لقد شهدت في دار ابن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت.

= كسرى فأبوا فصمم كسرى على حرب بكر، وفاجأهم عند ماء ذي قار في القيظ، واستبسلت بكر وعجل في المعركة، وخرجت اياد من المعركة فكانت تحارب في جند الفرس — وقيل إن الرسول دعا لبني ربيعة وقال: اللهم انصر بني ربيعة.

طفولة رسول الله

ولد محمد ﷺ في بيت كريم، ومن أبوين كريمين، وقد مات الأب قبل الميلاد الشريف، والأم حاملة به ﷺ(١).

فلما وضعته أمه أرسلت إلى جده، عبد المطلب، أنه قد ولد لك غلام فأته فانظر إليه، فأتاه، فنظر إليه، وحدثته الأم بما رأت حين حملت به، وبما قيل لها فيه، وبما أمرت به أن تسميه.

وحمل عبد المطلب الوليد اليتيم، فدخل به الكعبة، وقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه، وعاد بالوليد إلى أمه فدفعه إليها(٢). ونما ﷺ، والتمس جده عبد المطلب له الرضعاء.

فأرضعته حليمة ابنة أبي ذؤيب من سعد بن بكر، وكان زوجها الحارث بن عبد العزى من سعد بن بكر بن هوازن، وكان إخوة رسول الله ﷺ من الرضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث وخذامة

---

(١) توفي عبد الله أبو الرسول وهو حمل، وقيل: توفي بعد ولادة رسول الله ﷺ بشهرين، وقيل توفي بعد ولادة رسول الله بأكثر من شهرين (١: ٢٢١ العقد الثمين للفاسي).
وقيل إنه توفي بعد أن أتى على رسول الله ٢٨ شهراً (١: ٥٧٩ الطبري).

(٢) وختنه جده عبد المطلب في اليوم السابع من مولده وصنع له مأدبة (١: ٣٥ زاد المعاد) تفوق الوصف.

بنت الحارث (الشيماء) والشيماء: اسم شهرت به، فلا تعرف في قومها إلا به، ويروى أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها، إذ كان ﷺ عندهم.

حدثت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ رضاعاً أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه(١) في نسوة من سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء وهي في سنة شبهاء، سنة جدب وقحط لم تبق لها شيئاً، قالت حليمة: فخرجت على أتان(٢) لي قمراء(٣)، معنا شارف(٤) لنا، والله ما تجود بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، وما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فقد أدمت السير بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا.

حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا من امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ، فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم!! وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكره أخذه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضعياً غيري، فلما أجمعنا العودة، قلت لصاحبي زوجي: والله إني لأكره أن أرجع بين صواحبي، ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبَنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال لها زوجها: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه، فأخذته، وما

---

(١) هو عبد الله بن الحارث.

(٢) هي أنثى الحمار.

(٣) بيضاء إلى كدرة.

(٤) ناقة حسنة.

حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره، ورجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري جاد ثدياي بما شاءا من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك.

وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فدرت باللبن، فحلب منها ما شاء، وشرب وشربت معه حين انتهينا رياً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، وأصبحنا، فقال لي زوجي: اعلمي يا حليمة أنك أخذت نسمة مباركة.

فقلت له: والله إني لأرجو ذلك، وخرجنا، وركبت أتاني، وحملت الطفل عليها معي، فوالله لقطعت بالركب مسافات ما يقدر على قطعها شيء من فواره دوابهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي:

يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك، أربعي[1] علينا، أليست هذه أتانك التي كنت قد خرجت عليها، فأقول لهن: بلى، والله إنها لهي هي فيقلن لي: والله إن لها لشأنا، وقدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، وكانت غنمي تروح علي — حين قدمنا به معنا — شباعاً فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان القوم يقولون لرعاتهم: ويلكم. اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح[2] أغنامهم جياعاً ما تجود بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتان من حياة الوليد معنا، وفصلته، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان.

فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، قلت لها:

(١) أي انتظري علينا.

(٢) أي تعود من المرعى.

لو تركت بني عندي وقتاً أطول فإني أخشى عليه وباء مكة، ولم أزل بها حتى ردته معنا. فرجعنا به.

هذا هو الطفل العظيم ابن العامين تعود به حليمة إلى وطنها في بني سعد بن بكر، وترعاه، وتربيه.

وتقص حليمة قصة جديدة عظيمة، للطفل العظيم، فتقول:

والله إنه ـــ بعد مقدمنا بأشهر ـــ مع أخيه عبد الله لفي غنم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يعدو، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه. فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائما منتقع[1] الوجه، فالتزمته، والتزمه أبوه فقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو؟ فرجعنا إلى خبائنا، وقال لي أبوه: يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فالحقيه بأهله، قبل أن يظهر ذلك به فاحتملناه، فقدمنا به على أمه[2]، قالت: ما أقدمك به يا حليمة، وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك؟

فقلت: نعم، قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي علي، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته عليك كما تحبين، قالت آمنة لحليمة: ما هذا شأنك، فأصدقيني خبرك، فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت آمنة: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم، قالت: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبني لشأنا، أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام، ثم

---

(١) أي متغير.

(٢) قيل: ردته حليمة إلى أمه وهو ابن خمس سنين وشهر. ولم تره بعد ذلك إلا مرتين: بعد زواجه من خديجة ويوم حنين.

حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يده بالأرض، رافع رأسه إلى السماء. دعيه عنك يا حليمة، وانطلقي راشدة.

وعن رسول الله ﷺ:

استرضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا، نرعى بهماً(١) لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب، مملوءة ثلجا، فأخذاني. فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاه، فاستخرجا منه علقمة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى أنقياه. ثم قال أحدهما لصاحبه:

زنه بعشرة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم فقال دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنها(٢).

---

(١) البهم: الغنم الصغار.

(٢) وتشير حادثة شق الصدر الشريف إلى إنه حدث في طفولته ﷺ، ويروى أنه تكرر غير مرة: فقد حصل مرة ثانية عند المبعث. روى أبو نعيم في دلائل النبوة أن جبريل وميكائيل عليهما السلام شقا صدره وغسلاه، ثم قال جبريل له: اقرأ باسم ربك. وحصل مرة ثالثة عند الاسراء والمعراج، وروى مسلم في صحيحه بسنده عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة قال: قال نبي الله ﷺ: « بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت فانطلق بي، وأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا، قال قتادة: قلت للذي معي؟ قال: إلى أسفل بطنه، فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حشي إيماناً وحكمة.

وحصل شق صدره الشريف مرة رابعة فيما روي عن أبي هريرة قال: سألت رسول الله ﷺ: ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى جالسا، وقال: « إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهر إذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها بخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط. وثياب لم أجدها على أحد قط، فأقبلا إلي يمشيان، =

وفي رعي الغنم يقول رسول الله ﷺ: ما من نبي إلا رعى الغنم، قيل: وأنت يا رسول! قال: وأنا.

وكان رسول الله ﷺ، يقول لأصحابه: أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر.

ويروى أن حليمة السعدية لما قدمت به مكة أضلها في الناس، وهي مقبلة به نحو أهله، فالتمسته فلم تجده فأتت عبد المطلب، فقالت له: إني قد قدمت بمحمد هذه الليلة، فلما كنت بأعلى مكة أضلني، فوالله ما أدري أين هو، فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده، فوجده ورقة بن نوفل بن أسد ورجل آخر من قريش، فأتيا به عبد المطلب، فقالا له: هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة، فأخذه عبد المطلب، فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعوذه، ويدعو له ثم أرسل به إلى أمه آمنة[1].

ويروى أن نفرا من الحبشة، من النصارى، رأوا محمداً مع حليمة السعدية حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه، وسألوها عنه، وقلبوه، ثم قالوا لها: لنأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا، فإن هذا غلام كائن له شأن، نحن نعرف أمره، فلم تكد تنفلت به منهم.

وعاش رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب

= حتى إذا دنيا أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسا فقال أحدهما لصاحبه: أفلق صدره فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم، ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي دخل شبه الفضة، ثم حز إبهام رجل اليمنى، وقال: اعد واسلم، فرجعت أعدو بها رأفة على الصغير، ورحمة على الكبير.

(١) هذا وحواضنه ﷺ: أمه، ثم حليمة والشيماء ابنة حليمة، وثوبية وأم أيمن.

ابن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتا حسنا، لما يريد به من كرامته.

فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالابواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله[1] من بني عدي بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة.

وعاش رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ـــ فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد منهم إجلالا له، وكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشاناً، ثم يجلسه معه عليه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

---

(١) كانت أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو النجارية من بني عدي من بني النجار، ومن هنا كانت خؤولته ﷺ في بني النجار.

وقد توفي عبد الله أبو رسول الله وأمه حامل به، وأما هشام فقال: توفي عبد الله بعد ما أتي على رسول الله ثمانية وعشرون شهراً (١: ٥٧٩ تاريخ الأمم والملوك للطبري مطبعة الاستقامة) وقيل: إنه توفي بعد ميلاد رسول الله بشهرين (١: ٢٢١ العقد الثمين للفاسي)، ويروي الطبري أن عبد الله أقبل من الشام في عير لقريش فنزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفي ودفن في دار النابغة في الدار الصغرى (٥٧٩/١ طبري) وقيل إنه توفي بعد ولادة رسول الله بسبعة أشهر.

وتوفي جده عبد المطلب والرسول ابن ثماني سنين، وكان بعضهم يقول: وهو ابن عشر سنين (٥٧٩/١ طبري ـــ وراجع ١: ٢٢ زاد المعاد).

وفي وفاة أم رسول الله ﷺ يقول الفاسي في كتاب العقد الثمين (١: ١٢٢): ماتت أم رسول الله ﷺ وله أربع أو ست أو سبع سنوات، وقيل: وله ست سنوات ومائة يوم (راجع ١: ٣٢ زاد المعاد) ودفنت بالأبواء، وقيل إن قبر آمنة في شعب أبي ذر بمكة (١: ٥٧٩ الطبري).

وكانت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي بن أبي طالب وزوجة عمه أبي طالب بمثابة الأم لرسول الله بعد وفاة أمه، فلقد ربي الرسول في حجرها وهو ابن ثمان سنين، وكان يجعلها أما له، ولما توفيت كفنها رسول الله بقميصه.

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين توفي جده عبد المطلب، وذلك بعد الفيل بثماني سنين، أي عام ٥٧٩ م[١].

وولي زمزم والسقاية عليها بعد عبد المطلب ابنه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ من أحدث إخوته سنا، فلم تزل إليه، حتى قام الإسلام وهي بيده، فأقرها رسول الله ﷺ له على ما مضى من ولايته.

وكان رسول الله ﷺ يقول: أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر[٢].

(١) وقيل إنه توفي ولرسول الله ست أو عشر سنوات (١: ٣٢ زاد المعاد).

(٢) سيرة ابن هشام: جـ ١: ١٧٨.

نشأة رسول الله

كفل رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب عمه أبو طالب، وكان عبد المطلب في حياته يوصي به أبا طالب، لأن أبا طالب ووالد رسول الله ـــ وهو عبد الله ـــ أخوان لأب وأم، أمهما فاطمة المخزومية.

فكان رسول الله ﷺ بعد جده، مع عمه أبي طالب.

وقدم مكة رجل ذو فراسة من لهب فأتاه رجال قريش بأبنائهم ينظر إليهم، فأتى أبو طالب بمحمد وهو غلام، فنظر إلى رسول الله ﷺ، ثم شغله عنه شاغل فلما فرغ، قال: أين الغلام، ايتوني به، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه، فجعل الرجل يقول: ويلكم، ايتوني بالغلام الذي رأيت من قبل، فوالله ليكونن له شأن.

وخرج أبو طالب في قافلة تجارية إلى الشام، وسافر معه رسول الله ﷺ، وعمه أبو طالب يقول: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً. وسنه إذ ذاك ﷺ تسع سنين كما يقول الطبري (٣ /٣٣)، أو اثنتا عشرة كما يقول ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٢٢).

فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام، وبها راهب مسيحي يقال له بحيرى في دير له نزلوا به، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم.

فلما نزلوا به قريباً من ديره صنع لهم طعاماً كثيراً، ويروى أنه شاهد الركب قادماً وهو في صومعته، وفوق الرسول غمامة تظلله من بين القوم، ونزل الركب في ظل شجرة فتدلت أغصانها على رسول الله.

فلما رأى ذلك بحيرى خرج من صومعته، وأمر بصنع طعام للركب، ثم أرسل إليهم، وقال:

يا معشر قريش، قد صنعت لكم طعاماً وإني داعيكم إلى مأدبتي: صغيركم وكبيركم، عبدكم وحركم.

فقال رجل من الركب: والله يا بحيرى، إن لك لشأنا اليوم، ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً. فما شأنك اليوم؟

قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً، فتأكلوا منه.

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله من بين القوم لحداثة سنه[1] ومكث في رحال القوم تحت الشجرة، فقال بحيرى لهم: لا ينبغي أن يتخلف أحد منكم عن طعامي.

قالوا له: يا بحيرى، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلاماً، وهو أحدث القوم سناً.

فقال له: ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

فقال له رجل من قريش، واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف

(١) يبدو لي أن تخلفه ﷺ كان لسبب آخر هو خوف أبي طالب عليه، من بحيرى، وكان لبحيرى نفوذه وسلطانه، يستطيع بهما أن يصنع ما يشاء له هواه من مكائد بهذا الغلام العظيم، أو أن يدس له السم في طعامه.

ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا[1]، ثم مال إليه، فأتى به وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرى جعل يلحظه، وينظر إليه، فلما فرغوا من الطعام، وقف بحيرى يتحدث مع ذلك الغلام الصغير قال له:

يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى التي تعبدونها إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه.

فرد عليه رسول الله: لا تسألني باللات والعزى شيئاً. فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما.

فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه.

فقال له صلى الله عليه: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله: من نومه، وهيئته، وأموره.

فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته.

ثم أقبل بحيرى على أبي طالب، فقال له: ماذا تكون من هذا الغلام، قال: هو ابني، قال له بحيرى: ما هو بابنك فما حال أبيه؟ قال أبو طالب له: مات وأمه حبلى به. قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فاسرع به إلى بلاده، حيث أنجز أبو طالب شئونه، وعاد به سريعاً إلى مكة. وقيل إن أبا طالب بعث برسول الله إلى مكة مع بعض غلمانه[2].

وشب رسول الله صلى الله وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه، ويحوطه، ويرعاه، ويحميه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته.

---

(١) ذلك دليل على أنه لم يكن في القافلة غلام غيره، وعلى أن ذلك القرشي لا يعرف مقصد أبي طالب من ذلك.

(٢) ١: ٣٣ زاد المعاد لابن القيم.

الرسول في شبابه

بلغ رسول الله ﷺ مبلغ الشباب، فصار أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الشباب، من كرم الحسب، وعراقة المحتد، وعظمة النجار.

وصار يلقب في قريش بالأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وكان يمتنع عن كثير من أمور الجاهلية تكرما وتنزها، ويحفظه الله من كثير من أخلاقها اصطفاء وتكريما وإعدادا إلهيا لرسالة السماء.

ويحدث رسول الله ﷺ عما كان الله يحفظه في صغره من أمر جاهليته، فيقول:

لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان. كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة؛ فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم، ما أراه، لكمة شديدة. وقال لي: شد عليك إزارك.

فأخذت الإزار وشددته عليّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي، وإزاري عليّ من بين أصحابي.

فلما بلغ رسول الله أربع عشرة، أو خمس عشرة سنة، هاجت حرب الفجار[1] بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامها. أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله ﷺ: كنت أنبل على أعمامي، أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

وقال ابن إسحاق (٨٥ ـــ ١٥٢ هـ) هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية ابن عبد شمس وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس.

فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي.

وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وكانت قريش قوماً تجاراً.

فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه. فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبل رسول الله ﷺ، وخرج في مالها، وخرج معه ميسرة، حتى قدم إلى الشام.

ويحدث ميسرة عن غرائب هذه الرحلة فيقول: نزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب

---

(١) سميت حرب الفجار لأنها كانت في الشهر الحرام، وهي أربع حروب، هذه آخرها وكانت عام ٥٨٥ م ويقول الطبري: إن حرب الفجار نشبت والرسول ابن العشرين (٤/٢ طبري طبعة الاستقامة).

إلى ميسرة، وقال له: من هذا؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، قال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

وباع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى لها ما أراد أن يشتري، وقفل راجعاً إلى مكة، ومعه ميسرة، ويقول ميسرة: إنه كانت الهاجرة، واشتد الحر، يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره، وذكر ذلك لخديجة غلامها ميسرة. فذكرت لورقة بن نوفل، وكان ابن عمها، ذلك، من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه، فقال ورقة: لئن كان هذا حقاً يا خديجة إنه لنبي هذه الأمة وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه.

فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به، فبلغ ضعف ثمن شرائه أو نحو ذلك، وحدثها ميسرة بما رأى وما سمع. كانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراده الله بها من كرامته. فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها، بعثت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له: يا ابن عمي، إني قد رغبت فيك لقرابتك ولطفك[1] في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك.

وكانت خديجة[2] يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفا، وأكثرهن مالا .

---

(١) أي شرفك.

(٢) أبوها خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم رواحة بن حجر بن عبد معيص بن عامر بن لؤي.

وأم فاطمة هي هالة بنت عبد مناف بن الحرث بن عمرو بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي.

فوافق رسول الله ﷺ، وعرض الأمر على أعمامه، فخرج معه حمزة ابن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها.

وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم: القاسم، وبه كان يكنى ﷺ، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم وفاطمة عليهم[1] السلام... فأما القاسم والطيب فماتوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن، وهاجرن معه ﷺ، وأما إبراهيم فأمه مارية أهداها إليه المقوقس.

وكان رسول الله ﷺ يقول في خديجة: آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وآستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد إذ حرمني أولاد النساء.

---

(١) توفيت بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمسة أو ستة أشهر، وعمرها أربع أو خمس أو ثمان أو تسع وعشرون سنة، وولدت وقريش تبني الكعبة.

وتزوج بها علي بعد عرس عائشة بأربعة اشهر ونصف، وفاطمة يومئذ بنت خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف. وكان دخول الرسول بعائشة في شوال بعد بدر في السنة الثانية من الهجرة.

الرسول في رجولته

لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها، ويهابون هدمها، وإنما كانت فوق القامة، فأرادا رفعها وتسقيفها. وذلك أن نفرا سرقوا كنزاً للكعبة وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة، وكان الذي وجد عنده الكنز مولى لبني مليح من خزاعة، فقطعت قريش يده.

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها، قام أبو وهب المخزومي[1]، فقال:

يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيه مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس.

ثم إن الناس هابوا هدمها، وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها قائلا: اللهم إنا لا نريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، فأصبح الوليد غاديا على عمله، فهدم وهدم الناس.

(١) هو خال والد رسول الله ﷺ.

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، ثم بنوها. حتى بلغ البنيان موضع الركن ـــ الحجر الأسود ـــ فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، ثم تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً.

ثم إنهم اجتمعوا في المسجد، وتشاوروا وتناصفوا، فقال أبو أمية المخزومي، وكان عندئذ أسن قريش كلها:

يا معشر قريش اجعلوا بينكم ـــ فيما تختلفون فيه ـــ أول من يدخل من باب هذا المسجد[1] يقضي بينكم فيه. فقبلوا. فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ، قبل أن ينزل عليه الوحي،: الأمين.

فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر فقال ﷺ: هلم إليَّ ثوبا، فأُتي به.

فأخذ الركن[2] فوضعه فيه بيده، ثم قال:

لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى عليه.

فلما فرغوا من البنيان، وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب:

وقمنا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعد والتراب
فبوأنا المليك بذاك عزاً ... وعند الله يلتمس الثواب

(١) هو باب بني شيبة (باب السلام اليوم).
(٢) أي الحجر الأسود ـــ وكان الرسول في الخامسة والثلاثين من عمره.

وكانت الكعبة على عهد رسول الله ﷺ ثماني عشرة ذراعا، وكانت تكسى القباطي[1]، ثم كسيت البرود[2]، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف الثقفي المتوفي عام ٩٣ هـ.

وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى، والكهان من العرب، قد تنبأوا بقرب ظهور رسول من العرب.

فالأحبار والرهبان عرفوه من كتبهم، وأما الكهان فنبوءاتهم من إلهام الإنسان المتجردة روحه عن المادة.

فلما قرب زمن ظهور رسول الله ﷺ، وتقارب مبعثه الشريف، كثرت النبوءة برسول من العرب يبعث برسالة من السماء.

(١) ثياب بيض كانت تصنع بمصر.

(٢) ثياب كانت تصنع باليمن — هذا وكان أبو جهم بن حذيفة القرشي ممن كسى البيت في الجاهلية، ثم عمر حتى تجادل فيه مع ابن الزبير (٢: ٤٠٠ سير أعلام النبلاء).

البعثة النبوية الشريفة

لما بلغ النبي ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين.

وأول ما بدأ به رسول الله الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح، وحبب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده.

وحين أراده الله بكرامته، كان إذا خرج لحاجته أبعد، فلا يمر ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت رسول الله فلا يرى إلا الشجر والحجر.

ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان.

وكان رسول الله ﷺ يتحنث في حراء من كل سنة شهراً وكان ذلك مما تتحنث به قريش في الجاهلية، فإذا انصرف كان أول ما يبدأ به الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً.

حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان[1].

(١) كان نزول الرسالة يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول عام ١٣ ق.هـ ــ ٩ من فبراير عام ٦١٠ على ما يرجحه بعض الباحثين.

ففيه خرج رسول الله ﷺ إلى حراء، كما كان يخرج لجواره، ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى:

قال رسول الله ﷺ: فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال:

اقرأ

قلت: ما أنا بقارئ

فغطني[1] حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني.

فقال: اقرأ

قلت: ما أنا بقارئ

فغطني حتى ظننت أنه الموت.. ثم أرسلني.

فقال: اقرأ

قلت: ماذا اقرأ

فغطني حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني.

فقال: اقرأ

فقلت: ماذا أقرأ؟

فقال: اقرأ باسم ربك، الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عني.

وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي، فخرجت حتى إذا كنت

---

(١) أي عصرني عصراً شديداً.

في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل.

فرفعت رأسي إلى السماء أنظر.

فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم ولا أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني، وانصرفت راجعاً إلى أهلي، حتى أتيت خديجة، فجلست إلى فخذها.

فقالت يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا.

ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت:

أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة، وهو ابن عمها، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع.

فقال ورقة: قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر(١) الذي كان يأتي موسى وإنه

---

(١) جبريل عليه السلام، وكان نزول جبريل يوم الاثنين لسبع من رمضان وقيل لسبع عشرة مضت، وروي عن أبي هريرة أنه كان في السابع والعشرين من رجب، وقال ابن عمر: لثمان عشرة =

لنبي هذه الأمة، فقولي له: فليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بقول ورقة.

فلما قضى رسول الله ﷺ جواره في حراء، وانصرف إلى مكة، صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة، وهو يطوف بالكعبة، فقال: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة:

والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى.

ثم انصرف رسول الله إلى منزله.

فابتدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان، يقول الله عز وجل:

﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى الناس، وبينات من الهدى والفرقان ﴾(1).

= من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل.

وكانت سن الرسول حين جاءته الرسالة أربعين (٢/٤٢ الطبري)، وقيل جاءته الرسالة وهو ابن الثالثة والأربعين (٢/٤٢ الطبري).

ويقول الطبري: نزل القرآن لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان يوم الاثنين وقيل لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان (٢/٢٤ الطبري ـــ طبعة الاستقامة).

ويقول ابن القيم في كتابه « زاد المعاد »: إن البعثة كانت لثمان من ربيع الأول من سنة ٤١ من عام الفيل (١: ٣٣ زاد المعاد).

(1) سورة البقرة الآية ١٨٥.

وهكذا نزل الوحي إلى رسول الله ﷺ، وهو مؤمن بالله، مصدق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله، وتحمل منه ما حمله، على رضاء العباد وسخطهم.

والنبوة أثقال ومؤونة، لا يحملها، ولا يستطيع القيام بها، إلا أهل القوة والعزم من الرسل، بعون الله وتوفيقه تعالى، لما يلقون من الناس.

فمضى رسول الله ﷺ على أمر الله، على ما يلقي من قومه من الخلاف والأذى.

آمنت به خديجة، وصدقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره.

وكانت أول من آمن بالله، وبرسوله، وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه، ﷺ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه، وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بهذا إذا رجع إليها.. تثبته وتخفض عليه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس.

وقال رسول الله ﷺ: أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب(١).

ثم فتر الوحي عن رسول صلى عليه وسلم فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه، فأحزنه، فجاءه جبريل بسورة الضحى الشريفة.

فجعل رسول الله ﷺ، يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به، من النبوة، سراً، إلى من يطمئن إليه من أهله.

وافترضت عليه الصلاة. فصلى رسول الله ﷺ، وأول ما افترضت عليه، ركعتين ركعتين كل صلاة.

---

(١) هو اللؤلؤ المجوف.

ويروى أن جبريل أتاه، وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل، عليه السلام، ثم توضأ رسول الله، ﷺ، كما رأى جبريل توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله، ﷺ، بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام.

فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته.

ثم كان أول من آمن به من الذكور وصلى معه، وصدق بما جاءه من الله تعالى، علي بن أبي طالب، وهو ابن عشر سنين يومئذ(١)، وكان مما أنعم الله به على علي أنه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام. أصابت قريشاً قبل الإسلام أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلا، وتأخذ أنت رجلا فنكفلهما عنه.

قال العباس: نعم.

فانطلقا، حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك، حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه.

فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلا فاصنعا ما شئتما.

فأخذ رسول الله علياً فضمه إليه.

وأخذ العباس جعفراً، فضمه إليه.

---

(١) راجع ٢/٥٧ الطبري قيل: أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة، وقيل ابن إحدى عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة سنة.

فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً، فاتبعه علي وآمن به، وصدقه.

ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم، واستغنى عنه.

وكان رسول الله إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه. فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا[1].

---

(١) أمامنا صورة لبدء الإسلام رواها الجاحظ في رسائله، وفي كتابه « العثمانية » عن عطيف بن قيس الكندي، قال: كنت في الجاهلية عطاراً، فقدمت مكة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، فبينما أنا جالس عنده، أنظر إلى الكعبة، وقد تحلقت الشمس في السماء، أقبل شاب كأن في وجهه القمر. حتى رمي ببصره إلى السماء، فنظر إلى الشمس ساعة، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة، فصف قدميه يصلي.

فخرج على إثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية. فقام عن يمينه.
فجاءت امرأة متلففة في ثيابها. فقامت خلفهما.
فأهوي الشاب راكعا، فركعا معه.
ثم أهوى إلى الأرض ساجداً، فسجدا معه.
فقلت للعباس: يا أبا الفضل، أمر عظيم.
فقال: أمر ــ والله ــ عظيم.
أتدري من هذا الشاب؟
قلت: لا.
قال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله.
أتدري من هذا الفتى؟ قلت: لا
قال: هذا ابن أخي علي بن أبي طالب.
أتدري من المرأة؟ قلت: لا.

قال: هذه ابنة خويلد، هذه خديجة زوج محمد هذا، وإن محمدا هذا يذكر أن إلهه ــ إله السماء والأرض أمره بهذا الدين، فهو عليه كما ترى، ويزعم أنه نبي، وقد صدقه على قوله: علي ابن عمه هذا الفتى، وزوجه خديجة هذه المرأة. =

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله:

ما هذا الدين الذي أراك تدين به. قال:

أي عم، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم. بعثني الله به رسولا إلى العباد.

وأنت ـــ أي عم ـــ أحق من بذلت له النصيحة. ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه.

= روى ذلك الجاحظ في رسائله، ورواه الطبري كذلك (٥٦/٢).

هذا وعلي أول من أسلم من المهاجرين، ومعاذ بن عفراء أول من أسلم من الأنصار، وأول من بايع رسول الله بيعة الرضوان هو سنان الأسدي (ص ١٧ الأوائل) وأول من جمع بالمدينة أسعد بن زرارة ص ١٧ المرجع نفسه ـــ وأول من أفشى القرآن بمكة عبد الله بن مسعود (ص ١٧٣ المرجع) ـــ وأول من استشهد في الإسلام الحارث بن أبي هالة، وأول من أتى أرض الحبشة حاطب بن عمر، وأول من دفن بالبقيع عثمان بن مظعون ص ١٧٤ المرجع، وأول من قدم من المهاجرين إلى المدينة أبو سلمة وأول من بايع رسول الله ليلة العقبة البراء بن معرور ـــ ١٧٥ المرجع ـــ وأول من أذن في الإسلام بلال، وأول مولود في الإسلام قبل الهجرة عبد الله بن عمر ١٧٧ المرجع، وأول مولود بالمدينة وبعد الهجرة عبد الله بن الزبير، وأول مولود ولد من الأنصار بعد الهجرة النعمان بن بشير.

الدعوة إلى الإسلام

شمر رسول الله في سبيل الجهاد من أجل تبليغ رسالة الله. دعا أبا بكر بن أبي قحافة من تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر، واسمه عتيق لحسن وجهه وعتقه، دعاه إلى الإسلام فأسلم.

ولما دخل في دين الله أظهر إسلامه، ودعا إلى الله وإلى رسوله.

وكان أبو بكر رجلا مؤلفاً لقومه، محبباً سهلا، وكان أنسب قريش لقريش[1] وأعلم قريش بها، وكان رجلا تاجراً ذا خلق ومعروف.

وكان رجال قومه يأتونه، ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته.

فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه، ويجلس إليه.

---

(١) يروى أن جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي كان من أحب قريش لقريش وللعرب قاطبة، وكان يقول: إنما أخذت النسب من أبي بكر، وكان أبو بكر الصديق أنسب العرب (سيرة ابن هشام ١: ٨ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد).

فأسلم بدعائه:

١ ــ عثمان بن عفان.
٢ ــ الزبير بن العوام بن خويلد (توفي عام ٣٦ هـ عن ٦٤ عاماً).
٣ ــ عبد الرحمن بن عوف (٤٢ ق هـ ــ ٢٢ هـ)
٤ ــ سعد بن أبي وقاص أسلم وهو ابن سبع عشرة ومات عام ٥٥ هـ وقال رسول الله ﷺ فيه: هذا خالي، لأن آمنة أم الرسول زهرية وهي ابنة عم أبي وقاص.

٥ ــ طلحة بن عبيد الله (توفي عام ٣٦ هـ عن ٦٢ عاماً).
فجاء بهم إلى رسول الله، حين استجابوا له، فأسلموا وصلوا.

٦ ــ ثم أسلم أبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح، واسمه عامر (ت ١٨ هـ عن ٥٨ سنة).

٧ ــ وأبو سلمة بن عبد الأسد (٥٤) وامرأته أم سلمة.
٨ ــ والأرقم بن أبي الأرقم.
٩ ــ وعثمان بن مظعون (٥٣).
١٠ و١١ ــ وأخواه: قدامة وعبدالله بن مظعون.
١٢ ــ وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف.
١٣ ــ وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.
١٤ ــ وامرأة سعيد: فاطمة بنت الخطاب أخت عمر.
١٥ ــ وأسماء بنت أبي بكر[١].

---

(١) هي والدة عبد الله بن الزبير، وكانت أسن من عائشة ببضع عشرة سنة، شهدت اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام، قتل ابنها عبد الله بن الزبير في ١٧ جمادى الأول سنة ٧٣ هـ وماتت بعده بسبعة أيام (٢: ٢٠٨ ــ ٢١٤ سير أعلام النبلاء).

١٦ ـ وعائشة بنت أبي بكر، وهي يومئذ صغيرة[١]
١٧ ـ وخباب بن الأرت حليف بني زهرة بن كلاب وهو من بني تميم، ويقال: من خزاعة.
١٨ ـ وعمير بن أبي وقاص، أخو سعد.
١٩ ـ وعبد الله بن مسعود حليف بني زهرة[٢].
٢٠ ـ ومسعود بن القاري، من القارة.
٢١ ـ وسليط بن عمرو.
٢٢ ـ وأخوه حاطب بن عمرو.
٢٣ ـ وعياش بن أبي ربيعة.
٢٤ ـ وامرأته أسماء التميمية.
٢٥ ـ وخنيس بن حذافة السهمي.
٢٦ ـ وعامر بن ربيعة، حليف آل الخطاب، وهو من عنز بن وائل.
٢٧ ـ وعبد الله بن جحش.
٢٨ ـ وأخوه أبو أحمد وهما حليفا بني أمية بن عبد شمس.
٢٩ ـ وجعفر بن أبي طالب.
٣٠ ـ وامرأته أسماء بنت عميس.
٣١ ـ وحاطب بن الحارث.
٣٢ ـ وامرأته فاطمة.

---

(١) ذكرها مع السابقين الأولين إلى الإسلام ـ مع ما روي من أنها هاجرت وهي في التاسعة من عمرها مما يجعل ميلادها بعد البعثة باربع سنين يدل على أن تقدير سن عائشة هذا التقدير ليس موضع يقين.

(٢) عبد الله بن مسعود الهذلي المكي المهاجري البدري حليف بني زهرة، معدود من أذكياء العلماء، وكان من أوائل من جهروا بالقرآن في مكة بعد رسول الله، ويقول ابن مسعود: قرأت على رسول الله سبعين سورة، وعاش بضعاً وستين سنة وتوفي عام ٢٣ هـ (٣٣٠ ـ ١/٣٥٧ سير أعلام النبلاء).

٣٣ ــ وأخوة حطاب بن الحارث.

٣٤ ــ وامرأة حطاب فكيهة بنت يسار.

٣٥ ــ ومعمر الحارث.

٣٦ ــ والمطلب بن أزهر.

٣٧ ــ وامرأته رملة.

٣٨ ــ والنحام نعيم بن عبد الله بن أسيد، أخو بني عدي بن كعب بن لؤي.

٣٩ ــ وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر.

٤٠ ــ وخالد بن سعيد بن العاص.

٤١ ــ وأمرأته أمينة من خزاعة.

٤٢ ــ وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود.

٤٣ ــ وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة[1].

٤٤ ــ وواقد بن عبد الله، حليف عدي بن كعب، جاءت به باهلة، فباعوه من الخطاب بن نفيل، فتبناه.

٤٥ ــ ٤٨ ــ وخالد وعامر وعاقل وإياس، حلفاء بني عدي بن كعب.

٤٩ ــ وعمار بن ياسر حليف بنيّ مخزوم، وهو من مذحج، وفي هجرته إلى الحبشة شك، قتل في معركة صفين.

٥٠ ــ وصهيب بن سنان حليف بني تيم، ويقال إنه مولى عبد الله جدعان، ويقال: إنه رومي ــ وقيل: كان أسيرا في أرض الروم فاشتري منهم، توفي عام ٣٨ هـ عن ٨٤ سنة.

---

(١) مات عام ١٢ هـ في يوم اليمامة ص ٥٣ عاماً (١١٨ و١٩ ١/١ سير أعلام النبلاء).

٥١ ــ عتبة بن غزوان، من المهاجرين إلى الحبشة، وقد أسلم سابع سبعة في الإسلام شهدوا بدراً والمشاهد[١].

ثم دخل الناس في الإسلام، من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث الناس به.

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادي الناس بأمره، وكان بين ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه.

قال الله تعالى لرسوله:

ــ ﴿ **فاصدع[٢] بما تؤمر** ﴾[٣]

ــ ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[٤].

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم فضرب سعد بن وقاص يومئذ رجلا من المشركين، فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام.

فلما نادى رسول الله قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله لم يبعدوا منه ولم يردوا عليه، حتى ذكر آلهتهم وعابها.

---

(١) هو الذي اختط البصرة ومات عام ١٧ هـ عن ٧٥ سنة (١: ٢٢١ و٢٢٢ سير أعلام النبلاء).

(٢) أي أفرق بين الحق والباطل.

(٣) سورة الحجر الآية ٩٤.

(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

فلما فعل ذلك أعظموه، وناكروه وأجمعوا على عداوته، إلا من عصمه الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون.

وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب، ومنعه، وقام دونه ومضى رسول الله على أمر الله، مظهراً لأمره ولا يرده عنه شيء.

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في طريقه، ورأوا أن عمه قد حدب عليه وقام دونه، تحيروا في أمرهم لا يدرون ماذا يفعلون ولكنهم مضوا في طريقهم من مقاومة الرسول، وإعلان العداوة للدين الذي أتى به.

وقال أبو طالب لرسول الله:

أي ابن أخي إنني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت.

ويروى أنه قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟

قال: يا أبتي، آمنت بالله، وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته.

فقال لابنه: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير، فالزمه.

ثم أسلم زيد بن حارثة الكلبي، مولى رسول الله ﷺ وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد علي بن أبي طالب، وكان حكيم بن حزام ابن خويلد، ابن أخي خديجة، قدم من الشام برقيق، فيهم زيد، فدخلت عليه عمته خديجة، وهي يومئذ عند رسول الله ﷺ، فقال لها: اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت فهو لك، فاختارت زيداً، فأخذته، فرآه رسول الله عندها فاستوهبه منها فوهبته له فأعتقه رسول الله، وتبناه، وذلك قبل أن يوحى إليه. وكان أبو زيد قد جزع عليه جزعاً شديداً. وبكى عليه حين فقده، وقدم مكة يبحث عنه وهو عند رسول الله

ﷺ « فقال له رسول الله: إن شئت أقم عندي وإن شئت فانطلق مع أبيك ».

فقال: بل أقيم عندك. فلم يزل عند رسول الله حتى بعثه الله، فصدقه، وأسلم، وصلى معه، وزوجه رسول الله من ابنة عمه أميمة بنت عبد المطلب، وهي زينب بنت جحش الأسدية، ولما طلقها تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة من عام خمس من الهجرة، وهي يومئذ بنت خمس وعشرين، وتزوج زيد أم أيمن حاضنة رسول الله فولدت له أسامة، ومات أسامة في آخر خلافة معاوية.

قريش تقاوم الإسلام

مضت قريش في غلوائها، تحارب وحي الله، ورسول الله.

ومشى رجال من أشراف قريش، فيهم: عقبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، واسمه صخر، وأبو البحتري العاص بن هشام، والأسود ابن المطلب، وأبو جهل (عمرو) بن هشام، والوليد بن المغيرة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل فقالوا:

يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه.

وتفاقم الأمر بينه وبينهم، وكثرت الخصومات والعداوات في قريش، وأكثرت قريش من تناول رسول الله بالشر، وحض بعضهم بعضاً عليه.

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنك لم تنه ابن أخيك عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا،

فأما أن تكفه عنا أو ننازله، وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله لهم.

وبعث أبو طالب إلى رسول الله، فقال له يا ابن أخي:

إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

فقال له رسول الله ﷺ: يا عم.

والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته.

ثم استعبر رسول الله فبكى، ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا بن أخي فأقبل عليه رسول الله.

فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً.

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله.
فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له:

يا أبا طالب، هذا عمارة أنهد[1] فتى في قريش، وأجمله، فخذه، فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً، فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك، هذا، الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فإنما هو رجل برجل.

---

(١) أي أقوى

قال أبو طالب:

والله لبئس ما تسومونني[1]: أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً.

فقال المطعم بن عدي:

والله، يا أبا طالب، لقد أنصفك قومك، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فقال أبو طالب:

والله ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعت خذلاني، فاصنع ما بدا لك.

وأجمعت قريش على حرب رسول الله وأصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله بعمه أبي طالب.

وحين رأى أبو طالب قريشاً يصنعون ما يصنعون، قام في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله، والقيام دونه.

فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعا إليه إلا ما كان من أبي لهب عدو الله.

ثم إن الوليد بن المغيرة، اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم:

إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه. وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً فقالوا له:

---

(١) أي تكلفونني.

أنت، يا أبا عبد شمس، فقل، وأقم لنا رأياً نقل به.

قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: هو كاهن

قال: لا والله، ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة[1] الكاهن ولا سجعه.

قالوا: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا وسوسته.

قالوا: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه وقريضه، فما هو بالشعر.

قالوا: ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم. فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما نقول؟

قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: هو ساحر، جاء بقول هو السحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك.

فجعلوا يجلسون على السبل، لا يمر بهم أحد إلا حذروه اياه، وذكروا لهم أمره، فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة:

---

(١) الزمزمة: الكلام الخفي لا يفهم.

﴿ إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر ﴾[1] إلى آخر هذه الآيات الشريفة.

وجعلوا يقولون في رسول الله لمن لقوهم من الناس: إنه لساحر، ونزل قول الله عز وجل في الوليد: ﴿ ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر ﴾[2].

وصدرت العرب من ذلك الموسم أمر رسول الله، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

وقال أبو طالب قصيدته المشهورة:

كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلا أمركم في بلابل
وأبيض يستسقى للغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل
فمن مثله في الناس أي مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل

والبيت الأول يدلنا على أن قريشاً قالت لبني هاشم: اتركوا مكة واجلوا عنها.

فلما انتشر أمر رسول الله في العرب، وبلغ البلدان، ذكر بالمدينة، وكان هذا الحي الأوس والخزرج على علم بأمر رسول الله حين ذكر، وقبل أن يذكر، لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود وكانوا لهم حلفاء.

فقال أبو قيس بن الأسلت من شعراء المدينة، وكان يحب قريشاً وكان لهم صهراً، فزوجه أرنب بنت أسد بن عبد العزى منهم، وكان

---

(١) سورة المدثر الآيات ١٨ و١٦ و٢٠.

(٢) سورة المدثر الآيات ٢٣ و٢٤ و٢٥.

يقيم عندهم السنين بامرأته. قال قصيدة يعظم فيه الحرمة وينهى قريشاً عن الحرب، وينصحهم بالكف بعضهم عن بعض، ويذكر فضلهم وأحلامهم، ويوصيهم بالكف عن رسول الله، ويذكرهم بنعم الله عليهم، ودفعه الفيل عنهم. ومنها:

أقيموا لنا ديناً حنيفاً، فأنتم لنا غاية، قد يهتدى بالذوائب
وأنتم لهذا الناس نور وعصمة تؤمون والأحلام غير عوازب
فإن تهلكوا نهلك ويهلك مواسم يعاش بها قول امرئ غير كاذب

واشتدت قريش، لشقائهم، في عداوة رسول الله ومن أسلم معه منهم. فأغروا برسول الله شعراءهم، فكذبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله مظهر لأمر الله، لا يستخفي به، فبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم..

قال عبد الله بن عمرو بن العاص لأبيه: ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله فيما كانوا يظهرون من عداوته؟

قال لابنه: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر فذكروا رسول الله فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم.

فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالبيت.

فلما مر بهم غمزوه[1] ببعض القول، قال عمرو: فعرفت ذلك في وجه رسول الله.

---

(١) أي طعنوا فيه بالكلام.

ثم مضى، فلما مرّ بهم الثانية[1] غمزوه بمثلها.
فعرفت ذلك في وجه رسول الله.
ثم مضى، فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها.
فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش: أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح.

فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم تحريضا عليه، ووصاة بإيذائه ليسكنه بأحسن ما يجد من القول، ويقول له:

انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولا.
فانصرف رسول الله ﷺ.

حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأتى عمرو بن العاص معهم.

فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه!

فبينا هم في ذلك طلع رسول الله، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم.

فيقول رسول الله: نعم أنا الذي أقول ذلك.
فرأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه، يكاد يخنقه.
فقام أبو بكر دونه وهو يبكي، ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله.

ثم انصرفوا عنه.
فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط.

---

(١) أي المرة الثانية في الطواف.

وعن أم كلثوم ابنة أبي بكر: لقد رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فوق رأسه، مما جذبوه من لحيته، وكان أبو بكر رجلا كثير الشعر.

وكان من أشد ما لقي رسول الله من قريش أنه خرج يوما، فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه، لا حر ولا عبد، فرجع رسول الله إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه:

﴿ **يا أيها المدثر قم فأنذر** ﴾[1].

إسلام حمزة عم رسول الله

مر أبو جهل بن هشام برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه.

فلم يكلمه رسول الله.

وعمد أبو جهل إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم.

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله متوشحا قوسه، راجعا من الصيد. وأقبل ليطوف بالكعبة قبل أن يذهب إلى أهله، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة.

فمر بجارية لعبد الله بن جدعان، شهدت صنع أبي جهل برسول الله، وقد رجع رسول الله إلى بيته، فقالت له الجارية: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم!! وجده هاهنا جالسا فآذاه، وسبه، وبلغ منه ما يكره، ولم يكلمه محمد.

---

(١) سورة المدثر الآية ١.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى، ولم يقف على أحد.

فلما دخل المسجد وجد أبا جهل جالسا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة شديدة.

ثم قال حمزة له: أتشتم محمدا فأنا على دينه أقول ما يقول، فرد ذلك عليّ إن استطعت.

فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فوالله إني قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا.

وأقام حمزة على إسلامه، وكان ذلك في السنة السادسة من البعثة على ما قاله لفيف من المؤرخين.

وعرفت قريش أن رسول الله قد عز، وأن حمزة سيمنعه، فخففوا من غلوائهم بعض الشيء.

كان عتبة بن ربيعة، من سادة قريش، جالسا يوما في نادي[1] قريش ورسول الله جالس في المسجد وحده، فقال عتبة:

يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة، ورأى عتبة أصحاب رسول الله يزيدون.

فقالوا له:

بلى، يا أبا الوليد، قم إليه، فكلمه.

(١) النادي: المجلس.

فقام عتبة، حتى جلس إلى رسول الله، فقال له:
يا أبن أخي.
إنك منا حيث قد علمت، من الرفعة في العشيرة، والمكان في النسب.
وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله: قل يا أبا الوليد اسمع.
قال:
يا ابن اخي..
إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالا.

وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك.

وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطلب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه.

فلما فرغ عتبة، قال له رسول الله ﷺ: أقد فرغت يا أبا الوليد؟
قال: نعم
قال: فاستمع مني
قال: أفعل
قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم * تنزيلٌ منَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ * كتابٌ فُصِّلتْ آيَاتُهُ قُرآناً عربياً لقوم يعلَمُون، بَشِيراً ونَذِيراً، فَأَعْرَضَ أكثرُهُمْ فهم لا يَسْمَعُون،

وَقَالُوا: قُلُوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إليهِ وَفي آذَانِنا وَقْرٌ، وَمِن بينِنَا وَبينِكَ حِجَابٌ، فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * قل إنما أنا بشرٌ مثلُكُم يُوحَي إليَّ أنما إلهُكُم إلهٌ واحدٌ فَاسْتَقيموا إليه، واستغفروه، وويلٌ للمشركين ﴾[1].

ومضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه.

فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه.

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها[2]، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه.

فقال بعضهم لبعض: تحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال:

ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط.

والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

يا معشر قريش:

أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد

---

(١) سورة فصلت الآية الأولى وما بعدها.

(٢) سورة فصلت آية ٣٨ ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالذينَ عندَ ربِّكَ يُسَبِّحُون له بالليلِ والنهار وَهُمْ لا يَسْئَمُون ﴾.

كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به..

فاعتزلوه وقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد لسانه.

قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

ثم جعل الإسلام ينتشر بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين.

مؤاخاة رسول الله بين المسلمين الأولين في مكة وهي المؤاخاة الأولى[1]

— ١ —

في المدينة وبعد الهجرة النبوية الشريفة، نقف أمام حدث إنساني رفيع، هو مؤاخاة الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، هذه المؤاخاة الفريدة الفذة في تاريخ الإنسانية.

فلقد آخى رسول الله ﷺ — في المدينة، بعد الهجرة — بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال لهم كما يروي ابن هشام في سيرته:

تآخوا في الله، أخوين أخوين.

أخذ بيد علي فقال: إن هذا أخي، وكان حمزة عمه وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين في الله.

وكان جعفر بن أبي طالب — وهو آنذاك مقيم بالحبشة منذ هاجر إليها مع جماعات من أصحاب رسول الله فراراً من أذى قريش وطغيانها

(١) عرف العرب في الجاهلية المؤاخاة بمعناها العام، ويقول حاتم الطائي لابنه: أي بني لا تؤاخ امرأً حتى تعاشره، فإذا استطعت العشرة ورضيت الخبرة فواجه على إقامة العثرة والمواساة في العسرة.

ــ ومعاذ بن جبل أخوين، وكان أبو بكر وخارجة الخزرجي أخوين، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعتبان بن مالك الخزرجي أخوين في الله، وكان أبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين، وكان عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع الخزرجي أخوين.

وكذلك كان الزبير وعبد الله بن مسعود أخوين.

وكان سعيد بن زيد وأبي بن كعب أخوين، وكذلك كان طلحة وكعب بن مالك أخوين.

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر صارا أخوين.

وكان عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان في هذه المؤاخاة الإسلامية الفريدة أخوين، وأبو ذر والمنذر بن عمرو الخزرجي صارا أخوين.

وصار أبو الدرداء وسلمان الفارسي أخوين

وصار بلال وأبو رويحة الخثعمي، أخوين وصار حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين.

وبذلك حدثت أغرب وأعظم مؤاخاة إنسانية في التاريخ، وكانت هذه المؤاخاة في المدينة بين فقراء المهاجرين وبين الأنصار، وعظمت يد الأنصار على المهاجرين، حتى قالوا فيهم: ما رأينا مثل أنصار المدينة، لقد أحسنوا مواساتنا، وبذلوا الكثير، وأشركونا في المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله.

هذه هي المؤاخاة الفريدة الجليلة التي حدثت في الإسلام بعد الهجرة الشريفة على يد رسول الله ﷺ، ولا يذكر التاريخ مؤاخاة أخرى حدثت غير هذه المؤاخاة، ولا تذكر كتب السيرة النبوية أن رسول الله صلوات الله عليه قد أحدث مؤاخاة أخرى بين المسلمين، غير هذه المؤاخاة، فكتاب السيرة جميعاً يذكرون تلك المؤاخاة ويحددون

زمنها بأوائل قدوم رسول الله صلوات الله عليه إلى المدينة بعد الهجرة النبوية الشريفة.

ولكني عثرت على نصوص أخرى من السيرة النبوية ومن كتب طبقات الصحابة والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين، تدل على أنه كانت هناك في مكة قبل الهجرة مؤاخاة بين المسلمين سبقت تلك المؤاخاة التي حدثت بين الأنصار والمهاجرين.

يقول ابن الأثير في كتابه المشهور « أسد الغابة في معرفة الصحابة » ما نصه:

آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام وبين عبد الله بن مسعود لما آخى بين المهاجرين بمكة، فلما قدم الزبير المدينة وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين سلامة بن وقش[1].

وهذا النص صريح على أن رسول الله ﷺ آخى بين الصحابة بمكة قبل الهجرة النبوية، فلما هاجر إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة ثانية شبيهة بتلك المؤاخاة الأولى التي حدثت في مكة بين الصحابة قبل الهجرة، ممن هاجروا بعد هجرة رسول الله إلى المدينة، ولذلك سماهم ابن الأثير المهاجرين باعتبار أنهم هاجروا بعد ذلك، بدليل قوله « آخى بين المهاجرين بمكة ».

وقد سبق أن قلنا إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه آخى في المدينة بين الزبير وعبد الله بن مسعود وهذا النص الذي نقلناه من ابن الأثير يشير إلى أن هذه المؤاخاة كانت في مكة، وأن الرسول ﷺ إنما آخى في المدينة بين الزبير وسلامة بن وقش.

---

(١) ٢/٢٩٧ أسد الغابة طبع طهران.

فلندع هذا النص إلى نص آخر من ابن الأثير في كتابه « أسد الغابة »، يقول عمدة الحفاظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير ما نصه:

« لما أسلم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام آخى رسول الله بينهما بمكة قبل الهجرة. فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى رسول الله بين طلحة وبين أبي أيوب الأنصاري »[1].

وهذا النص صريح في أنه حدثت مؤاخاة بين المسلمين الأولين بمكة قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ومن هذا النص نتبين ما يلي:

١ ــ كانت هناك مؤاخاة في مكة بين طلحة والزبير ــ بينما النص السابق يشير إلى أن المؤاخاة في مكة كانت بين الزبير وعبد الله بن مسعود.

٢ ــ وفي المدينة آخى رسول الله بعد الهجرة بين طلحة وأبي أيوب الأنصاري ــ وقد ذكرنا من قبل في خبر المؤاخاة بعد الهجرة أن الرسول آخى في المدينة بين طلحة وشاعر رسول الله كعب بن مالك.

ونحن لا يضيرنا اختلاف الروايات في أسماء الصحابة الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ في مكة أو المدينة.

ولكن الذي نلفت إليه النظر هنا هو ما يشير إليه ابن الأثير من أنه كانت هناك في مكة قبل الهجرة مؤاخاة بين المسلمين رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن ذلك كله نتبين ما يلي:

---

(١) ص ٣/٢٩ من أسد الغابة.

١ ـــ كانت هناك في مكة قبل الهجرة مؤاخاة إسلامية أولى بين السابقين إلى الإسلام، وهذه المؤاخاة كانت ضرورية لتقوية صفوف المسلمين لزيادة تعاونهم في مجالات الدعوة والعقيدة والحياة، ولتثبيت قلوب المسلمين.

وهذه المؤاخاة هي أول مؤاخاة في التاريخ العالمي كله بعامة، وفي تاريخ الإسلام كله بخاصة، وهي مؤاخاة لم تذكرها كتب السيرة النبوية، ومن ثم كانت مجهولة لا يشير إليها أحد من مؤرخي السيرة على الإطلاق، ولم يكشف عن فكرتها أحد قبل، ولم يكتب عنها شيء قبل هذا البحث.

٢ ـــ وفي المدينة وبعد الهجرة حدثت مؤاخاة ثانية شارك الأنصار المهاجرين فيها أموالهم ودورهم ومتاجرهم وكل ما يملكون، مؤاساة للذين قدموا عليهم من المهاجرين من صحابة رسول الله ﷺ، ممن فارقوا ديارهم وأموالهم ودورهم وتجارتهم وأرضهم ومساكنهم وهذه هي المؤاخاة المشهورة التي لم تتحدث كتب السيرة إلا عنها، ولم تشر إلا إليها.

وجملة القول أن اضطهاد قريش للمسلمين في مكة دعا رسول الله ﷺ إلى أن يقيم بين المسلمين فيها مؤاخاة كريمة نبيلة يتقاسم فيها المسلمون ما يملكون من مال، حفظا للحياة، وقياماً بمؤونة الأهل، وسداً لحاجات الأطفال، ومعاونة على مواصلة الجهاد في سبيل الله والعقيدة.

وما أنبل ما تحلى به المسلمون الأولون من إيثار ومشاركة وبذل وعطاء ومؤاخاة ومواساة ومعاونة، لإخوانهم ممن حاربهم المشركون في رزقهم ومالهم وكسبهم ومعاشهم، رحمة الله ورضوانه على صحابة رسول الله من السابقين إلى الإيمان، من المهاجرين والأنصار.

— ٢ —

وهناك نصوص أخرى تؤيد ذلك:

١ ــ ففي كتاب « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » للإمام الكبير الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢ هـ في باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه؟ وهو من الأبواب التي ذكرها بعد مبعث النبي ﷺ وهجرته، وبعد كتاب الفضائل، ما نصه: « قال ابن عبد البر: كانت المؤاخاة مرتين: مرة بين المهاجرين خاصة، وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار فهي المقصودة هنا... » ثم قال: « وقصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع ابن عمير عن ابن عمر « آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمرو، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف، وعثمان... » وذكر جماعة، قال « فقال علي: يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي؟ فقال: أنا أخوك[1] تقوى به.

٢ ــ وفي كتاب الزرقاني على المواهب اللدنية تحت عنوان المؤاخاة بين الصحابة: « وكانت كما قال ابن عبد البر مرتين الأولى بمكة قبل الهجرة بين المهاجرين بعضهم بعضا على الحق والمواساة فآخى بين أبي بكر وعمر وطلحة والزبير وبين عثمان وعبد الرحمن كما رواه الحاكم... إلى أن قال الزرقاني وأنكر ابن تيمية هذه المؤاخاة بين المهاجرين خصوصاً بين المصطفى وعلي وزعم أن ذلك من الأكاذيب »[2].

---

(١) فتح الباري جـ ٨ ص ١٧٢ــ٢٧٣ ط الحلبي، ويمكن الرجوع إلى الكتاب في جميع طبعاته عند شرح أحاديث باب كيف آخي النبي ﷺ بين أصحابه؟

(٢) ٣٧٣/١ الزرقاني على المواهب اللدنية المطبعة الأزهرية ١٣٢٥ هـ.

٣ — ويقول ابن تيمية ما نصه « وأما ما يذكر بعض المصنفين في السيرة من أن النبي ﷺ آخى بين علي وأبي بكر نحو ذلك فهذا باطل باتفاق أهل المعرفة بحديثه، فإنه لم يؤاخ بين مهاجر ومهاجر، ولا بين أنصاري وأنصاري، إنما آخى بين المهاجرين والأنصار وكانت المؤاخاة والمخالفة يتوارثون بها دون أقاربهم حتى نزل قول الله:

﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾[1] فصار الميراث بالرحم دون هذه المؤاخاة[2] — ويقول ابن حجر[3]:

« وأنكر ابن تيمية في كتاب الرد على ابن المطهر الرافضي المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعلي قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً وليتألف قلوب بعضهم على بعض فلا معنى لمؤاخاة النبي لأحد منهم، ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري، وهذا رد النص بالقياس وإغفال من حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى ».

٤ — ويقول ابن كثير[4]:

« قلت وفي بعض ما ذكره (ابن إسحق) نظر، أما مؤاخاة النبي ﷺ وعلي أن من العلماء من ينكر ذلك ويمنع صحته ومستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم بعض وليتألف

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٥.

(٢) جـ ٢٥ ص ٩٣ فتاوى ابن تيمية طبعة ١٣٨٦ هـ.

(٣) فتح الباري ٢٧٣/٨ طبعة ١٠٧٨ هـ.

(٤) ١/٢٢٧ البداية والنهاية طبعة المعارف بيروت.

قلوب بعضهم على بعض فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا مهاجري لمهاجري آخر كما ذكره من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، اللهم إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة على غيره، وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاه زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار ».

الرسول يمضي في طريقه

ومضى رسول الله ﷺ في طريقه، من تبليغ رسالة الله والدعوة إلى الدين.

وقريش ماضية في طريقها، سادرة في خيلائها وغرورها وشركها.

ثم إنه اجتمع بعد غروب الشمس، عند ظهر الكعبة، عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث وأبو البختري ابن هشام، والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف. فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد، فكلموه وخاصموه، حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك، ليكلموك، فَأْتِهِمْ فجاءهم رسول الله، وهو يظن أن قد بدا لهم في الدين رأي جديد، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم وجلس إليهم، فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك..

لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك.

فإن كنت إنما كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا.

وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا[1] تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله عليه ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشا، منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى

---

(١) هو التابع من الجن.

يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك: سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولا، كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا. وما بعثت بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا.. فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي، أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك لو شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل. قالوا: يا محمد.. أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك؛ فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له « الرحمن »، وإنا — والله — لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ ، قام عنهم، وقام معه: عبد الله ابن أبي أمية المخزومي، وهو ابن عمته، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد.. عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورا، ليعرفوا بها منزلتك من الله، كما تقول، ويصدقوك، ويتبعوك، فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون

به فضلك عليهم، ومنزلتك إلى الله، فلم تفعل: ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل. فوالله لا أؤمن بك أبدا، حتى تتخذ إلى السماء سلما، ثم ترقى فيه، وانا أنظر إليك، حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله أن لو فعلت ذلك، ما ظننت أني أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله.

وانصرف رسول الله إلى أهله حزينا آسفا مما فاته، مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه. ولما قام عنهم رسول الله صلوات الله عليه قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون، من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا. وإني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته، فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.. قالوا:

والله ما نسلمك لشي أبدا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرا، كما وصف، ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا رسول الله كما كان يغدو، وكان رسول الله بمكة، وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام فقام رسول الله يصلي، وقد غدت قريش، فجلسوا في أنديتهم، ينتظرون ما أبو جهل فاعل. فلما سجد رسول الله، احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما، منتقعا لونه، مرعوبا، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر الذي معه من يده. وقامت إليه رجال قريش، يقولون: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه، لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني.

وروي أن رسول الله قال: ذلك جبريل عليه السلام، لو دنا لأخذه.

فلما قال لهم ذلك أبو جهل، قام النضر بن الحارث، فقال: يا معشر قريش، إنه ـــ والله ـــ قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة ـــ حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة، وسمعنا سجعهم وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بوسوسته، ولا تخليطه.. يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

وكان النضر من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، فكان إذا جلس رسول الله مجلسا، فذكر فيه بالله، وأنذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم، من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، وقال: أنا والله ـــ يا معشر قريش ـــ أحسن حديثا منه، فهلم إلي، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثا مني؟

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه، وبعثوا معه عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا، حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: بأنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم

بهن فهو نبيء مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤة، وسلوه عن الروح، ما هي، فإن أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة، حتى قدما مكة على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أخبرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم، فجاءوا رسول الله، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب، وعن رجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم رسول الله، ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غدا، ولم يقل إن شاء الله.. فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله، ﷺ، خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة. قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف. وروي أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه: لقد احتبست عني يا جبريل، حتى سؤت ظنا. فقال له جبريل ﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بأمرِ رَبِّكَ، له ما بَيْنَ أيدِينا ومَا خَلْفَنا، وما بَيْنَ ذلِك، وما كان رَبُّكَ نَسِياً**﴾[1].

(١) سورة مريم الآية ٦٤.

وفي سورة الكهف ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أصحابَ الكهفِ والرَّقيمِ كانُوا منَ آياتِنا عَجَباً؟ إذْ آوى الفِتْيَةُ إلى الكهفِ** ﴾[1] ﴿ **وَيَسْألونَك عن ذي القَرْنين، قُلْ: سأتْلُو عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً** ﴾[2] وقال تعالى في سورة الإسراء ﴿ **وَيَسْألونَك عَنِ الرُّوحِ، قُلْ: الروحُ مِنْ أَمْرِ رَبي، وما أوتِيتُمْ مِنَ العِلمِ إلَّا قليلاً** ﴾[3] ونزل عليه من سورتي الإسراء والفرقان ما نزل، ونزل في النضر بن الحارث ﴿ **إذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أساطِيرُ الأوَّلين** ﴾[4].

فلما جاءهم رسول الله بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدث، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيب، حين سألوه عما سألوا عنه.. حال الحسد منهم له بينهم وبين الإيمان برسالته وتصديقه ولجوا فيما هم عليه من الكفر، وقال قائل منهم ﴿ **لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القرآنِ، وَألْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ** ﴾[5] فإنكم إن ناظرتموه يوما غلبكم وجعلوا إذا جهر رسول الله بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه، ويأبون أن يستمعوا له خوفا وفرقا. روي أن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس ابن شريق الزهري، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل واحد منهم لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه. فباتوا

---

(١) سورة الكهف ٩ــ١٠

(٢) سورة الكهف الآية ٨٣.

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(٤) سورة القلم الآية ١٥.

(٥) سورة فصلت الآية ٢٦.

يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا، يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال له: أخبرني عن رأيك فيما سمعت من محمد، قال له أبو سفيان: والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا، والذي حلفت به كذلك ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فقال له: ما رأيك فيما سمعت من محمد قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا كنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدرك مثل هذه؟ فوالله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه.

تعذيب المشركين للمسلمين

١ ـــ لما جهر رسول الله ﷺ بالقرآن، كان أول من جهر به بعد رسول الله بمكة: عبد الله بن مسعود. اجتمع يوماً أصحاب رسول الله، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهم؟ فقال ابن مسعود: أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوا به سوءاً. قال: دعوني فإن الله سيمنعني. فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها[1]، حتى قام عند المقام، ثم قرأ: سورة الرحمن.

واستقبلها يقرؤها: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْءانَ﴾[2].

وتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد. فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ، حتى بلغ منها[3]. ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان

(١) أي مجالسها.

(٢) سورة الرحمن. الآيتان ١ و٢.

(٣) أي السورة.

أعداء الله أهون علي منهم الآن. ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً. قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

٢ ـــ ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ، من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم، ويعذبونهم، ويفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن لشدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يعصمه الله منهم.

كان بلال مولى لأبي بكر، أسلم وكان صادق الإسلام، طاهر القلب وكان أمية بن خلف الجمحي يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر الصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد، أحد، فمر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به فقال لأمية بن خلف، ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ فرد عليه أمية قائلاً: أنت الذي أفسدته، فأنقذه مما ترى. فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه، وأقوى على دينك، أعطيكه به، قال: قد قبلت، قال: هو لك: فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، وأخذ بلالا فاعتقه وأعتق معه على الإسلام قبل الهجرة ست رقاب:

ـــ عامر بن فهيرة شهد بدراً وأحداً وقيل شهد يوم بئر معونة.

ـــ أم عبيس، وزنيرة.

ـــ النهدية وبنتها.

ـــ جارية بني مؤمل، كانت مسلمة، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام، وهو يومئذ على الشرك فاشتراها أبو بكر منه فأعتقها.

٣ ــ وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر[١] وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله، فيقول: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام.

٤ ــ وكان أبو جهل يغري بضعفاء المسلمين، ومعه في ذلك رجال من قريش.

كان إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة أنبه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنضعن شرفك. وإن كان تاجراً قال له: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، وحتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم[٢].

---

(١) قتل في معركة يوم صفين، وكانت في صفر وبعض ربيع الأول عام ٣٧ هـ عن ٩٣ عاماً (٢٩١ ــ ١/٣٠٦ سير أعلام النبلاء الذهبي)، وكان حليف بني مخزوم.

(٢) في هذه الفترات التاريخية الحاسمة في جزيرة العرب كان الصراع بين الروم والفرس على حدود الجزيرة العربية شديداً.

التجأ كسرى أبرويز إلى الروم فاراً من بهرام الذي استوى على عرش والده هرمز الساساني، وتلقاه امبراطور الروم البيزنطي موريقس بالحفاوة، وساعد على عودة خسرو إلى العرش الفارسي عام ٥٩٠، وفي عام ٦٠٢ م. قامت ثورة على الامبراطور الرومي وتولى فاكس الحكم في بيزنطة فخاصمه كسرى وأعلن الحرب عليه عام ٦٠٣ م واحتلت جيوش كسرى بلاد الشام وبيت المقدس ومصر واستولت على المستعمرات الرومية في شواطئ افريقية كما استولت على آسيا الصغرى، وأقامت في مواجهة القسطنطينية. فثار هرقل حاكم أفريقية ضد أمبراطوره فاكس وقتله، وتسلم الملك مكانه عام ٦١٠ م وهو عام البعثة النبوية وبلغت الانتصارات الفارسية ذروتها وغلب الروم كلياً عام ٦١٦ م قبل الهجرة بست سنوات، وفقدوا مملكتهم الرومية على أيدي الفرس وفي السنة السادسة من البعثة كان المشركون في مكة يتظاهرون بشدة فرحهم لانتصار الفرس على الروم، وحاول هرقل عن طريق رسله الصلح .فرد عليهم الملك الفارسي: بأن هذا الأمر ليس هو مما يسعى فيه السفراء، وإنما لا بد من أن يخضع الامبراطور البيزنطي أمامه، ولا بد من أن يتخلى عن المسيحية إلى عبادة الشمس، فأخذ هرقل يعد العدة لخوض المعركة مع الفرس، وهزم الفرس هزيمة منكرة عام ٦٢٤ م في السنة الثانية للهجرة واقتحم الروم بلاد فارس بعد غزوة بدر بقليل.

الهجرة الأولى إلى الحبشة في العام الخامس من البعثة النبوية

١ ــ رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وهو لا يقدر على أن يمنعهم مما يصيبهم، فقال لهم:

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ».

فخرج المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام.

وكان أول المهاجرين إليها:

١ ــ عثمان بن عفان، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله.

٢ ــ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ابن عمرو من بني لؤي، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبي حذيفة.

٣ ــ الزبير بن العوام.

٤ ــ مصعب بن عمير من بني عبد الدار بن قصي.

٥ ــ عبد الرحمن بن عوف.

٦ ــ أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، ومعه امرأته هند (أم سلمة) المخزومية، ولدت له بالحبشة ابنته زينب.

٧ ــ عثمان بن مظعون الجمحي، وابنه السائب وأخواه: قدامة وعبد الله[1].

٨ ــ عامر بن ربيعة حليف آل الخطاب، ومعه امرأته ليلى الكعبية.

٩ ــ أبو سبرة بن أبي رهم من بني عامر بن لؤي، ويقال: إنه كان أول من قدم الحبشة، ومعه امرأته أم كلثوم بنت سهيل.

١٠ ــ سهيل بن بيضاء من بني الحارث بن فهر وبيضاء هي أمه.

فكان هؤلاء أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة، وكان عليهم عثمان بن مظعون.

١١ ــ ثم خرج جعفر بن أبي طالب، ومعه امرأته أسماء بنت عميس، ولدت له في الحبشة ابنه عبد الله بن جعفر.

وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم من خرج بأهله معه، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه.

١٢ ــ وممن خرج إليها: عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، ومعه امرأته فاطمة بنت صفوان الكنانية، وأخوه خالد بن سعيد، ومعه امرأته أمينة بنت خلف الخزاعية، وولدت له بأرض الحبشة: ابنه سعيد ابن خالد، وبنته أمة بنت خالد.

١٣ ــ عبد الله بن جحش، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان.

١٤ ــ قيس بن عبد الله من بني أسد بن خزيمة، ومعه امرأته بركة بنت يسار مولاة أبي سفيان.

---

(١) توفي عثمان في شعبان سنة ثلاث من الهجرة، أخوه قدامة بن مظعون، توفي عام ٣٦ هـ عن ٦٨ عاما، وأخوه الآخر عبد الله بن مظعون مات عام ٣٣ ــ ولعثمان بن مظعون ولد من الرضاعة هو السائب مات عام ١٢ هـ في يوم اليمامة (١: ١١٨ سير أعلام النبلاء).

١٥ ــ معيقيب بن أبي فاطمة.
١٦ ــ أبو موسى الأشعري.
١٧ ــ عتبة بن غزوان
١٨ ــ الأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد.
١٩ ــ يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب.
٢٠ ــ عمرو بن أمية بن الحارث بن أسد.
٢١ ــ طليب بن عمير بن وهب.
٢٢ ــ سويبط بن سعد .
٢٣ ــ جهم بن قيس ومعه امرأته أم حرملة الخزاعية، وابناه: عمرو، وخزيمة.
٢٤ ــ أبو الروم بن عمير.
٢٥ ــ فراس بن النضر بن الحارث.
٢٦ ــ عامر بن أبي وقاص.
٢٧ ــ أبو وقاص مالك بن أهيب.
٢٨ ــ المطلب بن أزهر، ومعه امرأته رملة بنت أبي عوف، ولدت له بأرض الحبشة ابنه عبد الله.
٢٩ ــ عبد الله بن مسعود، وأخوه عتبة.
٣٠ ــ المقداد بن عمر، وكان قد تبناه في الجاهلية الأسود بن عبد يغوث من بني زهرة، وحالفه.
٣١ ــ الحارث بن خالد التيمي، ومعه امرأته ريطة بنت الحارث التيمية، وولدت له بأرض الحبشة ابنه موسى، وثلاث بنات هن: زينب، وفاطمة، وعائشة.
٣٢ ــ عمرو بن عثمان التيمي.
٣٣ ــ شماس بن عثمان المخزومي.
٣٤ ــ هبار بن سفيان المخزومي.
٣٥ ــ هشام بن أبي حذيفة المخزومي.

٣٦ ــ عباس بن أبي ربيعة المخزومي.

٣٧ ــ معتب بن عوف الخزاعي.

٣٨ ــ حاطب بن الحارث الجمحي، ومعه: امرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه حطاب معه امرأته فكيهة بنت يسار.

٣٩ ــ سفيان بن معمر الجمحي، ومعه ابناه جابر وجنادة، ومعه امرأته حسنة وهي أمهما وأخوهما من أمهما شرحبيل بن حسنة.

٤٠ ــ عثمان بن ربيعة الجمحي.

٤١ ــ خنيس بن حذافة السهمي.

٤٢ ــ عبد الله بن الحارث بن قيس السهمي.

٤٣ ــ هشام بن العاص السهمي.

٤٤ ــ العاص بن وائل السهمي.

٤٥ ــ قيس بن حذافة السهمي.

٤٦ ــ أبو قيس بن الحارث السهمي.

٤٧ ــ عبد الله بن حذافة السهمي.

٤٨ ــ الحارث بن الحارث السهمي.

٤٩ ــ معمر بن الحارث السهمي.

٥٠ ــ بشر بن الحارث السهمي، وأخ له من أمه من بني تميم اسمه سعيد بن عمرو.

٥١ ــ سعيد بن الحارث السهمي.

٥٢ ــ السائب بن الحارث السهمي.

٥٣ ــ عمير بن رئاب السهمي.

٥٤ ــ محمية بن الجزاء حليف لهم من بني زبيد.

٥٥ ــ معمر بن عبد الله بن نضلة.

٥٦ ــ عروة بن عبد العزى.

٥٧ ــ عدي بن نضلة، وابنه النعمان.

٥٨ ــ عبد الله بن مخرمة.

٥٩ ــ عبد الله بن سهيل.
٦٠ ــ سليط بن عمرو، وأخوه السكران، معه امرأته سودة بنت زمعة.
٦١ ــ مالك بن زمعة، معه امرأته عمرة.
٦٢ ــ أبو حاطب بن عمرو.
٦٣ ــ سعد بن خولة حليف لبني عامر بن لؤي.
٦٤ ــ أبو عبيدة بن الجراح.
٦٥ ــ عمرو بن أبي سرح.
٦٦ ــ عياض بن زهير.
٦٧ ــ عمرو بن غنم.
٦٨ ــ سعد بن عبد قيس.
٦٩ ــ الحارث بن عبد قيس.

وعدد جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا معهم صغاراً أو ولدوا بها، هو ثلاثة وثمانون رجلا، إن كان عمار بن ياسر فيهم، وهو يشك فيه.

٢ ــ وفي الحبشة أمن المسلمون، وحمدوا جوار النجاشي، وعبدوا الله لا يخافون أحداً، وأحسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به، فقال في ذلك عبد الله بن الحارث بن قيس السهمي:

يا راكباً بلغن عني مغلغلة   من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد   ببطن مكة مقهور ومفتون
أنا وجدنا بلاد الله واسعة   تنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذلِّ الحياة وخز   ي في المماتِ وعيب غير مأمون

وقال عثمان بن مظعون يعاتب أمية بن خلف:

أحاربت أقواماً كراماً أعزة   وأهلكت أقواماً بهم كنت تفزع

ستعلـم إن تأتـيك يومـاً ملمــة   وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

٣ ــ فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد أمنوا واطمأنوا بالحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش إلى النجاشي، فيردهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها، وأمنوا فيها.

فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم، فقال أبو طالب حين رأى ذلك من رأيهم وما بعثوا به يثني على النجاشي ويحضه على حسن جوار المسلمين والدفع عنهم:

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر   وعمرو، وأعداء العدو الأقـارب
فهل نال أفعال النجاشي جعفرا   وأصحابه أو عاق ذلك شـاغب
تعلـم أبيت اللعـن أنك ماجـد   كريم، فلا يشقى لديك المجانب(١)
تعلــم بــأن الله زادك بسطــة   وأسباب خير كلها بك لازب(٢)

وقدم رسولا قريش على النجاشي، فلم يتركا من بطارقته أحداً إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم:

إنه قد أوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتـم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم، ليردهم إليهم، وقومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم.

(١) الخطاب في البيت للنجاشي. المجانب: اللائذ بالجوار.
(٢) لاصق.

وقدما هداياهما إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد أوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

فقالت بطارقة النجاشي حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم. فغضب النجاشي، ثم قال: لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله، فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول ما علمنا وما أمرنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته[1]، وهم[2] ينشرون مصاحفهم حوله، سألهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ فأجابه جعفر بن أبي طالب:

أيها الملك... كنا قوماً أهل جاهية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا

(١) جمع أسقف وهو العالم في النصرانية.

(٢) أي أساقفته.

الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه.

فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.

ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة.
وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.. وعدد عليه[1] أمور الإسلام.
فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله.
فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً.
وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا.

فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك[2]، وأخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي ـــ كما تروي أم سلمة زوج النبي ﷺ: فاقرأه عليَّ. فقرأ عليه صدراً من سورة مريم، فبكى ـــ والله ـــ النجاشي

---

(١) أي على النجاشي.
(٢) كانت قريش تتردد على الحبشة للتجارة فآثرها المسلمون بالهجرة لذلك ولبعدها عن أيدي المشركين.

حتى ابتلت لحيته، وبكت أساقفته حتى بلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

فقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، وقال للرسولين: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

فقال عمرو بن العاص لصاحبه: والله لآتينه غداً بما أستأصل به جماعتهم.

فقال له صاحبه عبد الله بن ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

ثم غدا على النجاشي من الغد، فقال: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما، فأرسل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه.

فأرسل إليهم ليسألهم عنه، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه: قالوا: نقول ـــ والله ـــ ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، ﷺ، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت أمامي اذهبوا فأنتم آمنون، من سبكم غرم، ما أحب أن لي جبلا من ذهب وأسلمكم إليهما. ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها.

فخرجا من عنده بأسوأ رد، تقول أم سلمة: وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار.

٤ ــ وخرج ثائر على النجاشي، ينازعه في ملكه، فحزن المسلمون حزناً شديداً ودعوا للنجاشي بالغلبة على عدوة، والتمكين له في بلاده، وخرج الزبير بن العوام، ليشهد المعارك التي قامت بين النجاشي وهذا الثائر ليأتي المسملين بخبرها، وكان الزبير من أحدث المسلمين سناً، وعاد الزبير يقول: ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، ففرح المسلمون فرحاً شديداً، ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوه ومكن له في بلاده، واستوثق عليه أمر الحبشة[1]، فكان المسلمون عنده ــ كما تقول أم سلمة ــ في خير منزل، حتى قدموا على رسول الله وهو بمكة.

٥ ــ وشاع بين شعب النجاشي أن الملك يقول في عيسى بن مريم إنه عبد الله فثاروا عليه، فخرج لحربهم، ولكنه رأى أن يهدِّئ من ثورتهم فاستجابوا له، وعاد إلى ملكه، وكان في أول هذه الثورة قد هيأ للمسلمين سفناً، وقال لهم: اركبوا فيها، وكونوا كما أنتم: فإن هزمت فامضوا في طريقكم، حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فعودوا، فلما انتصر النجاشي عاد المسلمين، فأقاموا آمنين.

---

(١) يقص ابن هشام أن الحبشة ثارت على والد النجاشي وملكوا عم النجاشي مكان أبيه، فمات عمه، ولم يجد الشعب في أبناء عمه دراية وحنكة وقدرة على القيام بأعباء الملك، وكان عمه قبل وفاته قد طرد ابن أخيه، فبيع بستمائة درهم، وخرج به من اشتراه من البلاد، فلما مات عمه رأى الشعب أنه لا يصلح لحكمهم إلا هو، فساروا يطلبونه في كل مكان، حتى عثروا عليه، فأخذوه من مالكه، وألبسوه التاج، وردوا على من كان قد اشتراه منهم قبلا ماله.

إسلام عمر بن الخطاب
في السنة السادسة من الهجرة

١ ـ قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش من الحبشة، بعد أن فشلوا في سفارتهم، ولم يدركوا ما طلبوا من المسلمين في الحبشة، حيث ردهم النجاشي بما يكرهون... قدما على قريش، فوجدا المسلمين في مكة قد عزوا وكثروا وصارت لهم منعة بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة[1]، وكان عمر رجلا ذا شكيمة وشوكة لا يرام ما وراء ظهره، وكان لحمزة ما له من السؤدد والشرف والمكانة في قريش فلما أسلما عز بهما أصحاب رسول الله وقويت شوكتهم.

يقول عبد الله بن مسعود: ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله إلى الحبشة.

(١) أسلم حمزة سنة ست من البعثة (١: ٢٢٧ العقد الثمين للفاسي) ــ وأسلم عمر بعد حمزة بثلاثة أيام (١: ٢٢٩ المرجع نفسه).

ويقول ابن مسعود أيضا: إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة. ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه.

وحدث عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبي حثمة، قالت: والله إنا لنستعد للرحيل والهجرة إلى الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب، حتى وقف علي، وهو على شركه، وكنا نلقي منه البلاء، أذى لنا، وشدة علينا، فقال: إنه الانطلاق ــ الهجرة ــ يا أم عبد الله؟ فقلت له: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجا فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها وانصرف، وقد أحزنه ــ فيما أرى ــ خروجنا، فجاء عامر، فقلت له: لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا!! قال: أطمعت في إسلامه قلت: نعم، قال: دون ذلك نجوم السماء.

٢ ــ وكان سبب إسلام عمر أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت متزوجة من سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقد أسلمت، وأسلم زوجها؛ وكان يخفيان إسلامهما عن عمر. وكان نعيم بن عبد الله النحام من أقارب عمر، فهو من بني عدي بن كعب، وكان قد أسلم ويستخفي بإسلامه فرقا من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن.

فخرج عمر يوما متوشحا بسيفه، يريد رسول الله ورهطا من أصحابه، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم نحو أربعين رجلا وامرأة ومع رسول الله عمه حمزة وأبو بكر وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين، ممن أقام مع رسول الله بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى الحبشة.

فلقيه نعيم، فقال له: أين تريد يا عمر؟

قال: أريد محمدا هذا الصابئ ، الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم، وكان قد أراد إلهاء عمر عن محمد وأصحابه.

قال عمر: وأي أهل بيتي؟

قال: صهرك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة، فقد ـــ والله ـــ أسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما.

فرجع عمر عامداً إلى أخته وزوجها، وعندهما خباب بن الأرت، معه صحيفة فيها طه، يقرئهما إياها، فلما سمعوا عمر اختفى خباب في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخدها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[1] التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه، وبطش بصهره سعيد ابن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه، فضربها فشجها.

فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك. وسكن عمر لمشهد الدم يتدفق على وجه أخته، وقال لها: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد. وكان عمر يكتب ويقرأ.

فقالت له أخته: إنا نخشاك عليها قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها ـــ إذا قرأها ـــ إليها فحينئذ طمعت في إسلامه، وقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر. فقام عمر،

---

(١) هي الصوت الذي لا يسمع.

فاغتسل فأعطته الصحيفة، وفيها طه فقرأها، فلما قرأ منها صدرا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه، وذهب إلى رسول الله وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحا السيف، فرجع إلى رسول الله وهو فزع، فقال: يا رسول الله هذا عمر متوشحا سيفه.

فقال حمزة: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله، فأخذ بجميع ردائه، ثم جذبه جذبة شديدة، وقال له: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة.

فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله.

فكبر رسول الله تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله أن عمر قد أسلم.

وعز المسلمون بإسلام عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله.

ويروى أن عمر ذهب يريد الطواف بالكعبة، فإذا برسول الله قائم

يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليماني.

فقال عمر لنفسه حين رأى رسول الله: والله لو أني استمعت من محمد الليلة، حتى أسمع ما يقول. ثم قال: لئن دنوت منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها فجعلت أمشي رويدا ورسول الله قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبله، ما بينه وبين رسول الله إلا ثياب الكعبة.

قال عمر: فلما سمعت القرآن رق له قلبي، فبكيت، ودخلني الإسلام فلم أزل في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلاته، ثم انصرف.

وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حصين، وكانت طريقه، حتى يجزع — يقطع — المسعى، ثم يسلك بين دار العباس ودار ابن أزهر الزهري، ثم على دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته، وكان مسكنه، ﷺ في الدار الرقطاء التي كانت بيدي معاوية.

قال عمر: فتبعته حتى إذا دخل بين دار العباس ودار ابن أزهر أدركته، فلما سمع رسول الله حسِّي عرفني، فظن رسول الله أني إنما اتبعته لأوذيه فنهمني — زجرني — ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة.

قلت: جئت، لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله.

فحمد الله رسول الله، ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله، ودخل رسول الله بيته.

٣ — وأراد عمر أن يشيع نبأ إسلامه في قريش، فقال: أي قريش أنقل للحديث ؟ قيل له: جميل بن معمر الجمحي.

فغدا عمر عليه، قال عبد الله بن عمر: وغدوت أتبع أثر أبي، وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت وجاء أبي إلى ابن معمر، فقال له:

أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد، فقام جميل يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعت أبي، حتى إذا قام جميل على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش ـــ وهم في أنديتهم ـــ مجالسهم ـــ حول باب الكعبة ـــ ألا إن عمر قد صبأ. فرد عمر من خلفه: كذب ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

وقعد عمر، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأقبل شيخ من قريش حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال رجل اختار لنفسه أمرا. فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل، فانصرفوا، وكان ذلك الرجل العاص بن وائل السهمي.

٤ ـــ قال عمر: لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد عداوة لرسول الله حتى آتيه، فأخبره أني قد أسلمت، فقلت: أبو جهل ـــ وكان خال عمر ـــ فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه فخرج إلي أبو جهل فقال: مرحباً وأهلا بابن أختي، ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به.

مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب
في العام السابع من البعثة
وما تلاها من أحداث، وما لقيه الرسول من إيذاء

١ ــ رأت قريش أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا ــ الحبشة ــ أصابوا به أمنا وقراراً، وأن النجاشي منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله وأصحابه، وجعل الإسلام ينتشر في القبائل.

فاجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا معاهدة يتعاقدون فيها على بني هاشم، وبني المطلب: ألا يتزوجوا منهم، ولا يزوجوا أحداً من بناتهم فيهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يشتروا منهم.

وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك، وكتبوه في صحيفة، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم[١].

---

(١) يقول ابن القيم في زاد المعاد (١: ٤٧): إن الحصار كان في شعب أبي طالب ثلاث سنين وخرج رسول الله من الحصار وله ٤٩ عاماً وقيل ٤٨ عاماً، وبعد ذلك مات عمه عن سبع وثمانين سنة، ثم خديجة. وفي الشعب ولد ابن عباس.

وكان كاتب الصحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي(١). فدعا عليه رسول الله، فشل بعض أصابعه.

٢ ـــ وإثر ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه(٢)، فاجتمعوا إليه، ما عدا أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، فخرج إلى قريش فظاهر وتحالف معهم.. وهذا الشعب بأواسط مكة وكان الحصار في مطلع السنة السابعة للبعثة.

ولقي أبو لهب هند بنت عتبة بن ربيعة، وقد فارق قومه، وأعان عليهم قريشاً، فقال لها؛ يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى. وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما؟

قالت: نعم، فجزاك الله خيراً.

وكان يقول: يعدني محمد أشياء لا أراها، يزعم أنها كانت كائنة بعد الموت، فماذا وضع في يدي بعد ذلك؟ وينفخ في يده، ثم يقول: تباً لكما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ **تبت يدا أبي لهب، وتب** ﴾(٣).

٣ ـــ وفي ذلك يقول أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا لؤيا، وخصا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدا نبياً كموسى، خط في أول الكتب

---

(١) ويقال: هو النضر بن الحارث وقال السهيلي: للنساب من قريش في كاتب الصحيفة قولان: أنه بغيض بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، أو أنه منصور بن عبد شرحبيل بن هاشم من بني عبد الدار.

(٢) الشعب: كل فرجة بين جبلين.

(٣) التباب: الخسار والهلاك. والآية هي الأولى من سورة المسد.

وأن عليـه فـي العبـاد محبـة ... ولا خير ممن خصه الله بالحب
وأن الذي ألصقتم من كتابكـم ... لكم كائن نحسا كراغية السقب[1]
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ... ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودة والقـرب
فلسنا ورب البيت ــ نسلم أحمدا ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب

وأقام بنو هاشم وبنو المطلب على ذلك سنتين أو ثلاثاً، لا يصل إليهم شيء إلا سراً، يستخفي به من أراد صلتهم من قريش.

لقي أبو جهل حكيم بن حزام بن خويلد ــ وهو ابن أخي خديجة زوج الرسول ــ ومعه غلام يحمل قمحاً ويريد به عمته خديجة، وهي في الشعب مع رسول الله. فتعلق به، وقال له: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام بن الحارث، فقال: ما لك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم! فقال له أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل.. فأبى أبو جهل، ونال أحدهما من الآخر، فضربه أبو البختري فشجه ووطئه وطئاً شديداً، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله وأصحابه، فيشمتوا بهم. ورسول الله على ذلك يدعو قومه ليلا ونهاراً، سراً وجهاراً، داعياً إلى دين الله، لا يتقي في ذلك أحدا من الناس.

٤ ــ ومنع الله رسوله من قريش، وحماه من شرهم، وقام عمه وقومه من بني هاشم وبني المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به.

---

(١) الراغية من الرغاء وهو صوت الإبل. السقب: ولد الناقة ــ وأراد به ولد ناقة صالح.

وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته منهم.

ا ـــ ومنهم عمه أبو لهب بن عبد المطلب، وامرأته أم جميل بنت حرب، حمالة الحطب، وسماها الله تعالى حمالة الحطب، لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله حيث يمر.

وحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن الكريم، أتت رسول الله وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر، وفي يدها حجر، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله، فلا ترى ألا أبا بكر فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مذمما عصينا

وأمره أبينا

ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ قال: ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني.

وكانت قريش قد سمت رسول الله مذمما، تسبه بعد ما عاب أحلامها وذم أصنامها، وكان رسول الله يقول:

« ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش؟ يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد ».

ب ـــ ومنهم أمية بن خلف الجمحي، وكان إذا رأى رسول الله همزه ولمزه فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾(١).

---

(١) إلى آخر الايات الكريمة من سورة الهمزة (١ ـــ ٩) ـــ وهمزة لمزة: أي كثير الهمز ـــ وهو الشم ـــ واللمز وهو الغمز بالعيب، فهو الذي يعيب الناس سراً ويؤذيهم.

ج ــ العاص بن وائل السهمي، قال لخباب بن الأرت[1]، وقد جاء يتقاضاه دينا له عليه:

أليس يزعم محمد صاحبكم هذا، الذي أنت على دينه، أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم.

فقال له خباب: بلى.

قال: فانظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار، فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وأصحابك ــ يا خباب ــ آثر عند الله مني، ولا أعظم حظا في ذلك.

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بآياتِنا وقَال لأُوتِينَّ مالاً وَوَلداً * أَطَّلَعَ الغَيْبَ؟** ﴾[2].

د ــ ولقي أبو جهل بن هشام رسول الله فقال له: والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا، أو لتسبن إلهك الذي تعبد، فأنزل الله تعالى عليه فيه: ﴿ **وَلاَ تَسُبُّوا الذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾[3].

فكف رسول الله عن سب آلهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله.

هـ ــ ومنهم النضر بن الحارث، كان إذا جلس رسول الله مجلساً، فدعا فيه إلى الله، وتلا فيه القرآن، وحذر قريشاً ما أصاب الأمم الخالية،

---

(١) كان قينا ــ حداداً ــ يعمل السيوف بمكة، وكان قد باع من العاص سيوفا عملها له حتى إذا كان له عليه مال، جاءه يتقاضاه.

(٢) سورة مريم آية ٧٧ ــ ٧٨.

(٣) سورة الانعام آية ١٠٨.

خلفه في مجلسه إذا قام. فحدثهم عن رستم واسفنديار[1] وملوك الفرس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين أكتتبها، كما أكتتبها فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ **وَقَالُوا: أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السرَّ فِي السمَوَاتِ وَالأَرْضِ. إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً** ﴾[2].

وكان النضر يقول: إنما يعين حمدا على ما يأتي به في كتابه غلام الأسود بن المطلب وعباس غلام شيبة بن ربيعة أو عتبة بن ربيعة وغيرهما، فأنزل الله عليه: ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر** ﴾[3].

و ــ وجلس رسول الله يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد[4]فجاء النضر بن الحارث، حتى جلس معهم في المجلس،

---

(١) راجع أخبار أردشير بهمن بن اسفنديار بن بستاسب (١: ٤٠٤ طبري ــ طبعة التجارية) وفي عهده كان تبع نبان أبو كرب أسعد.

ومن ملوك الفرس: سابور الأول (٢٤١ ــ ٢٧٢ م)، وفي عهده ظهر ماني ــ وسابور الثاني (٣٠٩ ــ ٢٧٩ م).

ومن ملوكهم: كسرى الثاني (أبرويز) الساساني الذي تولى الملك عام ٥٩٠ م وتوفي سنة ٦٢٨ م.

(٢) سورة الفرقان آية ٥ــ٦

(٣) ٦٣٩ كتاب الأشراف للبلاذري طبع دار المعارف. والآية من سورة النحل رقم ١٠٣.

(٤) كان الوليد بن المغيرة قد عملت له قريش تاجا ليتوجوه به، وكانوا يسمونه « ريحانة قريش » فجاء الإسلام فانتقض أمره وهو أول من خلع نعليه لدخول الكعبة (٣٨ الأوائل لأبي هلال)، وقيل: هو أول من حرم الخمر في الجاهلية (المرجع نفسه ــ ص ٣٨). وأول من قطع في السرقة كذلك (ص ٤٢ ــ المرجع) وكان أول من بوب بمكة بابا حاطب بن بلتعة، وأول من سقف بها بيتا بديل بن ورقاء الخزاعي (ص ٤٥ المرجع).

وهو والد خالد بن الوليد، ومات بعد الهجرة بعام، وكان يقول: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك ابن مسعود الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين.

وفي المجلس رجال من قريش فتكلم رسول الله، فعرض له النضر، فكلمه رسول الله حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم:

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾(١) ثم قام رسول الله، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر لابن عبد المطلب آنفا وما قعد. وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال ابن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود عزيرا، والنصارى عيسى، فعجب الوليد ومن معه في المجلس من قوله، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله. فقال رسول الله:

كل من احبَّ ان يعبد من دون الله فهو مع مَنْ عبده.

وأنزل الله تعالى:

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُم إني إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ، فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالمينَ ﴾(٢)

ونزل أيضا:

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ منهُ يَصِدُّونَ ﴾(٣).

ز ــ وكان الأخنس بن شريق الثقفي يصيب من رسول الله ويرد عليه، وكان من أشراف القوم، وممن يستمع منه، فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ﴾(٤).

---

(١) سورة الانبياء آية ٩٨.

(٢) سورة الانبياء آية ٢٩

(٣) سورة الزخرف آية ٥٧.

(٤) سورة القلم آية ١٠

ح ــ كان الوليد بن المغيرة يقول: « أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمر الثقفي سيد ثقيف، فنحن عظيما القريتين، فأنزل الله تعالى فيه ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القريَتَيْنِ عظِيمٍ ﴾(١).

ط ــ ومنهم أبي بن خلف الجمحي، وعقبة بن أبي معيط، وكانا صديقين، فكان عقبة قد جلس إلى رسول وسمع منه. فبلغ ذلك أبيا وأتى عقبة، فقال له ألم يبلغني أنك جالست محمداً وسمعت منه؟ وجهي من وجهك حرام أن أكلمك، إن أنت جلست إليه وسمعت منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه، ففعل ذلك عدو الله عقبة. فأنزل الله تعالى فيهما:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مَعَ الرسُولِ سَبِيلاً ﴾(٢)

وذهب أبي إلى رسول الله، وفي يده عظم بال، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا؟ ثم فته بيده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله، فقال له رسول الله:

« نعم، أنا أقول ذلك يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ثم يدخلك الله النار »

فأنزل الله تعالى فيه:
﴿ وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ: مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ: يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(٣).

---

(١) سورة الزخرف آية ٣١
(٢) سورة الفرقان آية ٢٧
(٣) سورة يٓس آية ٧٨ ــ ٧٩

٤ ــ واعترض الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد ابن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي، رسول الله وهو يطوف بالكعبة، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد هلم، فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿ قُلْ: يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * ﴾[1] السورة كلها.

ي ــ ولما ذكر الله شجرة الزقوم تخويفاً لهم، قاله أبو جهل: « يا معشر قريش » هل تدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد؟

قالوا: لا

قال: عجوة يثرب بالزبد.

فأنزل الله تعالى:

﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزقُومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ ﴾[2].

ك ــ ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله، والرسول يكلمه، وقد طمع في إسلامه، فبينا هو في ذلك، مر به ابن أم مكتوم[3] الأعمى، فكلم رسول الله، وجعل يستقرئه القرآن، فشق ذلك منه على رسول الله، حتى أضجره، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد، وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً، وتركه،

---

(١) سورة الكافرون آية ١ ــ ٢ ــ

(٢) سورة الدخان آية ٤٣ ــ ٤٤

(٣) هو أحد بني عامر بن لؤي، واسمه عبد الله.

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾[1].

٥ ــ وفي هذه الأثناء بلغ المسلمين في الحبشة إسلام أهل مكة، فتركوا الحبشة وعادوا إلى وطنهم لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دنوا من مكة، وعرفوا الأمر على وجهه، وأن ما بلغهم من إسلام أهل مكة كان باطلا عاد الكثير منهم إلى الحبشة وهذه هي الهجرة الثانية، ولم يدخل أحد منهم مكة إلا مستخفياً أو بجوار، فكان ممن قدم على الرسول في مكة منهم:

١ ــ عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله.
٢ ــ أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وامرأته سهلة بنت سهيل.
٣ ــ عبد الله بن جحش.
٤ ــ عتبة بن غزوان.
٥ ــ الزبير بن العوام.
٦ ــ مصعب بن عمير بن هاشم.
٧ ــ طليب بن عمير بن وهب.
٨ ــ عبد الرحمن بن عوف.
٩ ــ المقداد بن عمرو.
١٠ ــ عبد الله بن مسعود.
١١ ــ أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وامرأته أم سلمة.
١٢ ــ شماس بن عثمان.
١٣ ــ سلمة بن هشام، حبسه عمه بمكة فلم يهاجر إلا بعد الخندق.
١٤ ــ عياش ابن أبي ربيعة بن المغيرة، لم يهاجر إلا بعد الخندق.
١٥ ــ عمار بن ياسر، وفي هجرته إلى الحبشة شك.
١٦ ــ معتب بن عوف.

---

(١) سورة عبس آية ١ ــ ٢

١٧ ــ عثمان بن مظعون، وابنه السائب، وأخواه: قدامة وعبد الله.
١٨ ــ خنيس بن حذافة.
١٩ ــ هشام بن العاص، هاجر بعد الخندق.
٢٠ ــ عامر بن ربيعة، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة بن غانم.
٢١ ــ عبد الله بن مخرمة.
٢٢ ــ عبد الله بن سهيل.
٢٣ ــ أبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى وامرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو.

٢٤ ــ السكران بن عمرو بن عبد شمس، وامرأته سودة بنت زمعة ابن قيس، ومات بمكة قبل هجرة رسول الله، فتزوج رسول الله سودة.

٢٥ ــ سعد بن خولة.
٢٦ ــ أبو عبيدة بن الجراح.
٢٧ ــ عمرو بن الحارث.
٢٨ ــ سهيل بن بيضاء.

وجميع من قدم على رسول الله مكة من أصحابه ثلاثة وثلاثون.
الذين دخلوا منهم مكة بجوار:
١ ــ عثمان بن مظعون(١) دخل بجوار الوليد بن المغيرة.
٢ ــ أبو سلمة دخل بجوار خاله أبي طالب(٢).

فأما عثمان بن مظعون فأقام بمكة بعد عودته، وشاهد ما فيه أصحاب رسول الله من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان الوليد: فقال: والله

(١) توفي بعد بدر في شعبان من السنة الثالثة، وكان قد حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، وهو أول من دفن ببقيع الغرقد (١/١١٦ سير أعلام النبلاء الذهبي).
(٢) أم أبي سلمة هي برة بنت عبد المطلب.

إن غدوي ورواحي آمنا بجوار مشرك وأهل ديني وأصحابي يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي. ومشى إلى الوليد فقال له: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك: فقال له: لم يا ابن أخي؟ لعلك آذاك أحد من قومي؟ قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره، قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علي جواري علانية كما أجرتك علانية. فانطلقا، حتى أتيا المسجد، فقال الوليد هذا عثمان قد جاء يرد علي جواري، قال عثمان: صدق، قد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكني قد أحببت ألا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره ثم انصرف عثمان، فمر عثمان بلبيد بن ربيعة في مجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان فبدأ لبيد فأنشد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت. ثم قال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، فقال لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذي جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم. فقال رجل من المجلس: هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا يجدن في نفسك من قوله.

فرد عليه عثمان، وتفاقم الأمر، فقام ذلك الرجل فلطم عيني عثمان، والوليد في المجلس يرى ويسمع، فقال أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة، فقال عثمان: بل ـــ والله ـــ إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني والله لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس، فقال له الوليد: عد يا ابن أخي ـــ إن شئت ـــ إلى جوارك، فعد.. فقال عثمان: لا.

وأما أبو سلمة فقد دخل مكة بجوار أبي طالب، ومشى رجال من بني مخزوم إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب، ما هذا؟ منعت منا ابن أخيك محمداً، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال: إنه استجار بي، وهو ابن أختي، وإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي، فقام أبو لهب فقال: يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد، فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة.

وطمع أبو طالب في أبي لهب حين سمعه يقول ما يقول، ولكن لم يرد الله له الهداية.

ومن عدا هؤلاء عادوا إلى الحبشة ثانية، وهذه هي الهجرة الثانية إلى بلاد النجاشي.

٦ ــ وضاقت على أبي بكر الصديق مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله وأصحابه ما رأى، فاستأذن رسول الله في الهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجراً، حتى إذا سار خارجا من مكة يوما أو يومين، لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش[1]، فقال لأبي بكر:

إلى أين يا أبا بكر؟

فرد عليه أبو بكر: أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي.

قال: ولم، فالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب، وتفعل المعروف، وتكسب المعدوم، ارجع وأنت في جواري.

---

(١) هم أحياء من القارة، انضموا إلى بني ليث، والتحبش: التجمع وقيل حالفوا قريشا تحت جبل بأسفل مكة يسمى حبشيا، فسموا بذلك. وابن الدغنة: اسمه ربيعة بن رفيع.

فرجع معه أبو بكر، حتى إذا دخل مكة، قال ابن الدغنة: يا معشر قريش، إني قد أجرت ابن أبي قحافة، فلا يعرضن له أحد إلا بخير، فكفوا عنه، وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان إذا قرأ القرآن استبكى، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته.

فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا له إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي، وهيئة ونحو، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا أن يفتنهم، فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء.

فمشى إلى أبي بكر، فقال له: يا أبا بكر، إني لم أجرك لتؤذي قومك إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت به، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت، قال أبو بكر: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله. قال: فاردد عليّ جواري، قال: قد رددته عليك. فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رد علي جواري، فشأنكم بصاحبكم.

ومر بأبي بكر سفيه من سفهاء قريش، وهو قاصد إلى الكعبة، فحثا على رأسه ترابا، فمر الوليد بن المغيرة، فقال أبو بكر: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ قال: أنت فعلت ذلك بنفسك. فأخذ أبو بكر يقول أي رب، أي رب ما أحلمك. أي رب ما أحلمك.

٧ ــ ومضى نحو ثلاث سنوات على الصحيفة وبنو هاشم وبنو المطلب حيث هم.

وآذى ذلك نفرا من قريش، من مثل: هشام بن عمرو الذي كان ابن أخي نضلة بن هشام بن عبد مناف لأمه وكان هشام لبني هاشم واصلا، وكان ذا شرف في قومه، فكان في الحصار يأتي بالبعير ليلا،

قد أوقره طعاماً، وبنو هاشم وبنو عبد المطلب في الشعب، فيضربه فيدخل عليهم الشعب.

ومشى هشام إلى زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل، وتلبس الثياب وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله أن لو كان معي رجل آخر لقمت في نقض الصحيفة حتى أنقضها، قال: قد وجدت رجلا، قال: من هو؟ قال: أنا، قال زهير: أبغنا رجلا ثالثا.

فذهب هشام إلى المطعم بن عدي فقال له: يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه قال ويحك، فماذا أصنع؟ انما أنا رجل واحد. قال. قد وجدت ثانياً، قال. من هو؟ قال: أنا، قال. أبغنا ثالثا، قال: قد فعلت. قال. من هو؟ قال زهير بن أبي أمية، قال: أبغنا رابعا.

فذهب هشام إلى أبي البختري بن هشام، فقال له ما قال، قال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال نعم قال: ومن هو قال: زهير والمطعم وأنا معك قال أبغنا خامساً.

فذهب هشام إلى زمعة بن الأسد. فكلمه، وذكر له قرابة بني هاشم وبني المطلب وحقهم قال: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال نعم وسمى له القوم فتواعدوا بأعلى مكة ليلا فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس

الثياب، وبنو هاشم هلكي لا يباعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فرد عليه أبو جهل: كذبت، والله لا تشق، قال زمعة: أنت والله أكذب ما رضينا بها حيث كتبت، وقال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب والله فيها ولا نقر به، وقال هشام نحوا من ذلك. قال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم ».

وقبل ذلك قال رسول الله لعمه أبي طالب: يا عم، إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش، فلم ندع فيها اسما هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة|والبهتان، قال: ربك أخبرك بهذا؟ قال: نعم، فخرج أبو طالب إلى قريش، فقال: يا معشر قريش إن محمدا أخبرني بكذا وكذا فان كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا، وإن كان كاذبا دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله فزادهم ذلك شراً فعند ذلك صنع هؤلاء الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا[1]. فقال أبو طالب في نقض الصحيفة:

جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا — على ملأ يهدي لحزم ويرشد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا — على مهل إذ سائر الناس رقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيا — وسر أبو بكر بها ومحمد

(١) كان فك الحصار بعد أن استمر ثلاث سنوات وماتت خديجة في اليوم الثالث من فك الحصار في رواية من الروايات.

ما بعد نقض الصحيفة

١ ــ العام هو الخمسون من مولد محمد ﷺ، ولقد ظل رسول الله يبذل لقومه النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة، وأخذت قريش تحذر منه الناس ومن قدم عليهم من العرب.

قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة، وكان رجلا، شريفا، لبيبا، شاعراً، له منزلته في قومه. فمشى إليه رجال من قريش، فقالوا له: إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل، محمد، قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمعن منه شيئا.

فأجمع الطفيل أن لا يسمع من رسول الله شيئا، ولا يكلمه، حتى حشا في أذنيه ــ حين غدا إلى المسجد ــ قطنا، حتى لا يعلم بشيء مما يقول رسول الله، ولا يسمع منه شيئا.

ودخل الطفيل المسجد، فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة، فقام قريبا من رسول الله، قال الطفيل: فسمعت كلاما حسنا، فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ

الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي به حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته.

قال الطفيل: فمكثت حتى انصرف رسول الله إلى بيته، فاتبعته، حتى إذا دخل دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي ما قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك، حتى سددت أذني بقطن لئلا أسمع قولك! ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولا حسناً، فاعرض عليّ أمرك، فعرض عليه رسول الله الإسلام، وتلا عليه القرآن.

قال الطفيل: فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن ولا أجمل منه، ولا أمرا أعدل منه، والله إن هـذا لمعجز، فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله إنني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فرجعت حتى جئتهم، فأصبحت فيهم، فلما نزلت أنا في أبي، وكان شيخاً كبيراً، فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني، قال: لم يا بني؟ قلت: أسلمت وتابعت دين محمد، قال: أي بني، فديني دينك، فعرضت عليه الإسلام فأسلم، ثم أتتني زوجتي، فعرضت عليها الإسلام فأسلمت، ثم دعوت دوسا إلى الإسلام، فأبطأوا علي، ثم جئت إلى رسول الله بمكة، فقلت: يا نبي الله، أدع الله على دوس، فقال: اللهم أهد دوسا، أرجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم.

فلم أزل أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله بمن أسلم معي من قومي ورسول الله بخير، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين[1].

(١) وقتل الطفيل عام ١٢ هـ في يوم اليمامة (١: ٢٤٨ ــ ٢٥٠ سير أعلام النبلاء).

٢ ــ وفي هذا العام العاشر من البعثة المحمدية خرج الأعشى الشاعر إلى رسول الله يريد الإسلام، ومدح الرسول بقصيدته التي يقول فيها:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفي حتى تلاقي محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... تراخي وتلقي من فواضله ندى
نبي يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغيب ونائل ... وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

فلما وصل الأعشى مكة أو قريبا منها اعترضه بعض المشركين من قريش، وقال له: يا أبا بصير، إن محمدا يحرم الخمر، قال الأعشى أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات، وانصرف عائدا إلى قومه، فمات في عامه هذا، ولم يعد إلى رسول الله.

٣ ــ وكان أبو جهل مع عداوته لرسول الله يذله الله له إذا رآه.

روي أن أبا جهل مطل عربيا حقا له، فأتى العربي حتى وقف على ناد من قريش، ورسول الله في ناحية المسجد جالس، فقال العربي: يا معشر قريش، إني رجل غريب ابن سبيل، وقد غلبني أبو الحكم على حقي، فقالوا له: أترى ذلك الرجل الجالس، وأشاروا لرسول الله، يهزأون به لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة، اذهب إليه، فإنه يأخذ لك بحقك، فأقبل العربي حتى وقف على رسول الله، فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم قد غلبني على حق لي قبله، وأنا غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم، فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقي منه، يرحمك الله.

فقام معه رسول الله، وخرج حتى جاءه، فضرب عليه بابه، فقال: من هذا! قال: محمد، فاخرج إلي.. فخرج منتقع اللون، فقال له ﷺ: أعط هذا الرجل حقه، قال: نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل،

ثم خرج إليه بحقه فدفعه إليه، فأقبل العربي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرا، فقد ــ والله ــ أخذ لي حقي. ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا: ويلك ما لك، والله ما رأينا مثل ما صنعت قط قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته فملئت منه رعبا، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل، والله لو أبيت لأكلني.

٤ ــ وكان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف أشد قريش، فخلا يوما برسول الله في بعض شعاب مكة، فقال له رسول الله: يا ركانة، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه! قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لاتبعتك، فقال رسول الله، أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق؟ قال: نعم، قال فقم حتى أصارعك، فصارعه رسول الله فصرعه، حتى لا يملك ركانة من نفسه شيئا، ثم قال: عد يا محمد، فعاد فصرعه، فقال: يا محمد، والله إن هذا للعجب، أتصرعني؟ قال رسول الله: فاعجب من ذلك إن شئت، وسترى ما هو أعجب إن اتقيت الله واتبعت أمري، قال: ما هو؟ قال: أدعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني، قال: ادعها، فأقبلت: حتى وقفت بين يدي رسول الله، فقال لها: ارجعي إلى مكانك، فرجعت إلى مكانها[1].

٥ ــ ثم قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلا من النصارى، في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من سؤال رسول الله عما أرادوا، دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع،

(١) يقول القاضي عياض: صرع رسول الله ركانة وكان أشد أهل وقته، وكان دعاه إلى الإسلام، وصارع أبا ركانة في الجاهلية وكان شديدا وعاوده ثلاث مرات، كل ذلك يصرعه رسول الله (٤٤ الشفا للقاضي عياض).

ثم استجابوا لله وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما عرفوا، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، ما نعلم ركبا، أحمق منكم، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم، لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال!!

قالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرا.

٦ ـ وكان رسول الله إذا جلس في المسجد، وجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب، وعمار، ويسار، وصهيب، وأشباههم من المسلمين، هزأت بهم قريش، قال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق؟ لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هو إليه وما خصهم الله به دوننا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ **وَلاَ تَطْرُدِ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَاةِ والعَشِيِّ** ﴾(١).

٧ ـ وكان العاص بن وائل السهمي، إذ ذكر رسول الله، قال: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له، لو قد مات لقد انقطع ذكره، واسترحتم منه فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ...** ﴾(٢).

٧ ـ وظل رسول الله يدعو قومه إلى الإسلام، فقال له: زمعة ابن الأسود، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد يغوث، وأبي بن

---

(١) سورة الانعام آية ٥٢ عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت في ستة، أنا وابن مسعود منهم (١: ٧٣ سير أعلام النبلاء الذهبي).

(٢) سورة الكوثر آية ١.

خلف، والعاص بن وائل: لو جعل منك يا محمد ملك يحدث عنك الناس، ويرى معك!! فأنزل الله تعالى في ذلك:

﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عليه مَلَكٌ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ... ﴾[1].

(١) سورة الانعام آية ٨.

الإسراء والمعراج

١ ــ في العام الخمسين من الميلاد النبوي، والعاشر من البعثة المحمدية أسرى برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وكان الإسلام قد فشا بمكة في قريش وفي القبائل كلها[1].

يحدث المحدثون من أهل العلم من الصحابة رضوان الله عليهم، ومنهم: عائشة، وأم هانىء بنت أبي طالب، بذلك.

وكان في الإسراء بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله وقدرته وسلطانه، فيه عبرة لأولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق، وكان من أمر الله على يقين، فلقد أسرى الله عز وجل برسوله كيف شاء، وكما شاء، ليريه من آياته الكبرى ما رأى حتى عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد.

٢ ــ حدث عبد الله بن مسعود قال:
أوتي رسول الله ﷺ بالبراق[2]، فجعل عليها ثم خرج به جبريل

(١) في زاد المعاد لابن القيم (١: ٤٧) أن الإسراء كان بعد عودة رسول الله من الطائف.
(٢) هي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء والرسل لتسير بهم بأمر الله إلى حيث يشاء الله.
هذا وقد اختلف في تاريخ الإسراء: =

يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس.

فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، قد جمعوا له، فصلى بهم.

ثم أتى ﷺ بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء، قال رسول الله: فسمعت قائلا يقول حين عرضت علي: « إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته، وإن أخذ اللبن هدي وهديت أمته »، فأخذت إناء اللبن فشربت منه، فقال لي جبريل عليه السلام: هديت وهديت أمتك يا محمد.

وعن الحسن بن أبي الحسن أن رسول الله ﷺ قال:
بينا أنا نائم في الحجر إذ جاءني جبريل، فهزني بقدمه، فجلست، فلم أر شيئاً، فعدت إلى مضجعي، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست

---

١ ــ في السنة الخمسين من مولد الرسول كما ذكرنا عن مصادر غير ابن هشام. وقد ذكر ابن هشام أنه كان قبل وفاة خديجة.

٢ ــ وابن اسحاق يقول: في ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً (نهاية الارب ١٦: ٨٣).

٣ ــ ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة بسنة (طبقات ابن سعد قسم ١ حـ ١ ص ١٤٣).

٤ ــ قبل الهجرة بثلاث سنين وقيل بسنة واحدة. وقيل: وله من العمر إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر، وقيل كان بعد البعث بخمسة أشهر وقيل: كان بعد بيعة الأنصار في العقبة، وقال الحربي: ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة ــ وقال ابن اسحاق: كان لليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان قبل الهجرة بثمانية وعشرين شهراً ــ وقيل: كان ليلة سبع عشرة من ربيع الأول قبل الهجرة، وكانت سنه حين الاسراء اثنتين وخمسين سنة (إمتاع الاسماع للمقريزي).

فأخذ بعضدي، فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيض في فخذيه جناحان فحملني عليه ثم خرج معي، لا يفوتني ولا أفوته.

وعن قتادة أن رسول الله ﷺ قال:

لما دنوت منه لأركبه شمس[١]، فوضع جبريل يده على معرفته[٢] ثم قال: ألا تستحي يا براق مما تصنع؟ فوالله يا براق ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم على الله منه، فاستحيا حتى ارفض عرقا، ثم قر[٣] حتى ركبته.

وقال الحسن في حديثه:

فمضى رسول الله، ومضى جبريل عليه السلام معه حتى انتهى به إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء، فأمهم رسول الله فصلى بهم ثم أتي باناءين: في أحدهما خمر، وفي الآخر لبن، فأخذ رسول الله إناء اللبن فشرب منه، وترك إناء الخمر، فقال له جبريل: هديت للفطرة، وهديت أمتك يا محمد، وحرمت عليهم الخمر، ثم انصرف رسول الله إلى مكة.

وعن هند أم هانئ بنت أبي طالب: ما أسرى برسول الله إلا وهو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة في بيتي، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا ـ أيقظنا ـ رسول الله، فلما صلى الصبح وصلينا معه، قال:

يا أم هانئ ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت، بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه ثم قد صليت صلاة الغداة

(١) أي حرن ونفر.
(٢) أي رقبته حيث ينبت شعر العرف.
(٣) أي سكن.

ـــ الفجر ـــ معكم الآن كما ترين وثم قام ليخرج، فأخذت بطرف ردائه، فتكشف عن بطنه، فقلت له: يا نبي الله، لا تحدث بهذا الحديث الناس، فيكذبوك ويؤذوك قال: والله لأحدثنهم، فقلت لجارية لي حبشية: ويحك، اتبعي محمداً رسول الله، حتى تسمعي ما يقول للناس، وما يقولون له. فلما خرج رسول الله إلى الناس أخبرهم، فعجبوا، قالوا: ما آية ذلك يا محمد، فإنا لم نسمع بمثل هذا قط؟ قال ﷺ: آية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حس الدابة، فند[1] لهم بعير، فدللتهم عليه، وأنا موجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بـ « ضجنان »[2] مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياما، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق، عليه غرارتان، إحداهما سوداء، والأخرى برقاء[3]. فابتدر القوم الثنية، وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وضعوه مملوءا ماء ثم غطوه، وأنهم هبوا ـــ أي من النوم ـــ فوجدوه مغطى ولم يجدوا فيه ماء. وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا صدق والله، لقد ند لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه، حتى أخذناه.

وعن الحسن قال: فلما أصبح رسول الله غدا على قريش، فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس:

هذا ـــ والله ـــ الأمر[4] البين والله إن العير لتطرد شهرا من مكة

---

(١) أي شرد.

(٢) موضع بينه وبين مكة خمسة وعشرون ميلا.

(٣) ذات ألوان مختلفة.

(٤) هو الأمر الشنيع الفظيع، أو العجيب.

إلى الشام مدبرة، وشهر مقبلة، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة؟

وارتد كثير ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكر يقولون له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة في بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة.

فقال لهم أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟فوالله إنه ليخبرني إن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه.

ثم أقبل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله، فقال:
يا نبي الله، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة، قال: نعم، قال: يا نبي الله فصفه لي فإني قد جئته، قال رسول الله: فرفع لي حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئاً، قال: صدقت، أشهد أنك رسول الله، حتى انتهى رسول الله، فقال لأبي بكر: أنت يا أبا بكر الصديق، فيومئذ سماه الصديق.

٣ ـــ وعن أبي سعيد الخدري قال. سمعت رسول الله ﷺ يقول:
لما فرغت مما كان في بيت المقدس
أتى بالمعراج
ولم أر شيئاً قط أحسن منه
فأصعدني صاحبي جبريل

حتى انتهى بي إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة، يقال له إسماعيل، تحت يديه اثنا عشر ألف ملك، تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

فلما دخل بي قال: من هذا يا جبريل؟
قال: محمد
قال: أو قد بعث؟
قال: نعم
فدعا لي بخير.

ويروي ابن اسحاق[1] أن رسول الله ﷺ قال:

تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا، فلم يلقني ملك إلا ضاحكاً مستبشراً يقول خيرا، ويدعو به، حتى لقيني ملك من الملائكة، فقال مثل ما قالوا، ودعا بمثل ما دعوا، إلا أنه لم يضحك، ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره. فقلت لجبريل: يا جبريل، من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة، ولم يضحك، ولم أر منه من البشر مثل الذي رأيت منهم؟ فقال له جبريل. أما إنه لو كان ضحك إلى أحد قبلك أو كان ضاحكا إلى أحد بعدك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك، هذا مالك خازن النار، فقلت لجبريل، وهو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[2] ألا تأمره أن يريني النار؟ قال: بلى، يا مالك، أر محمدا النار، فكشف عنها غطاءها، ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى، فقلت لجبريل: يا جبريل، مره فليردها إلى مكانها، فأمره، فقال لها: اخبي[3] فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه، حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها.

---

(١) هو محمد بن إسحاق شيخ كتاب السيرة النبوية (٨٥ ــ ١٥٢ هـ) وسيرته أصل لسيرة النبي ﷺ التي ألفها ابن هشام. ولابن إسحاق كتاب « فتوح مصر وأعمالها» طبع في مصر عام ١٣٧٥ هـ.

(٢) سورة التكوير آية ٢١.

(٣) من خبت النار أي سكن لهبها.

قال أبو سعيد الخدري عن رسول الله، ﷺ، قال:
لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلا جالساً تعرض عليه أرواح بني آدم: فيقول لبعضها إذا عرضت خيراً ويسر به، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب. ويقول لبعضها إذا عرضت عليه: أف ويعبس بوجهه، ويقول: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال. هذا أبوك آدم، تعرض عليه أرواح ذريته، فإذا مرت به روح المؤمن منهم سر بها، وقال روح طيبة خرجت من جسد طيب، وإذا مَرَّت به روح الكافر أفف منها وكرهها وساءه ذلك، وقال: روح خبيثة خرجت من جسد خبيث.

ثم رأيت رجالا لهم مشافر[1] كمشافر الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار[2]، يقذفونها في أفواههم، فيخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً.

ثم رأيت رجالا لهم بطون لم أر مثلها قط، يمرون عليهم حين يعرضون على النار، يطؤونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا.

ثم رأيت رجالا بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن.

ثم رأيت نساء معلقات بثديهن، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال:

---

(١) المشفر للبعير: كالشفة للإنسان.
(٢) جمع فهر — بوزن مسك — وهو الحجر.

هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم[1].

ثم أصعدني ــ جبريل ــ إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا.

ثم أصعدني إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر، فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب.

ثم أصعدني إلى السماء الرابعة، فإذا فيها رجل، فسألته: من هو؟ فقال: هذا إدريس، يقول رسول الله: ﴿ وَرَفَعْنَاه مَكَاناً عَلِيّاً ﴾[2].

ثم أصعدني إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية لم أر كهلا أجمل منه، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال هذا المحبب في قومه هارون بن عمران.

ثم أصعدني إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل آدم طويل، فقلت له: من هذا يا جبريل، قال: هذا أخوك موسى بن عمران.

ثم أصعدني إلى السماء السابعة فإذا فيها كهل جالس على كرسي إلى باب البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة، لم أر رجلا أشبه بصاحبكم[3]، ولا صاحبكم أشبه به منه، قلت: من هذا يا جبريل قال: هذا أبوك إبراهيم.

ثم دخل بي إلى الجنة، فرأيت فيها جارية لعساء[4]، فسألتها: لمن

(١) عن رسول الله ﷺ: اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فأكل حرائبهم (أموالهم التي يعيشون بها) واطلع على عوراتهم.

(٢) سورة مريم آية ٥٧.

(٣) أي بمحمد رسولنا عليه الصلاة والسلام، يعني رسول الله نفسه.

(٤) في شفتها حمرة تضرب إلى السواد.

أنت؟ فقالت: لزيد بن حارثة، فبشر بها رسول الله زيد بن حارثة.

ومن حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أن جبريل انتهى به ﷺ إلى السماء السابعة، ثم انتهى به إلى ربه، فعرض عليه خمسين صلاة كل يوم.

قال رسول الله: فأقبلت راجعاً، فلما مررت بموسى، سألني: كم فرض عليك من الصلاة؟

فقلت: خمسين صلاة كل يوم.
فقال: إن الصلاة ثقيلة، وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك وعن أمتك.

فرجعت: فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمتي.
فوضع عني عشراً.

ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لي مثل ذلك، فرجعت، فسألت ربي أن يخفف عني وعن أمتي، فوضع عني عشراً، ثم انصرفت، فمررت على موسى، فقال لي مثل ذلك، فرجعت، فسألته فوضع عني عشراً فمررت على موسى، ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك كلما رجعت إليه، فأرجع، فأسأل، حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عني إلا خمس صلوات في كل يوم وليلة.

ثم رجعت إلى موسى، فقال لي مثل ذلك، فقلت: قد راجعت ربي. وسألته حتى استحييت منه، فما أنا بفاعل فمن أداهن منكم إيماناً بهن واحتساباً لهن كان له أجر خمسين صلاة[1].

---

(١) كان أول شيء فرضه الله بعد الإقرار بالتوحيد والبراءة من الأوثان الصلاة (٢: ٥٣ الطبري).

٤ ــ قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا التي أَرَيْنَاك إلاَّ فِتْنَةً لِلنَاسِ﴾[١].

وعن عائشة زوج النبي ﷺ:
ما فقد جسد رسول الله، ولكن الله أسرى بروحه.
وعن معاوية، وكان إذا سئل عن مسرى رسول الله قال: كانت رؤيا من الله تعالى صادقة، ثم مضى على ذلك، فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً ونياماً.

وكان رسول الله يقول: تنام عيني وقلبي يقظان.

(١) سورة الاسراء آية ٦٠

مواصلة الجهاد في سبيل الله والرسالة

المستهزئون

أقام رسول الله ﷺ على أمر الله تعالى، صابرا، محتسبا مؤديا إلى قومه النصيحة، على ما يلقى منهم من التكذيب والاستهزاء.

وكان عظماء المشركين خمسة نفر من قومه، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم:

١ ــ أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد من بني أسد بن عبد العزى ابن قصي، وكان رسول الله قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به، فقال: اللهم أعم بصره، وأثكله ولده.

٢ ــ الأسود بن عبد يغوث من بني زهرة.

٣ ــ الوليد بن المغيرة المخزومي.

٤ ــ العاص بن وائل هشام السهمي.

٥ ــ الحارث بن الطلاطلة الخزاعي.. فلما تمادوا في الشر، وأكثروا برسول الله الاستهزاء، أنزل الله تعالى عليه: ﴿.. **فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين**﴾(١)

وعن عروة بن الزبير أن جبريل أتى رسول الله، إذ هم يطوفون

---

(١) سورة الحجر آية ٩٤ ــ ٩٥.

بالبيت فقام وقام رسول الله إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء، فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات منه، ومر به الوليد فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله كان قد أصابه قبل ذلك بسنين، فانتقض[1] به، فقتله، ومر العاص، فأشار إلى أخمص رجله، فدخلت فيها شوكة فقتلته، ومر به الحارث، فأشار إلى رأسه، فامتخض قيحاً فقتله.

ولما حضرت الوليد بن المغيرة الوفاة دعا بنيه، وكانوا ثلاثة: هشام، والوليد، وخالد بن الوليد، فقال لهم:

أي بني، أوصيكم بثلاث، فلا تضيعوا فيهن:

١ ــ دمي في خزاعة، فلا تطلنه[2]، والله إني لأعلم أنهم منه برآء ولكني أخشى أن تسبوا بعد اليوم.

٢ ــ رباي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه.

٣ ــ وعقري[3] عند أبي أزيهر الدوسي فلا يفوتنكم.

فطالب بنوه بدمه، فأعطتهم خزاعة بعض الدية، وانصرفوا عن بعض وقتل هشام بن الوليد أبا أزير الدوسي، وذلك بعد بدر، فطالب يزيد ابن أبي سيفان بثأر صهر أبيه فمنعه أبوه، واكتفى بأخذ الدية، ولما أسلم أهل الطائف كلم خالد بن الوليد رسول الله في ربا الوليد الذي

---

(١) أي عاوده بعدما برئ منه.

(٢) أي لا تضيعوه، ولا تهدروه ــ وذلك أنه مر برجل من خزاعة قبل ذلك بسنين، وهو يجر رداءه، وكان الخزاعي يريش نبلا له، فتعلق سهم من نبله بإزاره ، فخدش رجله، ذلك الخدش، ولم يكن بشيء، فبرئ منه، ثم عاوده فقتله.

(٣) هو دية الزواج الذي تم ولم ينفذ، ويقال له: دية الفرج، وكان الدوس قد زوجه بنتا له ثم أمسكها عنه فلم يدخلها عليه حتى مات، وتزوجها أبو سفيان، وكان الدوس رجلا شريفا في قومه.

كان في ثقيف فنزل قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾[1].

النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله في بيته

كان عدة رجال من قريش، يؤذون رسول الله في بيته، وهم: أبو لهب والحكم بن العاص، وعقبة بن معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الإصداء الهذلي، وكانوا جيران رسول الله.

ولم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن العاص[2].

وكان أحد هؤلاء يطرح رحم الشاة على رسول الله وهو يصلي، وأحدهم يطرحها في برمة[3]، حتى اتخذ رسول الله، حجراً يستتر به منهم إذا صلى، فكان إذا طرحوا عليه الأذى خرج به رسول الله، فيقف به على بابه، ثم يقول: يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق.

وفاة أبي طالب وخديجة

وفي العام الخمسين هذا، ماتت خديجة زوج الرسول، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها، ومات أبو طالب عم الرسول فتتابعت على رسول الله المصائب، وكان أبو طالب له عضداً، وحرزاً في أمره، ومنعة، وناصراً له على قومه فلما مات نالت قريش من الرسول

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٨

(٢) ذكره ابن هشام مرة: ابن العاص، ومرة بن أبي العاص.

(٣) البرمة مثل العمرة: القدر.

ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب من الأذى، حتى أعرضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابا.

وكان موتها قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين، وماتت خديجة بعد عمه أبي طالب بثلاثة أيام[1].

ولما نثر ذلك السفيه التراب على رأس الرسول ﷺ دخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب، وهي تبكي، ورسول الله يقول لها: لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك.

وكان يقول ﷺ: « ما نالت مني قريش شيئا أكرهه، حتى مات أبو طالب ».

وقبيل وفاة أبي طالب بقليل مشى رجال من قريش إلى أبي طالب، فكلموه، وهم أشراف قومه: عتبة بن ربيعة، شيبة بن ربيعة، أبو جهل ابن هشام، أمية بن خلف، أبو سفيان، في رجال من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه.

فبعث أبو طالب إلى رسول الله، فجاءه، فقال: يا أبن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك، فقال رسول الله:

يا عم، كلمة واحدة، يعطونيها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم.

فقال أبو جهل: نعم وأبيك. وعشر كلمات.

---

(١) ١: ٢٢٠ العقد الثمين للفاسي.

فقال رسول الله: يقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه. فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الالهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب.

وقال بعضهم لبعض: إنه ـــ والله ـــ ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون. فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه.

ثم تفرقوا.

فقال أبو طالب لرسول الله: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططا[1].

فطمع رسول الله في إسلامه، فجعل يقول له، أي عم، فأنت فقلها، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة.

فرد أبو طالب: يا ابن أخي، والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها.

ونزل في ذلك قوله تعالى:

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾[2] إلى آخر الآيات.

ومات أبو طالب.

ونالت قريش من رسول الله ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب من الأذى[3].

---

(١) أي شيئاً مبالغاً فيه.

(٢) سورة صٓ آية ١ ـــ ٢

(٣) كان خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف بعد موت عمه أبي طالب وزوجه خديجة بثلاثة =

إلى الطائف

وخرج رسول الله إلى الطائف[1]، يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل.

فخرج إليهم وحده، وقيل: كان معه زيد بن حارثة مولاه.

ولما انتهى — وصل — رسول الله إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافها، وهم إخوة ثلاثة:

١ — عبد ياليل بن عمرو بن عمير.
٢ — وأخوه مسعود.
٣ — وأخوهما حبيب.

وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح.

فجلس إليهم رسول الله، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه.

فقال أحدهم لرسول الله: إن كان الله أرسلك.

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك.

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسول من الله — كما تقول — لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله من عندهم، وقد يئس من ثقيف وقال لهم: « إذ قد فعلتم ما فعلتم، فاكتموا عني ». فلم يفعلوا ذلك.

= أشهر (١: ٢٣٠ العقد الثمين للفاسي) وذلك في شوال سنة عشرين من البعثة، وقبل الهجرة بثلاث سنين (١: ٢٣١ المرجع نفسه)، وكان معه زيد بن حارثة (١: ٤٧ زاد المعاد):

(١) ما أكثر ما نال رسول الله من الأذى في سبل تبليغ رسالة الله إلى الناس.

وأغروا برسول الله سفهاءهم وعبيدهم، يسمونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. فعمد إلى ظل كرمة من عنب فجلس فيه، وعتبة وشيبة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف أهل الطائف.

ومرت به المرأة القرشية التي من بني جمح، فقال لها:

ماذا لقينا من أحمائك؟

ولما اطمأن رسول الله، أخذ يبتهل إلى الله.

اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس.

يا أرحم الراحمين، أنت، رب المستضعفين، وأنت ربي.

إلى من تكلني؟

إلى بعيد يتجهمني.

أم إلى عدو ملكته أمري.

إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك.

لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

فلما رآه عتبة وشيبة وما لقي، تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا، فقالا له:

خذ عنقودا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه.

ففعل الغلام، واسمه عداس، ثم أقبل به، حتى وضعه بين يدي رسول الله ثم قال له: كل.

فلما وضع رسول الله فيه يده، قال:
بسم الله
ثم أكل
فنظر (عداس) في وجهه وقال: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد

فقال له رسول الله: من أهل البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟
قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى فقال له رسول الله: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى.

قال عداس: وما يدريك من يونس؟ فقال رسول الله: ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبي فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه.

فقال عتبة لأخيه، أما غلامك فقد أفسده عليك.
ولما جاء عداس قالا له: ويلك ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، فقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي.

فقالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

وانصرف رسول الله من الطائف راجعا إلى مكة، حين يئس من ثقيف، ودخل مكة بجوار المطعم بن عدي، قيل: إن رسول الله أقام بعد الطائف بنخلة أيامه، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك. فقال: يا زيد، إن الله جاعل لما ترى مخرجا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه. ثم انتهى إلى مكة، فأرسل إلى مطعم ابن عدي: أدخل في جوارك؟ فقال: نعم ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا

السلاح، وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمداً، فدخل رسول الله، معه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام مطعم على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم فانتهى رسول الله إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته (راجع ١: ٤٧ زاد المعاد، و٢: ١٦٠ أيضاً) ــ وكان مطعم ممن مشى في نقض الصحيفة.

ومن أولاده: جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي وكان من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة، وكان يقول: إنما أخذت النسب من أبي بكر وكان أبو بكر أنسب العرب (١: سير أعلام النبلاء).

ويقول ابن القيم في زاد المعاد (١: ٤٧): إن الإسراء والمعراج كان بعد الطائف.

عرض الرسول نفسه على القبائل

١ ــ قدم رسول الله مكة، من رحلته إلى الطائف، وقريش أشد ما تكون عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به.

وأخذ رسول الله يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه، حتى يبلغ عن الله ما بعثه به.

٢ ــ عن ربيعة بن عياد عن أبيه، قال:

إني لغلام شاب مع أبي بمنى، إذا رسول الله في منى يقف على منازل القبائل من العرب، يقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به.

وخلف رسول الله رجل أحول وضيء، عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله من قوله وما دعا إليه، قال ذلك الرجل:

يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ما جاء به من الضلالة. فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه فإذا الرجل عمه عبد العزى بن عبد المطلب، وهو أبو لهب.

٣ ــ وأتى رسول الله كندة في منازلهم فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه.

٤ ــ وأتى رسول (كلبا) في منازلهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: يا بني عبد الله.. إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم، وكان هذا البطن من كلب يقال لهم بنو عبد الله فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

٥ ــ وأتى رسول الله بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه رداً منهم.

٦ ــ وأتى ﷺ بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له بجرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

قال ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.
فرد على رسول الله: أفنهدف[1] نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، وأبوا على رسول الله.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، فقالوا له، وقال لهم ما قال[2].

(١) أي نجعلها هدفاً.
(٢) يروي عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه العامريين قالوا:
أتانا رسول الله ﷺ ونحن بسوق عكاظ فقال: ممن القوم؟ قلنا: من بني عامر بن صعصعة! قال من أي بني عامر. قلنا بنو كعب بن ربيعة قال: كيف المنعة فيكم؟ قلنا: لا يرام ما =

٧ — وظل رسول الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله، وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم

= قبلنا ولا يصطلي بنارنا، فقال: إني رسول الله. فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم أكره أحداً منكم على شيء قالوا: ومن أي قريش أنت. قال من بني عبد المطلب، قالوا: فأين أنت من بني عبد مناف قال: هم أول من كذبني وطردني! قالوا ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك ولا نمنعك أن تبلغ رسالة ربك.

فنزل إليهم والقوم يتسوقون، إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري (أو بجرة بن فراس كما في الطبري ٢/٢٣٢) فقال: من هذا الذي أراه عندكم أنكره قالوا: هذا محمد بن عبد الله القرشي. قال: وما لكم وله؟ قالوا: زعم أنه رسول الله ويطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه. قال فبماذا رددتم عليه؟ قالوا: قلنا: في الرحب والسعة. نخرجك إلى بلادنا. ونمنعك مما نمنع منه أنفسنا. قال بجرة: ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به بدأتم لتنابذكم الناس، وترميكم العرب عن قوس واحدة، قومه أعلم به؟ لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به. تعمدون إلى مرهق قد طرده قومه وكذبوه فتؤونه وتنصرونه! فبئس الرأي ما رأيتم.

ثم أقبل على رسول الله فقال: قم، الحق بقومك، فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك. فقام رسول الله إلى ناقته فركبها فغمزها بجرة فقمصت برسول الله فألقته. وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط وكانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله بمكة. جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت: يا آل عامر. أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم، فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بجرة وثلاثة أعانوه. فأخذ كل منهم رجلا فجلد به الأرض. ثم جلس على صدره. فقال رسول الله: اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كان أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه سألهم عمن كان في الموسم، فقالوا جاءنا فتى من قريش، ثم حدث أنه أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به معنا إلى بلادنا، فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف، هل لذناباها تطلب، فوالذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيل قط، ألا إنها الحق، فأين كان رأيكم؟

(مأثورات نبوية — للمؤلف — ص ٢٥١):

من العرب، له اسم وشرف، إلا تصدى له، فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده.

قدم سويد بن صامت، من عمرو بن عوف، مكة، حاجاً أو معتمراً وكان يسميه قومه الكامل، لجلده وشرفه ونسبه، فتصدى له رسول الله حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي.

فقال له رسول الله: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان، يعني حكمة لقمان، فقال له رسول الله: اعرضها علي فعرضها عليه.

فقال له: إن هذا الكلام حسن والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ هو هدى ونور، وتلا عليه رسول الله القرآن، ودعاه إلى الإسلام. فلم يبعد منه، وقال: إن هذا لقول حسن.

ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج قبل « يوم بعاث »[1].

٨ ـــ وقدم أنس بن رافع مكة، وكان معه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج وسمع بهم رسول الله، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له.

قالوا لرسول الله: وما ذاك؟

قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب.

(١) مكان كانت فيه حرب شديدة بين الأوس والخزرج.

ثم ذكر رسول الله لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

فقال إياس ــ وكان غلاما حدثا ــ: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له.

فأخذ أنس بن رافع حفنة من التراب، فضرب بها وجه إياس، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا.

فصمت إياس، وقام رسول الله عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، ثم لم يلبث أن مات إياس، وما كانوا يشكون أنه مات مسلما، فلقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ما سمع.

نور على الطريق

فلما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله في الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار وكان ذلك في العام الخمسين من مولده الشريف فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينا هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج، أراد الله بهم خيرا.

فقال لهم: من أنتم؟

قالوا: نفر من الخزرج

قال: أمن موالي يهود؟

قالوا: نعم

قال: أفلا تجلسون أكلمكم

قالوا: بلى

فجلسوا معه

فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان. فكان يهود إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن، قد

أظل زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه قتل عاد، فلما كلم رسول الله أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض:

يا قوم، تعلموا والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه.

فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا.

وكانوا ستة من الخزرج، هم:

١ ــ أسعد بن زرارة من بني النجار.

٢ ــ عوف بن الحارث من بني النجار.

٣ ــ رافع بن مالك

٤ ــ قطبة بن عامر.

٥ ــ عقبة بن عامر.

٦ ــ جابر بن عبد الله.

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ.

بيعة العقبة الأولى

١ ــ رأينا هؤلاء الستة من الخزرج الذين أسلموا، بعد أن دعاهم رسول الله في الموسم إلى الإسلام.

فلما كان العام المقبل ــ الحادي والخمسون من الميلاد النبوي الكريم ــ وافي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، فلقوه بالعقبة، فبايعوا رسول الله على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب، وتلك هي بيعة العقبة الأولى. والذين بايعوا رسول الله هم:

١ ــ أسعد بن زرارة من بني النجار.
٢ ــ عوف بن الحارث بن رفاعة من بني النجار.
٣ ــ معاذ بن الحارث بن رفاعة من بني النجار.
٤ ــ رافع بن مالك.
٥ ــ عبادة بن الصامت(١)
٦ ــ العباس بن عبادة.
٧ ــ عقبة بن عامر.
٨ ــ وشهدها من الأوس أبو الهيثم بن النبهان، وكان في الجاهلية يكره الأصنام ويقول بالتوحيد هو وأسعد بن زرارة، وكانا أول من

(١) توفي عام ٣٤ هـ ٦٥٤ م عن سنة ٧٢

أسلم من الأنصار بمكة، وتوفي أبو الهيثم عام ٢٠ هـ كما تذكر بعض المصادر[١].

٩ ــ عويم بن ساعدة.
١٠ ــ ذكوان بن عبد قيس.
١١ ــ يزيد بن ثعلبة.
١٢ ــ قطبة بن عامر.

وهؤلاء الاثنا عشر بايعوا رسول الله على أن لا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونهم من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوا الرسول في معروف. وقال لهم رسول الله:

فإن وفيتم فلكم الجنة.

وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمركم الله عز وجل، إن شاء غفر، وإن شاء عذب.

٢ ــ فلما انصرف القوم عن رسول الله بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين فسمي بالمدينة المقرئ، وكان نزوله على أسعد بن زرارة، وهو أول من صلى الجمعة بالمسلمين في المدينة.

٣ ــ وفي اجتماع لمصعب بالمسلمين، قال سعد بن معاذ لأسيد ابن حضير وكانا مشركين: لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين ــ أسعد ابن زرارة، ومصعب بن عمير ــ الذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فانه لولا أن أسعد بن زرارة

(١) سير أعلام النبلاء الذهبي: ١: ١٣٩

مني حيث قد علمت ـــ وكان أسعد ابن خالة سعد ـــ كفيتك ذلك.

فأخذ سعيد حربته، ثم أقبل إليهم وقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال مصعب: أَوَتجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال له أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يروى عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، ثم شهد شهادة الحق، ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، سعد بن معاذ.

وأخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاء أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد أخبرت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفرك.

فقام سعد مغضبا، فأخذ الحربة من يده، وخرج إليهما، ثم قال لأسعد: أتغشانا في دارنا بما نكره؟ قال له مصعب: أَوَتَقْعد فتسمع، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت ـــ ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، ثم شهد سعد شهادة الحق.

ثم أخذ حربته، وانصرف، فأقبل عامدا إلى نادي قومه، ومعه أسعد، فقال قومه: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف عليهم قال:

يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة.

قال: وإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

فما أمسى منهم رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة.

وأقام مصعب عند أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

بيعة العقبة الثانية أو الكبرى
في العام الثاني والخمسين من ميلاده الكريم

١ ــ رجع مصعب بن عمير ــ داعية الإسلام في المدينة إلى مكة، ليحضر موسم الحج.

وخرج جماعات من الأنصار من المسلمين إلى الموسم، مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، واتصلوا بالرسول أيام التشريق، وهو اليوم الثاني لعيد الأضحى من العام الثاني عشر للبعثة المحمدية، ولم يكن عيد الحج قد سمي بعد بعيد الأضحى.

وذلك كله حين أراد الله بهم ما أراد، من كرامته، والنصر لنبيه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه.

وحدث عبد الله بن كعب بن مالك، وكان من أعلم الأنصار أن أباه كعباً حدثه، وكان كعب ممن شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ بها، قال:

خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا.

فلما خرجنا من المدينة قال لنا البراء: يا هؤلاء إني قد رأيت رأيا،

ووالله ما أدرى توافقونني عليه أم لا؟ قلنا: وما ذاك؟ قال قد رأيت ألا أدع الكعبة مني بظهر وأن أصلي إليها، فقلنا: والله، ما بلغنا أن نبيا ﷺ يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه، فقال: إني لمصل إليها. فقلنا له: لكنا لا نفعل.

فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة، وقد كنا عبنا عليه ما صنع، وأبى إلا الإقامة على ذلك.

فلما قدمنا إلى مكة قال لي: يا ابن أخي، انطلق بنا إلى رسول الله، حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا فخرجنا نسأل عن رسول الله، وكنا لا نعرفه، لأنا لم نره قبل ذلك، فلقينا رجلا من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله، فقال: هل تعرفانه؟ قلنا: لا، قال: هل تعرفان العباس عمه، قلنا: نعم، وكنا نعرفه إذ كان يقدم علينا المدينة تاجرا. قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس.

فدخلنا المسجد فإذا العباس، ورسول الله جالس معه، فسلمنا، ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال رسول الله: الشاعر؟ قال عمه العباس بن عبد المطلب: نعم، فقال البراء يا رسول الله إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للاسلام، فرأيت ألا أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك. حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟.

قال له ﷺ: قد كنت على قبلة، لو صبرت عليها؟ فرجع البراء إلى قبلة رسول الله وصلى إلى الشام.

قال كعب: ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة الموعودة، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا أخذناه

معنا، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فقلنا: أي ابن حرام أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه، أن تكون حطبا للنار غداً، ودعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله إيانا العقبة فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً.

قال كعب: قدمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا، لميعاد رسول الله، نتسلل مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا:

١ ــ نسيبة بنت كعب، أم عمارة، من بني مازن بن النجار.
٢ ــ وأسماء بنت عمرو، من بني سلمة، وهي أم منيع.

قال كعب بن مالك: فاجتمعنا في الشعب، ننتظر رسول الله، حتى جاءنا ومعه العباس، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له: فلما جلس كان هو أول متكلم!

قال العباس: يا معشر الخزرج[١]، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده[٢].

---

(١) كانت العرب تسمى الأوس الخزرج باسم الخزرج.
(٢) كان خروج العباس مع رسول الله للسبب الذي ذكره ابن هشام، ولسبب آخر هو أنه كان أكثر خبرة بالمدينة وأهلها واشرافها لتردده عليها للتجارة.

فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال:

ـــ أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.
فأخذ البراء بيده، وقال:

نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع منه نساءنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب، ورثناها كابراً عن كابر.

وقال ابن التيهان، أبو الهيثم: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال[1] حبالا ـــ عهوداً ـــ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ثم قال:
بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

وقال رسول الله:
أخرجوا إليَّ منكم إثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم.
فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.
وهم:
١ ـــ أبو أمامة، أسعد بن زرارة، الخزرجي الأنصاري[2].

---

(١) يعني اليهود.
(٢) مات في السنة الأولى من الهجرة، ومات في هذه السنة من المشركين الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد، وسعيد بن العاص، والعاص بن وائل السهمي (١: ٢١٨ ـــ ٢٢٠ سير أعلام النبلاء).

٢ ـــ سعد بن ربيع الخزرجي قتل في أحد.
٣ ـــ عبد الله بن رواحة الخزرجي.
٤ ـــ رافع بن مالك الخزرجي.
٥ ـــ البراء بن معرور[١]
٦ ـــ عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي.
٧ ـــ عبادة بن الصامت[٢] الخزرجي.
٨ ـــ سعد بن عبادة الخزرجي.
٩ ـــ المنذر بن عمرو الخزرجي.
١٠ ـــ أسيد بن حضير الأوسي[٣].
١١ ـــ سعد بن خيثمة الأوسي.
١٢ ـــ رفاعة بن عبد المنذر، ومن العلماء من يجعل مكانه أبا الهيثم ابن التيهان.

وقال رسول الله للنقباء:

أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء كفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي ـــ المسلمين ـــ

قالوا له:

ـــ نعم

٢ ـــ وقال العباس بن عبادة لقومه:

---

(١) أنصاري خزرجي ـــ مات في المدينة في صفر قبل قدوم الرسول مهاجراً إليها بشهر واحد (١: ١٩٤ سير أعلام النبلاء) وابنه بشر بن البراء هو الذي أكل مع النبي ﷺ من الشاة المسمومة يوم خيبر فمات (١: ١٩٥ المرجع نفسه).

(٢) توفي عام ٣٤ هـ. ٦٥٤ م عن ٧٢ عاما.

(٣) توفي عام ٢٠ هـ (٢٤٦/١ سير أعلام النبلاء).

ـــ يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟
قالوا: نعم؟

قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وقتل أشرافكم، أسلمتموه، فمن الآن، فهو ـــ والله ـــ إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، على نهكة ـــ نقص ـــ الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا له:
ـــ فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا.

قال رسول الله لهم: الجنة.
قالوا: ابسط يدك.
فبسط رسول الله يده، فبايعوه.
وكان من أول من بايع رسول الله: أسعد بن زرارة وقيل: أبو الهيثم ابن التيهان.

ثم بايع القوم.
ثم قال رسول الله:
ارفضوا[1] إلى رحالكم.
فقال العباس بن عبادة:
والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا
فقال رسول الله:

(١) أي تفرقوا.

ـ لم نؤمن بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

قال كعب بن مالك:

فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها، حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش، حتى جاءونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه، وبعضنا ينظر إلى بعض.

ثم قام القوم، وفيهم: الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي.. وأتوا عبد الله بن أبي بن سلول، فقالوا له مثل ما قالوا، فقال لهم: إن هذا الأمر جسيم، ما علمته كان.. فانصرفوا عنه.

قال كعب:

ونفر الناس من منى، وعلمت قريش أن الخبر صادق قد كان، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، ففاتهم المنذر وأخذوا سعداً فقيدوه ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير، قال سعد: فقال لي رجل، ممن كان معهم[1]: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قلت: بلى والله جبير بن مطعم، والحارث بن حرب، قال: ويحك، فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما، ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأباطح ليهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما

---

(١) هو أبو البختري بن هشام.

جواراً قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة، قالا: صدق والله، إنه كان ليجير لنا تجارتنا، فجاءا فخلصاه من أيديهم.

٣ ــ وقدم المسلمون المدينة، فأظهروا الإسلام[1] وتسمى بيعة العقبة الثانية، بيعة الحرب، وكانت العقبة الأولى بيعة النساء، لأن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله في الحرب، فلما أذن لهم فيها، وبايعهم رسول الله في العقبة الآخرة على حرب الأحمر والأسود أخذ لنفسه، واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.

حدث عبادة بن الصامت، وكان أحد النقباء، وكان من الذين بايعوا في العقبة الأولى على بيعة النساء:

بايعنا رسول الله بيعة الحرب، على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول الحق أينما كانا، لا نخاف في الله لومة لائم.

٤ ــ وكان رسول الله قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمن بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه، فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه، ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فرارا، بالحبشة، أو بالمدينة، وفي كل وجه.

فلما عتت قريش على الله، وكذبوا نبيه، وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله لرسوله في القتال، والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم.

---

(١) وكان يؤم المهاجرين بقباء قبل هجرة رسول الله سالم مولى أبي حذيفة.

فلما أذن الله له في الحرب، وتابعه هذا الحي من الأنصار على الإسلام والنصرة ولمن اتبعه، أمر رسول الله أصحابه، من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة، بالخروج إلى المدينة، والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم:

ــ إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها.

فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله بمكة، ينتظر أن يأذن الله له في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

٥ ــ وكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله من المهاجرين من قريش من بني مخزوم: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، واسمه عبد الله، قدم على رسول الله مكة من الحبشة، فلما آذته قريش، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجراً، ويروى أنه هاجر قبل بيعة العقبة بسنة، وتقص أم سلمة المخزومية زوج النبي[١] ﷺ قصة هجرته، فتقول:

لما أجمع أبو سلمة الرأي على الهجرة إلى المدينة، أتى ببعيره فحملني عليه ومعي ابني سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود البعير.

(١) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد، كانت قبل النبي عند أخيه من الرضاعة أبي سلمة ودخل بها الرسول سنة أربع من الهجرة، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبا، وهي آخر من مات من أمهات المؤمنين، وذلك بعد مقتل الحسين. وقيل توفيت عام ٥٩ هـ في شهر ذي القعدة. والأرجح أن وفاتها عام ٦١ هـ، وصلى عليها أبو هريرة (٢: ١٤٢ ــ ١٤٨ سير أعلام النبلاء).

وأبو سلمة أخو رسول الله من الرضاعة، وابن عمته برة بنت عبد المطلب، وأحد السابقين الأولين. هاجر إلى الحبشة، ثم هاجر المدينة، وشهد بدرا وأحدا ومات عام ٤ هـ، وابنه سلمة ولد له بالحبشة من زوجه أم سلمة، كما ولد له عمر، ودرة، بالحبشة أيضا (١: ١٠٨ ــ ١١٠ سير أعلام النبلاء)، وولدت له زينب في المدينة.

فلما رأته رجال بني مخزوم قاموا إليه، فقالوا له:
هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟

ونزعوا مقود البعير من يده، فأخذوني منه، وغضب عند ذلك قوم أبي سلمة من بني عبد الأسد، وقالوا: والله لا نترك سلمة ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابني سلمة بينهم، حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسني قومي بنو المغيرة المخزوميون عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، وفرقوا بيني وبين زوجي وبين ابني.

فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أُمسي، مدة سنة أو قريبا من ذلك.

حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا ترحمون هذه المسكينة.. فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها.

فجاءوا، فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، ورد قوم زوجي بنو عبد الأسد إليَّ ابني.

فركبت بعيري، ثم أخذت ابني، فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله. حتى إذا كنت بالتنعيم[1] لقيت عثمان بن طلحة، فقال لي، إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أَوَمَعَكِ أحد؟ قلت: لا والله، ما معي إلا الله وابني هذا، فأخذ بخطام البعير، وانطلق معي يهوي بي،

(١) موضع خارج مكة يحرم منه المكيون.

فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت عنه جاء فحط عن بعيري، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى الشجرة، فاضطجع تحتها، فإذ دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه، فرحله، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى قدمت المدينة، عند قباء، فقال: زوجك في هذه القرية ـــ وكان أبو سلمة نازلا بقرية بني عمرو بن عوف بقباء ـــ فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت رفيق سفر قط أكرم من عثمان بن طلحة.

٦ ـــ وهاجر بعد أبي سلمة: عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى، وهما من عدي بن كعب.

ثم عبد الله بن جحش حليف بني أمية بن عبد شمس، وكان معه أهله وأخوه عبد بن جحش الضرير البصر، وكان شاعرا، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب فلم يبق أحد من بيت عبد الله بن جحش في مكة بسبب الهجرة.

ثم قدم المهاجرون المدينة جماعات.

٧ ـــ وكان من المهاجرين: عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة المخزومي. تواعدا اللقاء عند التناضب(١)، فلما قدما المدينة نزلا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل والحارث بن هشام إلى

(١) قرية من أعمال مكة بأعلى نخلة على نحو عشرة أميال من مكة.

عياش، وهو ابن عمهما وأخوهما لأمهما، فقدما المدينة، ورسول الله بمكة، فكلما عياشاً، وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل من شمس، حتى تراك. فرق قلبه لأمه، وقال عمر له: يا عياش، إنه والله ما يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فقال: أبر قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه، فقلت له: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، فأبى علي، فقلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

فخرج عليها معهما.

فلما كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: أفلا تعقبني على ناقتك هذه فقد استغلظت، فلما أناخ ليركبه خلفه، أوثقاه، ودخلا به مكة، وفتناه عن الإسلام. وقالا وهما يدخلان به مكة: هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا، وحبساه ومعه هشام بن العاص. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة قال لأصحابه: من لي بعياش وهشام؟ فقال الوليد ابن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما. فخرج إلى مكة، ففك قيديهما وحملهما على بعيره، وقدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة.

٨ ــ فنزل عمر بن الخطاب وآله ومن قدم المدينة بعد ذلك من آله في بني عمرو بن عوف بقباء على رفاعة بن عبد المنذر.

ونزل طلحة بن عبيد الله بن عثمان، وصهيب، على خبيب الخزرجي بالسنح[1].

---

(١) إحدى محال المدينة، وكان بها منزل أبي بكر، وهي في طرف من أطراف المدينة، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة، وبينها وبين منزل رسول الله ميل. =

ونزل حمزة وزيد بن حارثة بقباء على كلثوم بن هدم، وقيل على سعد بن خيثمة، وقبل على سعد بن زرارة.

ونزل عبيدة بن الحارث بن المطلب وآله على عبد الله بن سلمة بقباء.

ونزل عبد الرحمن بن عوف، ومعه رجال من المهاجرين على سعد ابن الربيع.

ونزل الزبير بن العوام ومن معه على منذر بن محمد.

ونزل مصعب بن عمير[1] على سعد بن معاذ.

ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت أخي حسان بن ثابت، في دار بني النجار، فلذلك كان حسان يحب عثمان، ورثاه حين قتل.

= وكان كفار قريش قد قالوا لصهيب حين أراد الهجرة أتيتنا صعلوكا — فقيرا — حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي، قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ربح صهيب، ربح صهيب.

(١) قتل في غزوة أحد عام ٢ هـ (١: ١٠٢ و١٠٣ سير أعلام النبلاء الذهبي).

هجرة رسول الله إلى المدينة

١ ـــ أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد إلا من حبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر.

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله في الهجرة، فيقول له رسول الله: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكونه.

٢ ـــ ولما رأت قريش أن رسول الله صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم في غير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فخافوا خروج رسول الله إليهم، إذ قد عرفوا أنه قد أجمع لحربهم.

فاجتمعوا له في دار الندوة، وهي دار قصي التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، وأخذوا يتشاورون فيما يصنعون في أمر محمد ﷺ. وكان ذلك الاجتماع في يوم الخميس السابع والعشرين من صفر عام ٦٢٢ م.

وفي الدار اجتمع أشراف قريش: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وطعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، والحارث ابن عامر بن نوفل، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، وزمعة

ابن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، وأبو جهل بن هشام، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف، وغيرهم.

قال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا، فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً.

فتشاوروا، قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيراً ومن مضى منهم، حتى يصيبه ما أصابهم.

وقال آخر: بل نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا من أمره فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

وقال أبو جهل، والله إن لي فيه لرأياً ما وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: ــ أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً قوياً نسيباً وسيطاً. ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، وإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً.

ونزل جبريل، فحدث رسول الله بالأمر، وقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. وكان الرسول قد أعد من قبل عدته للهجرة متى ما أذن له بها.

فلما كان الظلام اجتمعوا على باب الرسول يرصدونه، متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله مكانهم، قال لعلي: نم على فراشي،

وتسج ببردي هذا، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ينام في برده ذلك إذا نام.

وخرج رسول الله، فأخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم، وهو يتلو الآيات ﴿**يٓس* والقُرآنِ الحَكِيم***﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**فأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**﴾.(١)

ثم انصرف إلى حيث اراد أن يذهب وكان ذلك في صباح يوم الجمعة الثامن والعشرين من صفر سنة ١ هجرية.

وجعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، وقام علي من الفراش.

ونزل قوله تعالى: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا: ليثبتوك، أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين**﴾.(٢)

٣ ــ كيف كان تدبير الرسول للهجرة؟

كان أبو بكر ذا مال، وكان يستأذن رسول الله في الهجرة، فيقول له رسول الله:

لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحباً.

فطمع أبو بكر بأن يكون رسول الله هو صاحبه في الهجرة.

فابتاع راحلتين، وحبسهما في داره، يعلفهما إعداداً لذلك.

وكان رسول الله لا يخطئ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية.

---

(١) سورة يٓس الآيات ١ ــ ٩

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٠.

حتى إذا كان ذلك اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله في الهجرة والخروج من مكة، أتى رسول الله ــ كما تحدث عائشة بنت أبي بكر ــ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها.

فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله هذه الساعة إلا لأمر حدث.

ولما دخل رسول الله تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس عليه. فقال رسول الله: أخرج عني من عندك. وكان عنده عائشة وأسماء، فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟ فقال له ﷺ: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة.

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله.

قال ﷺ: الصحبة.

قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا.

فاستأجرا عبد الله بن أرقط، وكانت أمه من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً، يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، يرعاهما لميعادهما.

ولم يعلم أحد بهجرة رسول الله إلا علي وأبو بكر، وبيت أبي بكر.

وأما علي فقد أمره رسول الله أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته.

٤ — وفي الليلة الموعودة[1] خرج رسول الله من داره، وأمر أبا بكر، ليصحبه في هجرته، وخرجا من خوخة[2] لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بجبل ثور أسفل مكة[3]، فدخلاه، ومكثا فيه... وأصبح فتيان قريش الذين كانوا يرصدون رسول الله، فدخلوا الدار، فقام علي عن فراشه، فلما دنوا منه عرفوه، وقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، أَوَرقيباً كنت عليه، أمرتموه بالخروج فخرج، فانتهروه وضربوه وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعة ثم تركوه. وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر.

وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار، فاحتلبا وذبحا، ويعفى بالغنم على أثر عبد الله بن أبي بكر.

وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما وسميت ذات النطاقين[4].

وأقام رسول الله في الغار ثلاثة أيام بلياليها، ومعه أبو بكر.

وخرج رسول الله من الغار بعد ثلاث وذلك في صباح يوم الاثنين غرة ربيع الأول سنة ١ هـ، فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى الرسول قدم له أفضلهما، ثم قال: اركب فداك أبي وأمي، فقال رسول الله:

---

(١) هي ليلة السابع والعشرين من صفر من العام الثالث عشر للبعثة.

(٢) باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب.

(٣) جنوبي مكة على ثلاثة أميال منها.

(٤) أتت رسول الله وأبا بكر بسفرتهما، فلما أرادت أن تعلق السفرة إذ هي ليس فيها (عروة)، فشقت نطاقها اثنين، فعلقت السفرة بواحد، وانتطقت بالآخر، فسميت ذات النطاقين.

إني لا أركب بعيراً ليس لي، فقال أبو بكر: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، قال: لا، ولكن، ما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال: كذا وكذا، قال ﷺ: قد أخذتها به، قال: هي لك يا رسول الله: فركبها، وانطلقا، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما في الطريق، وكان خروجه من مكة إلى المدينة يوم الإثنين ٢٨ من صفر.

٥ ــ قالت أسماء: لما خرج رسول الله وأبو بكر أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل، فوقفوا على الباب، فخرجت إليهم، فقالوا أين أبوك، يا بنت أبي بكر؟ قلت: لا أدري والله أين أبي، فرفع أبو جهل ــ لعنه الله ــ يده، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي.. ثم انصرفوا، فمكثنا ثلاث ليال، وما ندري أين وجه رسول الله، ثم عرفنا أن وجهه إلى المدينة.

وكان أبو بكر حين أراد الخروج احتمل ماله كله معه، خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه، قالت أسماء: فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت له أسماء: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت كان يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، وقلت له: يا أبت ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. قالت أسماء: ولا والله ما ترك لنا أبو بكر شيئاً، ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

٦ ــ وسار الركب الكريم، رسول الله، والصديق، ومعهما عامر ابن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أرقط دليلهما.

وكانت قريش لما خرج رسول الله من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت فيه مائة ناقة لمن يرده عليهم.

قال سراقة بن مالك[1]: بينا أنا جالس في نادي قومي إذا أقبل رجل منا حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت ثلاثة رجال مروا علي آنفا، إني لأراهم محمداً وأصحابه، فأومأت إليه بعيني أن اسكت، وقلت: إنما هم بنو فلان ينشدون ضالة لهم، ثم مكثت قليلا وقمت، فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي فأخرج لي، ثم انطلقت فلبست لأمتي، وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة ناقة.

فركبت، فبينا فرسي يعدو عثر بي، فسقطت عنه، فقلت: ما هذا؟ فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فبينا فرسي تشتد بي عثر بي، فسقطت عنه، فقلت: ما هذا، فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره، فلما بدا لي القوم، ورأيتهم عثر بي فرسي، فسقطت عنه، وعرفت أنه قد منع مني، وأنه ظاهر، فناديت: أنا سراقة، انظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه.

فقال رسول الله لأبي بكر: قل وما تبتغي منا؟ فقال ذلك أبو بكر، فقلت: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك.

قال: اكتب له يا أبا بكر، فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خرقة، ثم ألقاه إليّ، فأخذته فجعلته في كنانتي.

ثم رجعت، فسكت، فلم أذكر شيئاً مما كان، حتى إذا كان فتح مكة وفرغ من حنين والطائف، خرجت ومعي الكتاب لألقاه، فلقيته بالجعرانة[2] فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني

---

(١) من جلة الصحابة، روى عنه ابن عباس وجابر والمسيب وطاووس ومات في أول خلافة عثمان عام ٢٤ هـ.

(٢) بين الطائف ومكة.

بالرماح ويقولون: إليك، إليك، ماذا تريد؟ فدنوت من رسول الله وهو على ناقته فرفعت يدي بالكتاب، ثم قلت: يا رسول الله، هذا كتابك لي، وأنا سراقة فقال رسول الله: « يوم وفاء وبر، ادنه » فدنوت منه، فأسلمت، ثم رجعت إلى قومي، فسقت إلى رسول الله صدقتي.

٧ ـــ سلك بهما عبد الله بن أرقط أسفل مكـة، ثم مضى بهما على الساحل أسفل من عسفان على مرحلتين من مكة.

ثم أمج وهي واد يأخذ من حرة بني سليم.
ثم قديدا وهي ماء بالحجاز بين مكة والمدينة.
ثم سلك بهما الخرار وهو موضع بينهما.
ثم ثنية المرة.
ثم لقفا ثنية بين مكة والمدينة.
ثم مدلجة لقف.
ثم مدلجة مجاح.
ثم مرجح مجاح.
ثم مرجح من ذي الغضوين.
ثم بطن ذي كشر بين مكة والمدينة،
ثم الجداجد.
ثم الأجرد.
ثم ذا سلم وهو جبل من جبال القبلية.
ثم بطن أعدا مدلجة تعهن، وهو ماء وموضع على ثلاثة أميـال من السفيا بين مكة والمدينة .

ثم العبابيد.
ثم القاحة على ثلاثة مراحل من المدينة قبل السقيا.
ثم العرج وهو عقبة بين مكة والمدينة، وهنا أبطأ عليهما بعض

إبلهما فحمل رسول الله رجل من أسلم، اسمه أوس بن حجر على جمل له إلى المدينة وبعث معه غلاماً يقال له مسعود بن هنيدة.

ثم ثنية العائر وهي عن يمين ركوبة عند العرج، وكان دليله ﷺ إليها عبد الله ذو البجادين.

ثم بطن رئم وهو على أربعة برد من المدينة.

ثم قباء في يوم الإثنين الثامن من ربيع الأول على الأصح حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل[1] فنزل ﷺ على بني عمرو بن عوف. وهذا اليوم يوافق العشرين من سبتمبر عام ٦٢٢ م.

٨ — وعن بعض الصحابة: لما سمعنا عن خروج رسول الله من مكة كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا، ننتظر رسول الله، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس، فإذا لم نجد ظلا دخلنا بيوتنا.

وقدم رسول الله حين دخلنا البيوت، وكان أول من رآه رجل من اليهود، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة[2]، هذا جدكم قد جاء.

فخرجنا إلى رسول الله، وهو في ظل نخلة: ومعه أبو بكر في مثل سنه وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله قبل ذلك، وما يعرفونه من أبي بكر، ولما زال الظل عن رسول الله قام أبو بكر، فأظله بردائه، فعرفنا رسول الله عند ذلك.

٩ — ونزل رسول الله على كلثوم[3] بن هدم أخي بني عمرو بن عوف.

---

(١) الصحيح أن ذلك في اليوم العشرين من سبتمبر عام ٦٢٢ ميلادية وهو الثامن من ربيع الأول.

(٢) يريد بهم الأنصار، سموا باسم جدة لهم.

(٣) توفي بعد قدوم رسول الله المدينة، فهو أول من مات من الأنصار بعد الهجرة، ثم مات بعده أسعد بن زرارة، وسعد بن خيثمة.

ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة لأنه كان عزبا لا أهل له، وكان منزله منزل العزاب من أصحاب رسول الله من المهاجرين.

ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف، أحد بني الحارث بن الخزرج بالسنح[1] وقيل: نزل على خارجة بن زيد.

وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس، فلما فرغ منها لحق برسول الله، فنزل معه على كلثوم بن هدم، ليلة أو ليلتين.

وأقام رسول الله بقباء، وفي صباح يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ١ هـ خرج منها إلى المدينة، فأدرك رسول الله الجمعة، في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانوناء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة[2]، ودخل المدينة في اليوم نفسه.

---

(١) إحدى محال المدينة.

(٢) كانت أول خطبة جمعة بالمدينة أي قباء على ما أرجح كما يروى هي: الحمد لله — أحمده، وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره وأعادي من يكفره..

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده. ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة، في فترة من الرسل، وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمن ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، ومن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصه فقد غوى، وفرط، وضل ضلالا بعيداً.

وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرا، وإن تقوى الله يوقي مقته، ويوقي عقوبته، وإن تقوى الله يبيض الوجوه، ويرضي الرب، ويرفع الدرجة. =

فأتاه عتبان بن مالك، وعباس بن عبادة في رجال من بني سالم ابن عوف، فقالوا:

يا رسول الله: أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة.

قال ﷺ:

خلوا سبيلها فإنها مأمورة، يريد ناقته.

فلما كان في دار بني بياضة تلقاه رجال منهم، فقالوا:

يا رسول الله، هلم إلينا، في العدد والعدة والمنعة.

قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

وعند دار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة في رجال من بني ساعدة فقالوا: يا رسول الله، هلم إلينا.

فقال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

فلما وصل دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه رجال منهم، فقالوا:

يا رسول الله، هلم إلينا، إلى العدد والعدة والمنعة.

قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

فلما وصل دار أخواله بني عدي من بني النجار، وكانت أم عبد المطلب منهم وهي سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم، اعترضه رجال منهم، فقالوا:

يا رسول الله، هلم إلى أخوالك، إلى العدد والعدة والمنعة.

قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة.

= ويقال: إن رسول الله ﷺ أقام بقباء أربعة عشر يوما حيث أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد بني في الإسلام، ووصول رسول إلى المدينة كان يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول على أصح الأداء ويذكر الطبري أن قدوم رسول الله المدينة يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول (٢/٩٥) والصحيح أن يوم الإثنين كان أول ربيع الأول والإثنين الذي بعده كان يوم ٨ وهو يوم وصول الرسول قباء.

فلما وصل دار مالك بن النجار بركت عند باب مسجده ﷺ وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار وكانا في حجر معاذ بن عفران، وهما سهل وسهيل ابنا عمرو ورسول الله واضع لناقته زمامها لا يثنيها به.

ثم قامت فسارت غير بعيد، ثم التفتت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها الأول، فبركت فيه، فنزل عنها رسول الله[1].

---

(١) وهكذا تمت الهجرة، ويقال إن وصول رسول الله إلى المدينة كان لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة المحمدية، وذلك يوافق ٢٨ من يونيو ٦٢٢ م.

ويروى عن ابن عمر قال: قال أهل المدينة لرسول الله: ادخل المدينة راشدا مهدياً، فدخلها وخرج الناس ينظرون إليه، كلما مر على قوم قالوا: يا رسول الله هاهنا، فقال: دعوها فإنها مأمورة، يعني الناقة، حتى بركت على باب أبي أيوب (٢٩١: ٢ سير أعلام النبلاء — للذهبي).

ومات أبو أيوب عام ٥٢ هـ، ودفن بأصل حصن القسطنطينية (٢٨٨ — ٢/٢٩٦ سير أعلام النبلاء).

وقد خص رسول الله أبا أيوب بالنزول عليه في بني النجار إلى أن بنيت له حجرة أم المؤمنين سودة وبني المسجد الشريف (٢/٢٨٨ سير أعلام النبلاء).

ومنذ ذلك اليوم أطلق على يثرب اسم المدينة أي مدينة النبي كما أطلق على ذلك اليوم اسم يوم الهجرة وقد مثل هذا اليوم مفترق طريق في حياة النبي وفي تاريخ الإسلام.

هذا التاريخ ٢٨ يونيو ٦٢٢ م أصبح نقطة انطلاق لأيام الإسلام، وتم اختياره كبداية حولية تاريخية جديدة، وتبعاً لهذه الحولية أصبحت سنة المسلم هي السنة القمرية، وهي تتألف من ستة شهور مدة كل منها ٢٩ يوماً وستة أخرى مدة كل منها ٣٠ يوما فيكون مجموع أيام السنة القمرية ٣٥٤ يوماً، كما يكون الفرق بين القرن الهجري والقرن الميلادي فوق ثلاث سنوات.

بناء المسجد النبوي بعد قدوم الرسول المدينة

فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله ﷺ، فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله حتى بنى مسجده ومساكنه.

وسأل ﷺ عن المربد: لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه فاتخذه مسجداً.

فأمر به رسول الله أن يبني مسجداً، وعمل فيه رسول الله، ومعه المهاجرون والانصار ودأبوا فيه.

ثم انتقل ﷺ من بيت أبي أيوب إلى مساكنه.

وحدث أبو أيوب: لما نزل عليّ رسول الله، في بيتي، نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو.

فقلت له: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فتكون في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل فقال ﷺ: « يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في أسفل البيت ».

وتم بناء المسجد الشريف وبناء مساكن أزواج رسول الله، واتخذها الرسول سكنا له ولأزواجه أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن.

ومات أسعد بن زرارة رحمه الله والمسجد يبنى. وكان نقيب بني النجار فصار رسول الله نقيب بني النجار، وهم أخواله[1].

(١) وعن أبي رهم أن أبا أيوب حدثه أن رسول الله نزل في بيتنا الأسفل وكنت في الغرفة، فأهريق ماء في الغرفة، فقمت أنا وأم أيوب نتتبع الماء بقطيفة لنا، ونزلت فقلت: يا رسول الله، لا ينبغي أن نكون فوقك، انتقل إلى الغرفة، فأمر بمتاعه فنقل، ومتاعه قليل (٢٩١: ٢ سير أعلام النبلاء للذهبي).

ومن هنا نعلم أن رسول الله أقام بالمدينة منذ قدمها شهر ربيع الأول وظل إلى صفر عام اثنين من الهجرة، حتى بنى مسجده ومساكنه واستجمع له إسلام الأنصار، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها إلا بعض بطون قلائل من الأوس، فإنهم أقاموا على شركهم.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن الهجرة، في سورة التوبة، فقال الله تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿ **بسم اللهِ الرحمنِ الرَّحيم،... إلّا تنصروهُ فقد نَصَرَهُ اللهُ إذْ أَخْرَجَهُ الذينَ كفرُوا ثانيَ آثنَيْنِ إِذْ هُما في الغارِ، إذ يقولُ لصاحِبِهِ: لا تَحزَنْ إنّ اللهَ مَعَنَا، فأنزلَ اللهُ سكينَتَهُ عليهِ وأَيَّدَهُ بجنودٍ لَمْ تَرَوْهَا وجعلَ كلمةَ الَّذِين كفروا السُّفلى وكلمةُ اللهِ هيَ العُلْيَا، واللهُ عزيزٌ حكيمٌ** ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٠.

ما بعد الهجرة

تدفق المهاجرين على المدينة

تلاحق المهاجرون إلى رسول الله في المدينة ولم يبق بمكة أحد إلا مفتون أو محبوس، ومن البيوت التي هاجر أهلوها جميعاً إلى المدينة: بنو مظعون، وبنو جحش، وبنو البكير. فإن دور هؤلاء بمكة أغلقت لهجرة جميع أهليها إلى المدينة.

أول خطبة خطبها رسول الله في المدينة(١)

مضت أول خطبة خطبها رسول الله في قباء، وهذه أول خطبة خطبها في المدينة. حمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

أما بعد:

أيها الناس، فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصفقن أحدكم، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ــ وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ــ: ألم يأتك رسولي فبلغك، وآتيتك مالا، وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك؟.

---

(١) يروي الطبري (٢/١١٥) نص خطبة أخرى خطبها الرسول في أول جمعة له.

فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم.

فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل. ومن لم يجده فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة إلى عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

خطبة ثانية

ثم خطب رسول الله مرة أخرى، فقال:
إن الحمد لله، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى.
قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس.

إنه أحسن الحديث وأبلغه.
أحبوا ما أحب الله
أحبوا الله من كل قلوبكم
ولا تملوا كلام الله وذكره
ولا تقس عنه قلوبكم

فإنه من كل ما يخلق الله، يختار ويصطفي، قد سماه الله خيرته

من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام.

فاعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده.

والسلام عليكم.

موادعة رسول الله لليهود

وكتب رسول الله كتابا ــ أو معاهدة ــ وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم، وشرط لهم.

ومما جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ: بين المؤمنين والمسلمين من قريش، ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم.

إنهم أمة واحدة من الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[١] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١) أي على الحال التي جاء الإسلام وهم عليها.

(٢) العاني: الأسير.

وبنو ساعدة على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا[١] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداه أو عقل.

ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ــ عطية ــ ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليهم جميعا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

---

(١) هو المثقل من الدين الكثير العيال.

وإن ذمة الله واحدة. يجبر عليهم أدناهم.

وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا.

وإن المؤمنين يبيء ــ يكف ــ بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.

وإنه من اعتبط ــ قتل ــ مؤمنا قتلا عن بينة، فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول.

وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا، ولا يؤويه.

وإنه من نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل. وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ ــ لا يهلك ــ إلا نفسه، وأهل بيته.

وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.
وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم واثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه.

وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

وان لبني الشيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البردون الإثم. وإن موالي بني ثعلبة كأنفسهم.

وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ.

وإنه لا ينحجر على ثأر جرح.
وإنه من فتك فنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم.
وإن الله على أبر هذا.
وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.
وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه. وإن النصر للمظلوم.
وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.
وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.
وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.
فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.
وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.
وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.
وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه.

وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار وقال لهم:

« تآخوا في الله، أخوين أخوين ».

وأخذ بيد علي فقال: هذا أخي.

وكان حمزة وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين.

وكان جعفر بن أبي طالب[1] ومعاذ بن جبل أخوين.

وكان أبو بكر وخارجة الخزرجي أخوين.

وكان عمر وعتبان بن مالك الخزرجي أخوين.

وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوان.

وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجي أخوان.

والزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود أخوان.

وسعيد بن زيد وأبي بن كعب أخوان.

وطلحة وكعب بن مالك أخوان.

وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر أخوين.

وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان[2] أخوان.

---

(١) كان جعفر آنذاك بأرض الحبشة.

(٢) ويقال: ثابت بن قيس الخزرجي خطيب رسول الله مكان حذيفة.

وأبو ذر والمنذر بن عمرو الخزرجي أخوان.
وسلمان الفارسي وأبو الدرداء الخزرجي أخوان.
وبلال وأبو رويحة الخثعمي أخوان.
وحاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوان.
وتمت هذه المؤاخاة الفريدة في تاريخ الإنسانية.
ولقد وجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف في المدينة:

أولاها ــ طائفة المهاجرين الفقراء، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم طلباً للحرية، وفراراً من الطغيان، فهاجروا من مكة إلى المدينة، فرادى وجماعات، بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام، وكان أغلبهم يعمل بمكة في التجارة يكسب منها الأموال الطائلة، ويصفهم الله تعالى في القرآن بقوله ﴿ **لِلفقراءِ المُهَاجِرين الذِين أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم وَأَمْوَالِهِم يبتغُونَ فَضْلاً منَ اللهِ ورضواناً، وينصُرُون اللهَ ورسولَهُ، أولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[1].

والطائفة الثانية ــ هم الذين أحبوا الرسول ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، من الأوس والخزرج سكان المدينة، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة، وكانوا ذوي عدد، ووصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[2].

---

(١) سورة الحشر الآية ٨.
(٢) سورة الحشر الآية ٩.

والطائفة الثالثة ـــ يهود المدينة، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج، وسخروا برسالة محمد وبأصحابه.

مجتمع كهذا المجتمع، فيه الفقراء والأغنياء، والمفسدون والمتآمرون لا بد فيه من بناء جديد، وحركة بعث وتجديد، فماذا فعل محمد صلوات الله عليه؟ بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد، وعقل حصيف، وسياسة حكيمة.

طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية، وتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم، في وثيقة سياسية بارعة، وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم، ليضمن سلامة الدولة وأمنها[1].

والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد في الثروة، بين الأغنياء والفقراء، بين الأنصار والمهاجرين، فآخى بينهم إخاء فريداً في تاريخ الإنسانية، إخاء مودة وتعاون وإخلاص، فكان يأخذ بيدي المهاجري والأنصاري ويقول: « تآخيا في الله أخوين »، قال ابن هشام: آخى رسول الله بين المهاجري والأنصاري فقال: تآخوا في الله أخوين.

وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم، لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف ما يملكون من ثروة وعقار وأرض، دون تردد أو إبطاء.

وجدت مشكلة أخرى، فقد كان الأنصار أصحاب زراعة، بينما المهاجرون أهل تجارة لا عهد لهم بسواها من الحرف، فماذا يفعلون بالأرض التي أصابتهم؟

---

(١) يقول هيكل في حياة « حياة محمد » ص ٢٢٧: قررت هذه المعاهدة مع اليهود في يثرب لهم حرية العقيدة والرأي والمال، وهي فتح في الحياة السياسية والمدنية في عالم يومئذ.

هنا تجلت عظمة إيمان الأنصار، وجلال أخلاقهم، وإيثارهم على أنفسهم، فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم، ويكفوهم العمل والمؤونة، تعاوناً منهم في بناء الأمة والمجتمع.

ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين في الزراعة، كأبي بكر وعلي وسواهم. وعمل آخرون في التجارة ونجحوا فيها كعبد الرحمن ابن عوف الذي عرض أخوه الأنصاري سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فأبى، وطلب إليه أن يدله على السوق فتاجر وربح، ولما توفي وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله: إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك، فقال كعب: سبحان الله، ولم تخافون عليه؟ كسب طيباً، وأنفق طيباً، وترك طيباً.

ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذي عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر في المدينة، بل خص المهاجرين ببعض الغنائم كأموال بني النضير، فلم يعط الأنصار منها شيئاً، إلا ثلاثة نفر محتاجين، وقال لهم: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة، فقال الأنصار بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها...

وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين، حتى قالوا فيهم: ما رأينا مثل أنصار المدينة، لقد أحسنوا مواساتنا، وبذلوا الكثير، وأشركونا في المهنة، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله.

الأذان

١ ــ اطمأن رسول الله بالمدينة، واجتمع إليه أخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار وبذلك استحكم أمر الإسلام، فشرعت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان الأنصار هم الذين تبوأوا الدار والإيمان.

٢ ــ وكان الناس يجتمعون إلى رسول الله للصلاة في مواقيتها بغير دعوة.

وهم رسول الله حين قدم المدينة أن يتخذ بوقا كبوق اليهود، ولكن كره ذلك. ثم فكر في اتخاذ الناقوس كالنصارى، لكنه عدل عن ذلك.

وأخذ رسول الله يشاور صحابته في ذلك.

فجاءه عبد الله بن زيد الخزرجي، يقول: إنه رأى في نومه النداء للصلاة، أي الاذان، قال: يا رسول الله، طاف بي هذه الليلة طائف، مرَّ بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوسا في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟

قلت: وما هو؟

قال: تقول:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

حي على الصلاة، حي على الصلاة

حي على الفلاح، حي على الفلاح

الله أكبر، الله أكبر

لا إله إلا الله

فقال ﷺ لعبد الله بن زيد: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه، فليؤذن بها، فإنه أندى صوتا منك.

فلما سمع عمر الأذان وهو في بيته، خرج إلى رسول الله يجر رداءه، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى.

فقال له رسول الله: فلله الحمد.

وقيل: رأى عمر في المنام: أن لا تجعلوا الناقوس، بل أذنوا للصلاة، فذهب إلى النبي ليخبره بالذي رأى، وقد جاء النبي الوحي بالأذان، فما راع عمر إلا بلال[1] يؤذن، فقال رسول الله لعمر حين أخبره بذلك: قد سبقك بذلك الوحي.

وجاء بعض أحبار اليهود إلى رسول الله، وقالوا له: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله، فنزل قوله، تعالى: ﴿ **وقالت اليهود: عزير ابن الله** ﴾[2].

(١) عاش بضعا وستين سنة، وتوفي عام ٢٠ هـ أو ٢١ هو (راجع ١: ٢٥١ ـ ٢٥٩ سير أعلام النبلاء للذهبي).

(٢) سورة التوبة الآية ٢١.

٣ ــ فلما اطمأنت برسول الله داره، وأظهر الله بها دينه، سره بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من المؤمنين بالإسلام، قال أبو قيس بن قيس صرمة بن أبي أنس الأنصاري[1] من قصيدة له:

سبحوا الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ... ليس ما قال ربنا بضلال

وقال كذلك أيضاً يحدث عن رسول الله وعن الأنصار:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوي، ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وألفى صديقا واطمأنت به النوى ... وكان لنا عونا من الله باديا
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا

٤ ــ وحولت القبلة في شعبان من السنة الثانية من هجرة رسول الله ﷺ.

٥ ــ وكان عبد الله بن الزبير أول مولود في الإسلام بعد الهجرة، وميلاده في العام الأول من هجرة رسول الله.

(١) كان ممن ترهب في الجاهلية، وفارق الأوثان، ودخل بيتا فاتخذه مسجدا، وقال: أعبد رب إبراهيم، حين فارق الأوثان وكرهها. فلما قدم رسول الله المدينة أسلم وهو شيخ كبير، وكان شعره في توحيد الله وتعظيمه، في الجاهلية، وفي الحكمة.. وهو من بني النجار.

اليهود يظهرون العداوة للاسلام

١ ــ رأت اليهود ما أصاب الإسلام في المدينة من تمكين فنصبوا هم وأحبارهم لرسول الله العداوة بغياً وحسداً.

ومال إليهم في عداوتهم للإسلام رجال من الأوس والخزرج كانوا قد ظلوا على جاهليتهم وشركهم، وأظهروا للإسلام نفاقاً وعصمة لأنفسهم.

وأخذ أحبار اليهود يسألون في تعجيز رسول الله، ويتعنتونه، ويأتونه باللبس، ليلبسوا بين الحق والباطل.

فمنهم حيي بن أخطب، وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن أبي الحقيق، وسلام بن الربيع، والربيع بن الربيع ابن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وعبد الله بن صوري الأعور الذي لم يكن بالحجاز أحد أعلم بالتوراة منه، ورفاعة بن قيس، ورافع ابن أبي رافع، ورافع بن خارجة، وعبد الله بن سلام، وكان حبرهم وأعلمهم، ووهب بن يهوذا، ولبيد بن أعصم.. وسواهم من الأحبار وأهل الشر والعداوة لرسول الله وأصحابه، والعداوة للاسلام والعمل لإطفاء نوره.

٢ ــ وقد كان عبد الله بن سلام[1] يقاوم ما يصنعه اليهود أهل ملته.

وكان حبراً عالماً، قال: لما سمعت برسول الله عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كان نترقب له، فكنت مسراً لذلك، حتى قدم رسول الله المدينة.

فلما نزل رسول الله بقباء، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه.
قال ابن سلام: وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله كبرت.

فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت.

فقلت لها: أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه بعث بما بعث به.

فقالت: أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة.
فقلت لها: نعم.
فقالت: فذاك إذا.

ثم خرجت إلى رسول الله، فأسلمت ورجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامي من يهود.

ثم جئت رسول الله فقلت: يا رسول الله أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عن يهود، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا إسلامي، فإنهم إن علموا به عابوني.

---

(١) راجع فضائل عبد الله بن سلام في مسلم ٢: ٢١٠ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

فأدخلني رسول الله في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم قال لهم: أي رجل ابن سلام فيكم؟

قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا.

فخرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأومن به وأصدقه وأعرفه.

فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي.

وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة، فحسن إسلامها.

وقالت الأحبار: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره، وقد عاش ابن سلام حتى مات عام ٤٣ هـ [(١)].

٣ ــ وأما مخيريق، فكان حبرا عالماً، وكان رجلا غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله بصفته، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل ذلك حتى كان يوم أحد، وكان يوم أحد يوم السبت.

فقال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون إن نصر محمد عليكم لحق وأخذ سلاحه، وقاتل حتى قتل.

وحدثت صفية بنت حيي بن أخطب قالت:

لما قدم رسول الله المدينة، ونزل بقباء، عدا عليه أبي حيي، وعمي أبو ياسر، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا مكدودين

---

(١) ٢: ٢٩٦ ــ ٣٠٥ سير أعلام النبلاء.

كسلانين يمشيان الهوينى، فوالله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغنم، وسمعت عمي وهو يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما بقي في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.

٤ ــ وكان ممن دخل في الإسلام مع المسلمين، وأظهر الدين وهو منافق، من أحبار اليهود: سعد بن حنيف، ونعمان بن أوفى، وأخوه عثمان، وزيد بن اللصيت.

وزيد هذا هو الذي قاتل عمر بسوق بني قينقاع. وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله، وجاءه الخبر بما قال عدو الله في رحله، ودل الله رسول ﷺ على ناقته.

إن قائلا قال: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، ولا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله. وقد دلني الله عليها، فهي في هذا الشعب[1] قد حبستها شجرة بزمامها، فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله، وكما وصف.

وكان من هؤلاء كذلك: رافع بن حريملة، ورفاعة بن زيد، وقد أهلكهما الله عز وجل، وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد: يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وقال رافع للرسول: يا محمد، إن كنت رسولا من الله فليكلمنا الله حتى نسمع كلامه.

٥ ــ وكان من أحبار اليهود ممن ناصبوا رسول الله العداء: أبو ياسر بن أخطب: وأخوه حيي بن أخطب، وكانا من أشد اليهود للعرب

(١) هو الطريق في الجبل.

حسداً، إذ خصهم الله تعالى برسول الله. وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام.

مر أبو ياسر هذا برسول الله، وهو يتلو فاتحة البقرة: ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه، فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود، فقال لهم: لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه « ألم ».

فقالوا: أأنت سمعته.
قال: نعم.

فمشى حيي في أولئك النفر من اليهود إلى الرسول فقالوا له: يا محمد، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك: ألم ذلك الكتاب؟

فقال رسول الله: بلى.
فقالوا: أجاءك بها جبريل من عند الله؟
قال: نعم
قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بَيَّنَ لنبي منهم ما مدة ملكه غيرك.

فقال حيي لمن معه: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون، أفتدخلون في دين إنما مدة ملكه إحدى وسبعون سنة؟ ــ ثم أقبل على رسول الله، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟

قال: ﷺ: نعم.
قال: ماذا؟
قال: ألمص.
قال: والله هذه أثقل وأطول، إحدى وستون ومائة ستة، هل مع هذا يا محمد غيره! قال: نعم، ألر.

قال: هذه أثقل وأطول: إحدى وثلاثون ومائتان، هل مع هذا غيره يا محمد؟

قال: نعم، المر.

قال: هذه أثقل وأطول، إحدى وسبعون ومائتان.

ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلا أعطيت أم كثيراً

ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حيي: ما يدريكم، لعله قد جمع هذا كله لمحمد.

فقالوا: لقد تشابه علينا أمره.

٦ ــ وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

فقال لهم معاذ بن جبل: اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته.

فقال أحد اليهود: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم.

٧ ــ ولما قدم نصارى نجران على رسول الله أتتهم أحبار اليهود، فتنازعوا عند رسول الله.

فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل.

وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ لَيْسَتِ النصَارى على شَيءٍ وَقَالَتِ النصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلى شيءٍ ﴾[1].

وقالت الأحبار: أما كان إبراهيم إلا يهودياً؟

وقالت النصارى من أهل نجران: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً. فأنزل الله تعالى: ﴿ ما كانَ إبراهيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانياً ﴾[2].

وقال عبد الله بن صوري الأعور لرسول الله: ما الهدي إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد: وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾[3].

وكان في وفد نصارى نجران ستون راكبا، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، ومنهم رؤساؤهم: العاقب، والسيد، وأبو حارثة بن علقمة صاحب مدارسهم، وكان أبو حارثة هذا مقدما عند ملوك الروم من أهل النصرانية، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فقال رجل من الوفد وقد عثرت بغلة أبي حارثة: تعس الأبعد، يريد رسول الله، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست، قال: ولم يا أخي؟ قال والله إنه للنبي الذي كنا ننتظر، فقيل له: وما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال أبو حارثة: ما صنع بنا هؤلاء القوم شرفونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت ـــ أي آمنت بمحمد ـــ نزعوا منا كل ما ترى.

فدخلوا عليه المسجد حين صلى رسول الله العصر، ولهم منظر

(١) سورة البقرة آية ١١٣.
(٢) سورة آل عمران آية ٦٧.
(٣) سورة البقرة آية ١٣٥.

وروعة، وحانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله يصلون، فقال رسول الله: دعوهم، فصلوا إلى المشرق، فأخذوا يجادلون رسول الله في أمر المسيح وأمه، فنزل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، فدعاهم رسول الله إلى الملاعنة ﴿ **تَعَالَوْا نَدْعُ أبناءَنَا وَأبنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وأَنْفُسَنَا وأنفُسَكُم، ثم نَبْتَهِلْ، فَنَجْعَل لعنةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ** ﴾[1] فنكصوا، وقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضا، فقال رسول الله: ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين، فبعث معهم أبا عبيدة.

٨ ــ ولما حولت القبلة من الشام إلى الكعبة في شهر شعبان، على رأس سبعة عشر شهراً من هجرة رسول الله إلى المدينة، أتى رسول الله رفاعة بن قيس وكعب بن الأشرف ورافع بن أبي رافع والربيع بن الربيع وغيرهم.

فقالوا: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك.

فأنزل الله تعالى:

﴿ **سَيقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ الناسِ مَا وَلاَّهُم عَنْ قِبْلَتِهِمْ التي كانُوا عَلَيْهَا قُلْ: للهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران آية ٦١

(٢) سورة البقرة آية ١٤٢.

٩ ـــ ودعا رسول الله اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام، ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله ونقمته، فقال له رافع بن خارجة: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيرا منا.

ولما أصاب رسول الله قريشاً يوم بدر جمع رسول الله اليهود في سوق بني قينقاع فقال:

يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً. فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغمارا، لا يعرفون القتال. إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا.

١٠ ـــ ودخل رسول الله بيت المدارس[١] على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله.

فقال له النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد: وعلى أي دين أنت يا محمد؟ قال: بل على ملة إبراهيم ودينه.

قالا: فإن إبراهيم كان يهوديا.
فقال لهما رسول الله : فهلُمَّا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه.

واجتمع الأحبار من اليهود، والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله، فدعاهم إلى الإسلام، فقال أبو نافع القرظي: أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم، وقال رجل من أهل نجران نصراني: أَوَذَاكَ تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله: « معاذ الله » أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك

(١) بيت عبادة اليهود.

بعثني الله ولا أمرني، فأنزل الله تعالي قوله: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُبُوَّةَ، ثُمَّ يَقُولُ للنَاس: كُونُوا عِبَادا لي مِنْ دونِ اللهِ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيينَ،بما كُنْتُم تَعْلَمُونَ الكِتَابَ وَبِما كُنْتم تَدْرُسونَ ﴾[1] والربانيون: العلماء الفقهاء السادة.

١١ ــ ومر شاس بن قيس ــ وكان شيخا عظيم الكفر، شديد الحسد للمسلمين ــ على نفر من أصحاب رسول الله، من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم: يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال:

قد اجتمع ملأ بني قيلة[2] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من اليهود كان معه، فقال له: أعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث[3]، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل الشاب ذلك.

فتنازع القوم، وتفاخروا، وغضب الفريقان جميعاً، ورددوا: السلاح السلاح، فبلغ ذلك رسول الله فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين وقال:

يا معشر المسلمين، الله، الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم.

---

(١) سورة آل عمران آية ٧٩.

(٢) النملأ: الجماعة من الناس. قيلة: أم الأنصار.

(٣) كان بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس، وكان زعيم الأوس حصير الأشهلي، وزعيم الخزرج عمر بن النعمان البياضي. فقتلا جميعا.

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم.. فبكوا، وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين، وأنزل الله تعالى على رسوله الكريم:

﴿ يَا أَيُّها الذينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كافِرينَ ﴾[1].

١٢ ـــ ودخل أبو بكر بيت المدارس على اليهود، فوجد منهم ناساً كثيراً، قد اجتمعوا إلى رجل من علمائهم، هو فنحاص، فقال له: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدا لرسول الله. قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل. فرد عليه فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر. وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما اعطانا الربا.

فغضب أبو بكر، وضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال له: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت رأسك أي عدو الله، فشكا فنحاص إلى رسول الله، وقال: يا محمد، انظر ما صنع بي صاحبك؟.

فقال رسول الله لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولا عظيما، إنه زعم أن الله فقير إليهم وأنهم عنه أغنياء، فجحد ذلك اليهودي، فأنزل الله: **﴿ لَقَدْ**

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٠

سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِين قالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ ﴾[1].

١٣ ــ وكلم رسول الله رؤساء من أحبارهم، ومنهم عبد الله بن صوري الأعور، وكعب بن أسد، فقال لهم:

يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق.

قالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، فجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿ يا أَيُّها الذِين اوتوا الكِتَابَ آمِنُوا بما نَزَّلنا مُصَدِقاً لِمَا مَعَكُم، مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِها، أَوْ نَلْعَنَهُم كما لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ، وكانَ أَمرُ اللهِ مَفعُولا ﴾[2].

وقال أحبار من اليهود لقريش حين سألهم أديننا خير أم دين محمد؟ بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله تعالى فيهم: **﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بالجِبْتِ والطَاغُوتِ ﴾**[3].

ودخل جماعة منهم على رسول الله، فقال لهم: أما والله إنكم لتعلمون أني رسول الله إليكم من الله؟ ما نعلمه وما نشهد عليه، فنزل قوله تعالى: **﴿ ولكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً ﴾**[4].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨١

(٢) سورة النساء آية ٤٧

(٣) سورة النساء آية ٥١. الجبت: ما عبد من دون الله. والطاغوت: كل ما أضل عن الحق.

(٤) سورة النساء آية ١٦٦.

١٤ ــ وبلغ بهم الأمر أن حاولوا قتل الرسول، لما خرج إلى بني النضير، يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، فقال بعضهم لبعض: لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن، فمن يظهر على هذا البيت فيرميه بصخرة، فيريحنا منه، فقال رجل منهم: أنا، فنزل الوحي على الرسول بالأمر، فانصرف عنهم، فنزل قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّها الذِين آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكم إذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إلَيْكُم أَيْدِيَهُم، فَكَفَّ أَيْدِيَهُم عَنْكُمْ ﴾(١).

وكانوا يقولون كقول النصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه فنزل قوله تعالى:

﴿ وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾(٢).

ودعاهم رسول الله إلى الإسلام، ورغبهم فيه وحذرهم، فأبوا وكفروا بما جاءهم به، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حريملة: ما قلنا لكم هذا، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده فنزل قوله تعالى: **﴿ يَا أَهْلَ الكِتَاب، قَدْ جَاءَكُم رَسُولُنَا، يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ من الرُّسُل أَنْ تَقُولُوا، ما جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾**(٣).

---

(١) سورة المائدة آية ١١.

(٢) سورة المائدة آية ١٨.

(٣) سورة المائدة آية ١٩.

١٥ ــ واجتمع أحبار لهم في بيت المدارس، بعد الهجرة، وقد زنى رجل منهم بعد إحصانه بامرأة من اليهود محصنة، فقالوا ابعثوا بها إلى محمد، فسلوه: كيف الحكم فيها، وولوه الحكم عليها.

فأتوه فقالوا: يا محمد، هذا رجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت فاحكم فيهما، فقد وليناك الحكم.

فمشى رسول الله حتى أتى أحبارهم، فقال: يا معشر يهود، أخرجوا إليّ علماءكم، ففعلوا، فقال لعبد الله بن صوري:

يا ابن صوري، أنشدك الله وأذكرك بأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن الله حكم فيمن زنى بعد إحصانه بالرجم في التوراة! قال: اللهم نعم أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك لنبي مرسل، ولكنهم يحسدونك فأمر رسول الله بهما فرجما عند باب مسجده ثم كفر بعد ذلك ابن صوري، وجحد نبوة رسول الله.

وقال عبد الله بن سلام: هذه يا نبي الله آية الرجم في التوراة، ولكنهم يخفونها، فقال لهم رسول الله:

ويحكم، يا معشر يهود، ما دعاكم إلى ترك حكم الله وهو بأيديكم؟
قالوا: قد كان فينا يعمل به، حتى زنى رجل منا ــ بعد احصانه ــ من بيوت الملوك وأهل الشرف، فمنعه الملك من الرجم ثم زنى رجل بعده، فأراد أن يرجمه فقالوا: لا والله. حتى ترجم فلانا فأماتوا ذكر الرجم والعمل به، فقال رسول الله:
فأنا أول من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به[١].

(١) ويقال: إن أول من رجم في الزنا ربيعة بن حذار الأسدي (ص ٥٥ الأوائل لأبي هلال).

١٦ ــ وقال بعض أحبارهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه، فإنما هو بشر، فأتوه، فقالوا له: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم. وإنا إن اتبعناك اتبعتك يهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم ونؤمن بك ونصدقك؟ فأبى ذلك رسول الله، فأنزل الله فيهم: ﴿ **وَأَنِ أَحْكُم بَيْنَهُم بما أَنْزَلَ اللهُ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾(١).

وأتى رسول الله بعض أحبارهم فقالوا: يا محمد أما تعلم مع الله إلها غيره؟ فقال رسول الله: « الله لا إله إلا هو، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو »، فأنزل الله تعالى:

﴿ **أئِنَّكُم لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلهةً أُخْرى؟ قُلْ: لاَ أَشْهَدُ، قُلْ: إنَّما هُوَ إلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾(٢).

١٧ ــ وكان رجال منهم قد أظهروا الإسلام ونافقوا: كرفاعة بن زيد، وسويد بن الحارث، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فأنزل الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكم هُزُواً ولَعِباً** ﴾(٣).

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد، فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم، ويستهزئون بدينهم، فاجتمع في المسجد يوما ناس منهم، فأمر بهم رسول الله فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفاً، وأنزل الله فيهم صدر سورة البقرة إلى الآية المائة منها.

---

(١) سورة المائدة آية ٤٩.

(٢) سورة الانعام آية ١٩.

(٣) سورة المائدة آية ٥٧.

وقال بعض منافقيهم: لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمر، فرفع ذلك لرسول الله، فأنكر الذي قال ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ **يَحْلِفُونَ باللهِ مَا قَالُوا، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِم** ﴾(1).

١٨ ـ وقال بعض أحبارهم لرسول الله: أحق يا محمد بأن هذا الذي جئت به الحق من عند الله؟ فإنا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة؟

فقال لهم رسول الله:
أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به.

فقالوا: يا محمد، أما يعلمك هذا إنس ولا جن.
فقال لهم رسول الله:
أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وإني لرسول الله، تجدون ذلك مكتوباً في التوراة.

فقالوا: يا محمد، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه ونعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به، فنزل ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يأتُوا بِمِثْلِ هَذَا القرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾(2).

١٩ ـ ولما قدم رسول الله المدينة كان سيد أهلها عبد الله بن أبي بن سلول، لا يختلف عليه في شرفه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيره، حتى جاء الإسلام،

(١) سورة التوبة آية ٧٤.
(٢) سورة الاسراء آية ٨٨.

ومعه في الأوس رجل هو في قومه شريف مطاع، وهو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي، وكان قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح فكان يقال له: الراهب.

فشقيا بشرفهما وحسدهما لرسول الله.

فأما ابن أبي فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام حقد، ورأى أن رسول الله قد سلبه ملكا، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الاسلام دخل فيه كارها على نفاق وحقد.

وأما أبو عامر الأوسي[1] فأبى إلا الكفر والفراق لقومه، فخرج من المدينة إلى مكة في خمسين رجلا، وقيل: في بضعة عشر رجلا، مفارقاً للاسلام ولرسول الله، فقال رسول الله: « لا تقولوا الراهب، ولكن قولوا الفاسق » وكان أبو عامر وهو في المدينة أتى رسول الله، فقال: ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال له رسول الله: جئت بالحنيفية دين ابراهيم، قال: فأنا عليها، قال له رسول الله: إنك لست عليها، قال: « بلى، إنك، أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها »، قال: ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية.

وأقام أبو عامر في مكة، فلما افتتحها رسول الله خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، فمات بها طريداً غريباً وحيداً، وسوف يأتي أنه كان أول المحاربين لرسول الله في أحد.

وكان قد خرج معه علقمة بن علاثة، وكنانة بن عبد ياليل فلما مات أبو عامر اختصما في ميراثه إلى قيصر صاحب الروم، فقال قيصر:

---

(١) راجع ص ٢٦٠ من الكتاب.

يرث أهل المدر ــ البادية ــ المدر، ويرث أهل الوبر ــ الحاضرة ــ أهل الوبر، فورثه كنانة دون علقمة.

٢٠ ــ وركب رسول الله إلى سعد بن عبادة يعوده، وأردف أسامة ابن زيد خلفه فمر رسول الله بابن أبي وهو في ظل أطمه ــ حصنه ــ وحوله رجال من قومه.

فلما رآه رسول الله نزل، فسلم، فجلس قليلا، وتلا القرآن، ودعا إلى الله وذكر به، وحذر وبشر وأنذر، حتى إذا فرغ رسول الله، قال ابن أبي:

يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقاً فاجلس في بيتك، فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تأته في مجلسه بما يكره منه فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين: بلى، فاغشنا به وائتنا به في مجالسنا، ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نحب ومما أكرمنا الله به، وهدانا له.

وقام رسول الله فدخل على سعد، وفي وجهه أثر ما قاله ابن أبي، فقال: والله يا رسول الله إني لأرى في وجهك شيئاً، لكانك سمعت شيئاً تكرهه، فقال: أجل، وأخبره بما قال ابن أبي، فقال سعد: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، وإنه ليرى أن قد سلبته ملكا.

٢١ ــ وقد كان اليهود من قبل عوناً للمشركين في مكة على رسول الله وأصحابه وهم الذين قالوا لوفد المشركين: سلوا محمداً عن ثلاثة إن أجابكم عنها فهو نبي وإلا فلا، وكان من هذه الثلاثة الأمور: الروح، وتقول التوراة عن الروح: في البدء كانت الكلمة، وكان روح الله يرف على وجه الماء.

ذكر من اعتل بالمدينة من أصحاب رسول الله

١ ــ لما قدم رسول الله المدينة، يوم الإثنين، حين اشتد الضحاء، وكادت الشمس تعتدل، لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، على رواية، وهو يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة، بعد أن بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة، أقام بها، حتى نهاية العام والمحرم من العام الثاني، ثم خرج غازياً بعد ذلك في صفر على رأس اثني عشر شهراً من الهجرة.

٢ ــ ولما قدم ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى. فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه. ومرض أبو بكر ومن معه من الصحابة فيها، وقال رسول الله عنهم: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى.

٣ ــ ودعا رسول الله ربه للمدينة أن يجعلها دار سلام وخير، وقال: اللهم حبب إلينا المدينة، كما حببت مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيعة[١].

(١) هي الجحفة.

ولقد جهد المسلمون قبل ذلك مرضا في المدينة، حتى ما كانوا يصلون إلا وهم قعود، وصرف الله تعالى ذلك عن نبيه.

فلما دعا رسول الله للمدينة، باركها الله، وصارت أحب بقعة من بقاع الإسلام إلى قلب كل مسلم.

تحويل القبلة

وحولت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من هجرة رسول الله، فصارت إلى الكعبة والبيت الحرام، بعد أن كانت إلى بيت المقدس وبذلك تمت كلمة الله، وقوي أمر الدين.

غزوات رسول الله ﷺ
من عام ٢ ــ حتى عام ٨ هـ

١ ــ غزوة ودان(١) أو الأبواء
وهي في النصف من صفر من السنة الثانية للهجرة

أولى غزواته عليه السلام، ودان: قرية بين مكة والمدينة من ناحية الفرع، بينها وبين الأبواء نحو ثمانية أميال، من الجحفة، وفيها قبائل ضمرة وغفار وكنانة، والأبواء: قرية من أعمال الفرع، وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ... بلغ رسول الله أن جمعاً من قريش خرجوا لحرب رسول الله.

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى ودان، وعين سعد بن عبادة نائباً له على المدينة، وقيل: عبادة بن الصامت، وأراد قريشاً وبني ضمرة ابن بكر من كنانة، فوادعته بنو ضمرة، وكان سيدهم في زمانه ذلك مخشي بن عمرو الضمري. ثم رجع الرسول إلى المدينة.

---

(١) قاد رسول الله ﷺ ٢٨ غزوة خلال سبع سنين بعد هجرته إلى المدينة، فكانت « غزوة ودان » أول غزوة قادها بنفسه في صفر من السنة الثانية للهجرة، وكانت غزوة تبوك آخر غزواته في رجب من السنة الثامنة. وقد نشب القتال بينه وبين أعداء الإسلام من مشركين ويهود في تسع غزوات في بدر ــ أحد ــ الخندق ــ قريظة ــ المصطلق ــ خيبر ــ فتح مكة ــ حنين ــ الطائف ــ وفر المشركون في تسع عشرة غزوة بدون قتال.

٢ ـ غزوة ثنية المرة
في ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة

مضى ذكر ثنية المرة في وصف طريق هجرته ﷺ إلى المدينة.

بعث رسول الله من مقامه بالمدينة عبيدة بن الحارث بن المطلب ابن عبد مناف في ستين أو ثمانين من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد. وكانت راية عبيدة أول راية عقدها الرسول في الإسلام لأحد من المسلمين.

فسار عبيدة حتى بلغ ماء بالحجار بأسفل ثنية المرة، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش، عليه منهم عكرمة بن أبي جهل، فلم يكن بينهم قتال. إلا أن سعد بن أبي وقاص رمي يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمي به الإسلام، ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية.

وفر من المشركين إلى المسلمين:

١ ـ المقداد بن عمرو البهراني حليف بني زهرة.

٢ ـ عتبة بن غزوان المازني.

إذ كانا مسلمين، ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار، وعاد المسلمون إلى المدينة.

٣ ـ غزوة حمزة إلى شاطئ البحر الأحمر
ربيع الأول عام ٢ هـ

بعث الرسول في مقامه بالمدينة عمه حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص[1]، وهي بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام.

---

(١) هو من ناحية ذي المروة على ساحل البحر.

وكان حمزة على رأس ثلاثين راكباً من المهاجرين، لبس فيهم من الأنصار أحد.

ولقي حمزة أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، فانصرف بعض القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال.

ويقال: كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله لأحد من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معا فشبه ذلك على الناس.

٤ ــ غزوة العشيرة
وهي في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة

غزوة غزاها رسول الله واستعمل على المدينة أبا سلمة عبد الأسد، وخرج يريد قريشاً.

فمر صلوات الله عليه بنقب بني دينار.

ثم فيفاء الخبار(١)، ونزل فيها فصلى، فبنى في هذا الموضع مسجده ﷺ.

ثم الخلائق(٢).

ثم شعبة عبد الله، والشعبة: الطريق الضيقة، واستقى له من بئر اسمها « المشترب »، وصنع له طعام.

ثم يليل(٣)، واستقى هناك من بئر « الضبوعة ».

---

(١) اسم موضع في نواحي العقيق بالمدينة.

(٢) موضع فيه نخل وزروع وقصور لقوم من آل الزبير.

(٣) قرية قرب وادي الصفراء من أعمال المدينة.

ثم فرش ملل[1].

ثم صخيرات اليمام.

ثم نزل العشيرة من بطن ينبع.

وأقام ﷺ في العشيرة جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة.

ثم رجع إلى المدينة.

ولم يلق ﷺ كيداً.

وكتب صلى الله عليه كتاباً لبني ضمرة، جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد رسول الله لبني ضمرة، بأنهم آمنون على أنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم، ألا يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة، وأن النبي إذا دعاهم لنصر أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله.

وفي هذه الغزوة، نام علي هو وعمار بن ياسر في نخل لبني مدلج، فأيقظه رسول الله وقال له: « ما لك يا أبا تراب ».

٥ ــ غزوة بواط[2]
في ربيع الآخر سنة ٢ هـ

غزا رسول الله ﷺ هذه الغزوة، يريد قريشاً.

وولى على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون.

وخرج رسول الله حتى بلغ بواط من ناحية رضوى[3]، فلم يلق كيداً ثم رجع رسول الله إلى المدينة.

---

(١) موضع على بعد عشرين ميلاً من المدينة.

(٢) جبل من جبال جهينة بقرب ينبع على أربعة برد من المدينة.

(٣) جبل بالمدينة، أو هو جبل على يوم من ينبع وأربعة أيام من المدينة.

٦ ــ غزوة سعد بن أبي وقاص
في السنة الثانية

بعث رسول الله سعد بن أبي وقاص. في ثمانية رهط من المهاجرين.
فخرج سعد حتى أتى موضعاً من أرض الحجاز، يقال له الخرار.
ثم رجع ولم يلق كيداً.

٧ ــ غزوة سفوان من ناحية بدر وهي غزوة بدر الأولى
جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة

أغار كرز بن جابر الفهري على سرح[1] المدينة.
فخرج رسول الله في طلبه.
واستعمل على المدينة زيد بن حارثة.
وبلغ رسول الله سفوان.
وهرب كرز.
ورجع رسول الله إلى المدينة.

٨ ــ غزوة عبد الله بن جحش
في السنة الثانية للهجرة في رجب

بعث رسول الله عبد الله بن جحش في السنة الثانية للهجرة في رجب.
وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد.

(١) السرح: الإبل تسرح بالغداة للرعي.

وكتب له كتاباً، وأمره رسول الله ألا ينظر فيه، حتى يسير يومين، فينظر حينئذ فيه، ويمضي لما أمره به الرسول ولا يستكره من أصحاب رسول الله أحداً.

وكان في جيش عبد الله بن جحش من المهاجرين: أبو حذيفة ابن عتبة ابن ربيعة ــ وعتبة بن غزوان ــ وسعد بن أبي وقاص ــ وسهيل بن بيضاء وغيرهم.

سار عبد الله بن جحش يومين، ثم فتح الكتاب، فإذا فيه:

إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم.

فقال عبد الله: سمعاً وطاعة.

وقال لأصحابه: قد أمرني رسول الله أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً، حتى آتيه منهم بخير، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله.

فمضى عبد الله، ومضى معه أصحابه ولم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع، يقال له « بحران » أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه، فتخلفا في طلبه.

ومضى عبد الله وبقية أصحابه، حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش، تحمل زبيباً وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمي وغيره.

فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريباً منهم، وقال بعضهم لبعض: لا بأس عليكم منهم.

وتشاور المسلمون فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب فرموهم. وقتل المسلمون عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم ابن كيسان وهرب نوفل بن عبد الله المخزومي.

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله.

فلما قدموا على رسول الله قال:
ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام.
فسقط في أيديهم.
وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

ورد عليهم المسلمون في مكة: إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.
فلما أكثر الناس في ذلك نزل قوله تعالى:

﴿ يسألونَكَ عن الحرامِ، قتالٍ فيه. قل: قتالٌ فيهِ كبير. وصدٌّ عن سبيلِ اللهِ وَكُفْرٌ به والمسجدِ الحرامِ، وإخراجُ أهلِهِ منهُ، أكبرُ عندَ اللهِ، والفتنةُ أكبرُ منَ القتلِ ﴾[1].

ففرح المسلمون.
وبعثت قريش في فداء الأسيرين، فقال ﷺ:
لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ــ سعد بن أبي وقاص، وعتبة ابن غزوان ــ فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم.
فقدم سعد وعتبة.

(١) سورة البقرة الآية ٢١٧.

ففداهما رسول الله منهم، فأما الحكم فأسلم وأقام في المدينة حتى قتل يوم بئر معونة، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافراً.

٩ ـــ غزوة بدر الكبرى
رمضان من السنة الثانية للهجرة

١ ـــ سمع رسول الله بأبي سفيان مقبلا من الشام في قوافل تجارة عظيمة لقريش، فيها أموال لقريش، وفيها ثلاثون أو أربعون رجلا من قريش منهم: مخزمة بن نوفل، وعمرو بن العاص.

فندب رسول الله المسلمين إليهم، وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها»[1].

فخرج المسلمون إليها، منهم من نهض، ومنهم من تعلل أو اعتذر أو ثقل، إذ كانوا لا يظنون أن الرسول يلقى حربا.

٢ ـــ وكان أبو سفيان ـــ حين دنا من الحجاز ـــ يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفا على ما معه من أموال.

فبلغه أن الرسول قد ندب أصحابه للقائه هو ومن معه، فحذر عند ذلك واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة ليأتي قريشاً

(١) كانت قريش قد نهبت جميع أموال المسلمين المقيمين في مكة، فوق ما فعلته بهم من قتل وتعذيب وتشريد ونفي طوال عشرة أعوام. فلم يكن تعرض المسلمين بأمر الرسول لقوافل تجارة قريشا أمر عجباً، بل كان أدنى ما تتطلبه العدالة والقصاص، فوق ما كانت قريش دائبة عليه آنذاك من محاربة الإسلام وبث الدعايات ضد الرسول والمسلمين.

فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لتجارتهم هو وأصحابه.

٣ ــ ورأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا، حدثت بها أخاها العباس، قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث فاجتمع إليه الناس، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت[١] فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة[٢].

فقال لها العباس: اكتميها ولا تذكريها لأحد. ولكن العباس أخبر بها الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان صديقاً له فذكرها له، وطلب منه كتمانها، ولكن الوليد أذاع بها، ففشا الحديث بمكة، حتى تحدثت به قريش.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت، وأبو جهل في رهط من قريش قعود، يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني قال لي: يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا.

فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية؟

فقلت: وما ذاك؟

---

(١) أي تفرقت وتفتت.

(٢) أي قطعة.

قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة.

قلت: وما رأت؟

قال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم فجحدت ذلك. وأنكرت أن تكون رأت شيئاً.. ثم تفرقنا.

فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني تقول: أقررتم لهذا الفاسق أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت.

قلت: وايم الله لأتعرضن له فإن عاد لأَكْفِيَنَّكُنَّهُ.

فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، فدخلت المسجد، فرأيته، فأخذت أتعرضه ليعود لبعض ما قال، فخرج نحو باب المسجد يعدو، فإذا هو قد سمع صوت ضمضم الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي: يا معشر قريش، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث، اللطيمة اللطيمة.

وتجهز الناس سراعا، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلا، ولم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أبو لهب. بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة.

٤ ـــ وخافت قريش كنانة، وكانت بينهم وبينها حرب، فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا، فكاد ذلك يثنيهم، فجاءهم سراقة بن مالك، وكان من أشراف بني كنانة، فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

فخرجوا سراعا وخرج رسول الله يوم الإثنين لثمان ليالي خلون من رمضان (عام ٢ هـ).

وأناب رسول الله عنه على المدينة عمرو بن أم مكتوم، ويقال:

أبا لبابة... ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وكان أمام رسول الله رايتان سوداوان: إحداهما مع علي بن أبي طالب، والأخرى مع بعض الأنصار.

وكانت إبل المسلمين سبعين بعيراً، وكانت راية الأنصار مع سعد ابن معاذ.

٥ ـــ سلك رسول الله من مكة إلى بدر، فمر بنقب المدينة، فالعقيق، ثم ذي الحليفة، فأولات الجيش، ثم تربان، وملل، ثم غميس الحمام، فصخيرات اليمام، والسيالة، ففج الروحاء، ثم شنوكة، فعرق الظبية ثم سجسج وهي بئر الروحاء ثم المنصرف وحواليه ترك طريق مكة، وسار بيسار، فمر على النارية، فوحفان فمضيق الصفراء، وبعث ﷺ العيون تتجسس الأخبار عن أبي سفيان ومن معه. فسار بوادي ذقران، فنزل وأتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا غيرهم.

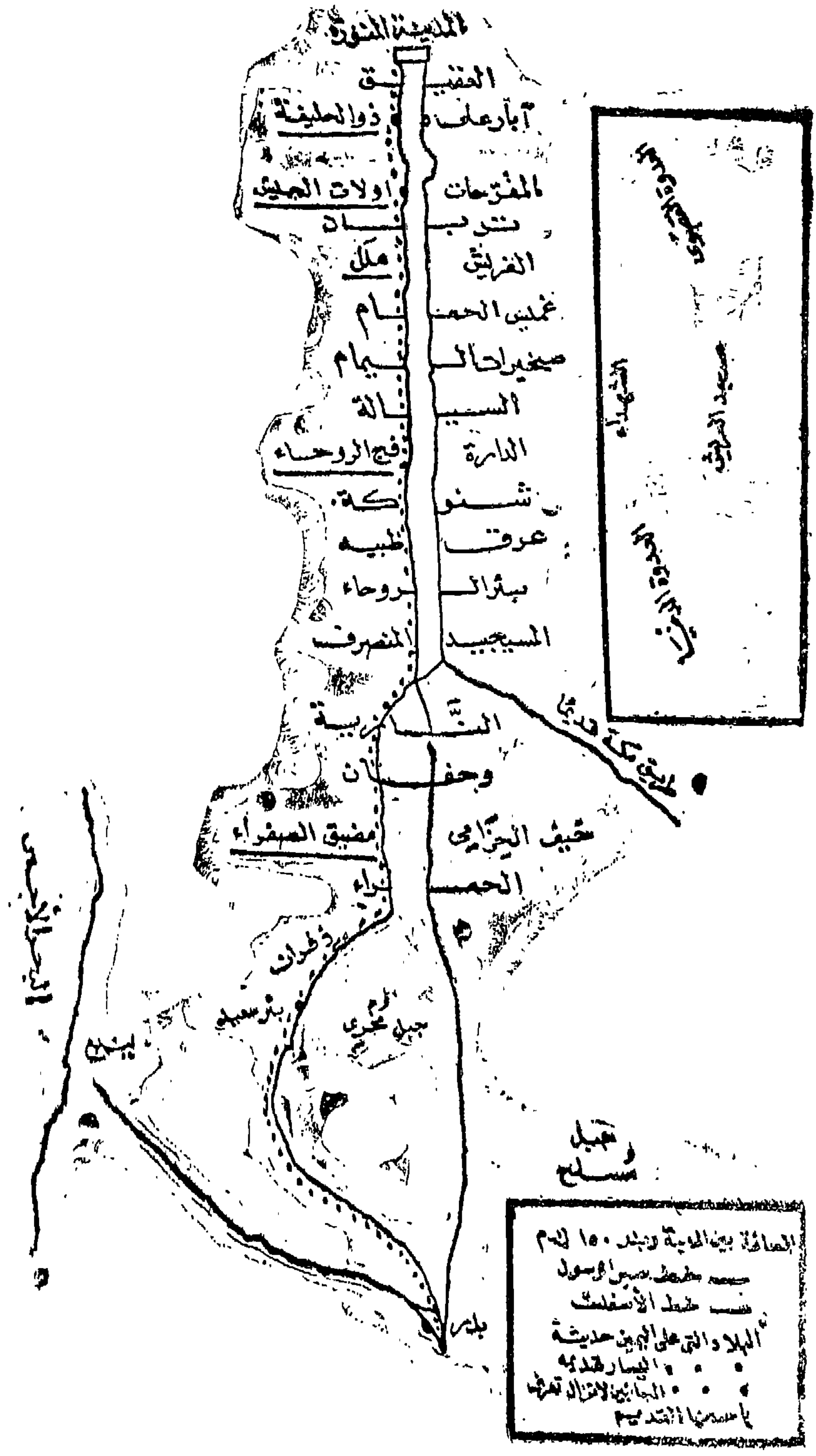
٦ ـــ واستشار رسول الله المسلمين وأخبرهم بخروج قريش.
فقام أبو بكر، فقال وأحسن.
ثم قام عمر، فقال وأحسن.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله. امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ **فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ** ﴾(١) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، فوالله الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد(٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٤.

(٢) موضع في أقصى اليمن، أو هو في أقصى « حجر ».


المدينة المنورة
العقيق
آبار علي
ذو الحليفة
المفرحات
أولات الجيش
تربان
الفريش
ملل
غميس الحمام
صخيرات اليمام
السيالة
الدارة
فج الروحاء
شنوكة
عرق الظبية
بئر الروحاء
المسيجيد
المنصرف
النازية
وحفان
خيف الحزامي
مضيق الصفراء
الحمراء
ذفران
بئر سعيد
جبل مجري
ينبع
بدر
جبل مسلح
طريق مكة قديم
المسافة بين المدينة وبدر ١٥٠ كم
خط سير الرسول
خط الأسفلت
البلاد التي على اليمين حديثة
« « اليسار قديمة
« « الجانبين لا تزال تعرف
بأسمائها القديمة

فقال له رسول الله خيرا، ودعا له به.

ثم قال ﷺ: أشيروا علي أيها الناس، يريد الأنصار، وكان ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره ألا بمن دهمه بالمدينة من عدوه، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا أوصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

فلما قال ذلك رسول الله قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله.

قال: أجل.

قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسر رسول الله بقول سعد، وقال: سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

٧ ـــ ثم ارتحل رسول الله من ذفران، حتى نزل قريباً من بدر. وركب رسول الله هو وأبو بكر، حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم.

فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما، فقال له رسول الله: إذا أخبرتنا أخبرناك.

قال الشيخ بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا، فإن كان صدق الذي

أخبرني، فهم القوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به قريش. ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ قال له ﷺ: نحن من ماء.

ثم رجع رسول الله إلى أصحابه، فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، يلتمسون الخبر له عليه، فأصابوا راويتين لقريش فأتوا بهما، وسألوهما ورسول الله قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، وانتهى رسول الله من صلاته، فقال: أخبراني عن قريش، قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله: كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوما تسعا ويوما عشرا، قال رسول الله: القوم فيما بين التسعمائة والألف.

ثم قال ﷺ: فمن فيهم من أشراف قريش؟.. فسميا له أشرافهم: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والنضر بن الحارث وأبو جهل، وأمية ابن خلف، وغيرهم.

فأقبل رسول الله على الناس، فقال: هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ(١) كبدها.

٨ ـــ أما أبو سفيان وقافلته، فقد وصلا إلى قرب بدر، فأدرك أن رسول الله والمسلمين لهم بالمرصاد، فغير طريقه إلى مكة، وأخذ طريق الساحل، وترك بدراً بيسار، وانطلق يسرع حتى نجا هو ومن معه.

وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجحفة رأى جهيم بن الصلت ـــ فيما يرى النائم ـــ أن رجلا قد أقبل، ثم قال: قتل عتبة، وشيبة، وأمية

---

(١) جمع فلذة كقطعة في الوزن والمعنى.

ابن خلف، وفلان، وفلان. ثم ضرب بسيفه في لبة بعيره وأرسله في العسكر، فما بقي خباء إلا أصابه نضح من دمه، وبلغ ذلك أبا جهل، فقال: وهذا أيضاً نبي آخر من بني عبد المطلب، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا.

وأرسل أبو سفيان إلى قريش: إنكم إنما خرجتهم لتمنعوا عيركم وأموالكم ورجالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان[1]، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها فامضوا.

وقال الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة وهم بالجحفة: يا بني زهرة، قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخزمة ابن نوفل[2]، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي جبنها، وارجعوا، فرجعوا، فلم يشهد أحد من زهرة بدرا، وكان أبو جهل في أشراف قريش وبطونها إلا بني عدي بن كعب لم يخرج منهم أحد، فلم يشهد بدرا أحد من بني زهرة ولا من بني عدي بن كعب.

ورجع كذلك طالب بن أبي طالب، قال له بعض القرشيين: والله لقد عرفنا يا بني هاشم، وإن خرجتم معنا، إن هواكم لمع محمد، فرجع مع من رجع.

ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى.

٩ ــ ونزل رسول الله أدنى ماء من بدر، فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه

(١) القيان: الجواري المغنيات.

(٢) كان في القافلة مع أبي سفيان بمال وتجارة لبني زهرة.

الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس، حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله، ثم نغور[1] ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم تقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله: لقد أشرت بالرأي، ونهض بمن معه من المسلمين، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه.

١٠ ــ وقال سعد بن معاذ:

يا نبي الله، ألا نبني لك عريشا تكون فيه، ونعد عنك ركائبك، ثم نلقي عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقي حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله خيرا، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله عريش، فكان فيه.

وقال رسول الله ﷺ: اللهم، هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك[2] وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني.

وأخذ عقلاء قريش يخضعون قومهم على الانصراف، أتى حكيم ابن حزام عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ترجع بالناس، قال: فَأْتِ أبا جهل. ثم قام عتبة

---

(١) التغوير: الطمس والدفن. والقلب جمع قليب وهو البئر.

(٢) أي تعاديك وتشق عصا الطاعة عليك.

خطيبا، فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك، وكان غير ذاك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

ثم جاء حكيم بن حزام إلى أبي جهل فقال له: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره[1] حين رأى محمداً وأصحابه! كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.

وبعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي، فقال: هذا حليفك ـــ عتبة ـــ يريد أن يرجع بالناس، فقم فأنشد خفرتك[2] ومقتل أخيك، فقام عامر فصرخ: واعمراه، واعمراه.

فحميت الحرب، واشتد أمر الناس.

١١ ـــ وخرج الأسود بن عبد الأسود المخزومي، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه، فلما خرج برز إليه حمزة فضربه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره فحبا الأسود إلى الحوض، ليبر يمينه، فضربه حمزة فقتله في الحوض.

وخرج عتبة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة فخرج إليهم حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث: فقتلوا عتبة ومن معه.

ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، ورسول الله في العريش، ومعه أبو بكر.

---

(١) السحر، كالنحر، هو: الرئة.

(٢) انشد: اطلب. الخفرة: مثل الحمرة: العهد.

وعدل رسول الله صفوف أصحابه يوم بدر، ورجع إلى العريش، وأخذ يبتهل إلى الله ويقول فيما يقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، وأبو بكر يقول: يا نبي الله، بعض مناشدتك لربك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

وأصابت رسول الله سنة ثم انتبه، فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع ــ الغبار ــ.

وكان أول قتيل من المسلمين في بدر مهجع علي مولى عمر بن الخطاب رمي بسهم فقتل وقتل كذلك منهم حارثة بن سراقة الأنصاري.

وخرج رسول الله إلى المسلمين فحرضهم، وهو يقول: والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.

فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن: بخ، بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل المشركين حتى قتل.

وأخذ رسول الله حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشاً، ثم قال: شاهت الوجوه ثم نفحهم بها، وقال لأصحابه: شدوا، فكانت الهزيمة فقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرافهم.

وقال ابن عفراء وهو عوف بن الحارث لرسول الله: ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غمسه يده في العدو خاسرا.

فنزع درعا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل حتى قتل.

وأخذ الصحابة يأسرون، ورسول الله في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله، متوشحا السيف في نفر من الأنصار، يحرسون رسول الله، يخافون عليه كرة العدو ورأى رسول

الله الكراهية لما يصنع الناس، في وجه سعد بن معاذ، فقال له صلوات الله عليه، والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟ قال أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال.

وكانت معركة بدر صبيحة يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، كما يقول ابن هشام، والصحيح أن يوم الجمعة يوافق التاسع عشر من رمضان عام ٢ هـ ـــ السادس عشر من مارس عام ٦٢٣ م.

١٢ ـــ وقال رسول الله لأصحابه: إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس عم رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرها.

فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه السيف ـــ وروي: لألجمنه.

فبلغ ذلك رسول الله. فقال لعمر: يا أبا حفص.
قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله بأبي حفص.
فقال رسول الله له: أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟
قال عمر: دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

وكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عني الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً.

وأبو البختري هو الذي قام في نقص الصحيفة مقاماً كريماً.

١٣ ـــ وعن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أمية بن خلف لي

صديقاً بمكة، وكان اسمي عبد عمرو. فتسميت في الإسلام ونحن بمكة: عبد الرحمن.

حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي، آخذ بيده، ومعي أدرع لي قد أخذتها غنيمة، فأنا أحملها، فلما رآني قال لي: يا عبد عمرو، فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، قلت: نعم، قال: هل لك فيّ؟، فأنا خير لك من هذه الأدرع التي معك قلت: نعم ها الله إذن، فطرحت الادرع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ أي إبل الفداء.

ثم خرجت أمشي بهما فأنا بينه وبين ابنه، آخذ بأيديهما، فقال لي أمية: يا عبد الإله، من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره، قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن بن عوف: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، وكان هو الذي يعذب بلالا بمكة على ترك الإسلام، فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا وأخذ يقول: لا نجوت إن نجا، لا يلتفت إلى كلامي، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، فأحاطوا بنا، فضرب رجل ابنه، فوقع فصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، فقلت: انجه بنفسك فوالله ما أغني عنك شيئاً، فقطعوهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما.

وكان شعار أصحاب رسول الله يوم بدر: أحد، أحد، ونزلت الملائكة تأييدا، ولم تقاتل في يوم سوى بدر من الأيام.

وأمر رسول الله، بعد أن فرغ من المشركين ـــ بأبي جهل أن يلتمس في القتلى، فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل، فوجده بآخر رمق، فعرفه، فوضع رجله على عنقه، قال ابن مسعود: ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أخبرني لمن الدائرة

اليوم؟ قلت: لله، ولرسوله ثم حززت رأسه، وجئت بها رسول الله، فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال مقسما: آلله الذي لا إله غيره، قلت نعم، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله، فحمد الله.

١٤ ــ وقاتل عكاشة الأسدي يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده فأتى رسول الله فأعطاه سيفاً، وقال له: قاتل بهذا يا عكاشة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وشهد به المشاهد مع رسول الله، وجاء عكاشة إلى مجلس رسول الله يوماً فسمع الرسول يقول: يدخل الجنة سبعون من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، فقال عكاشة: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عكاشة، وقتل عكاشة في حروب الردة. وهو حليف بني عبد شمس بن عبد مناف، وفيه قال رسول الله: منا خير فارس في العرب.

١٥ ــ وأمر رسول الله بقتلى المشركين أن يطرحوا في القليب، ووقف عليهم رسول الله فقال:

يا أهل القليب
هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟
فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

فقال أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قوماً موتي؟ فقال: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق، ويروى أنه ﷺ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.

وسمع أصحاب رسول الله رسول الله يقول من جوف الليل:
يا أهل القليب.
يا عتبة بن ربيعة.

ويا شيبة بن ربيعة.
ويا أمية بن خلف.
ويا أبا جهل بن هشام.
ــ وعدد صلى الله عليه من كان منهم في القليب.
هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟
فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً.

يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس.

ولما أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله إلى وجه ابنه المسلم أبي حذيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب، فقال: يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟ فقال لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلما وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك.

١٦ ــ وبعث رسول الله عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسوله وعلى المسلمين.

وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة وجاء الخبر وقد سوى المسلمون التراب على رقية بنت رسول الله وزوج عثمان بن عفان.

ثم أقبل رسول الله ومعه الأسارى من المشركين، إلى المدينة، وفيهم النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، ولما كان بالروحاء في طريق عودته إلى المدينة لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه هو ومن معه من المسلمين.

ولما كان رسول الله في « الصفراء » قتل علي بن أبي طالب النضر ابن الحارث، « وفي عرق الظبية » قتل عقبة بن أبي معيط، ولما أمر رسول بقتله قال: من للصبية يا محمد؟ قال: النار.

وقدم رسول الله المدينة قبل الأسرى بيوم، وفرق الأسرى بين أصحابه وقال: استوصوا بالأساري خيراً.

١٧ — وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان الخزاعي.
وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه العاصي بن هشام ابن المغيرة، فلما سمع مقتل أشراف قريش في بدر، مات حزناً وجزعاً، ووجد المسلمون في مكة أنفسهم عزاً وقوة.

وناحت قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فيشمت بكم محمد وأصحابه.

ثم بعثت قريش في فداء الأسرى.
وقال عمر بن الخطاب لرسول الله: يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمر فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله: لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً، إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه.

وكان حبس سهيل بن عمرو في بيت رسول الله في المدينة عند سودة بنت زمعة أم المؤمنين.

١٨ — وكان في الأسرى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى صهر الرسول وزوج ابنته زينب، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين: مالا وأمانة وتجارة، وكانت أمه هالة أخت خديجة، وخديجة خالته، تزوج زينب قبل البعثة، وكانت خديجة سألت رسول الله ذلك، إذ كانت تعده بمنزلة ولدها، فزوجه.

فلما أكرم الله رسوله بنبوته آمنت به خديجة وبناته، وثبت أبو العاص على شركه.

وكان رسول الله زوج عتيبة بن أبي لهب بنته رقية أو أم كلثوم، فقالت قريش: إنكم قد فرغتم محمداً من همه، فردوا عليه بناته، فاشغلوه بهن، فمشوا إلى أبي العاص فقالوا له: فارق صاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت، فرد عليهم: لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش، وكان رسول الله يثني عليه في صهره خيراً.

ثم مشوا إلى عتيبة، فقالوا له: طلق بنت محمد ونحن ننكحك أي امرأة من قريش شئت، ففارقها وزوجوه بنت سعيد بن العاص، ولم يكن دخل بها فأخرجها الله من يده كرامة لها وهواناً له، وخلف عليها عثمان بن عفان بعده.

وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله وبين أبي العاص ابن الربيع، إلا أن رسول الله كان لا يقدر أن يفرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى كانت بدر، فلما سارت قريش إلى بدر سار معهم أبو العاص، فأسر، فكان بالمدينة عند رسول الله.

ولما بعث أهل مكة في فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله في فداء أبي العاص بمال، كان فيه قلادة لها كانت أمها خديجة قد أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها. فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا؟ فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها مالها. وأخذ رسول الله عليه عهداً أن يخلي سبيل زينب إليه. فلما خرج أبو العاص إلى مكة بعث رسول الله زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار، فقال لهما: كونا ببطن ماجج — قريباً من التنعيم — حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها، وكان ذلك بعد بدر بشهر

أو قريب منه، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فتجهزت، وقدم لها أخو زوجها كنانة بعيراً فركبته، وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهاراً يقود بها، وهي في هودج لها، وتحدث بذلك رجال من قريش، فخرجوا في طلبها، حتى أدركوها بذي طوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود، فروعها برمحه، وهي في هودجها وكانت حاملا، فطرحت جنينها، فقال أخو زوجها: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً، فرجع الناس عنه.

وأتى أبو سفيان في جلة من أشراف قريش، فقال: أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فوقف عليه أبو سفيان، وقال له: إنك لم تصب خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس أن ذلك على ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن قد رددناها فسلها سراً، وألحقها بأبيها ففعل، فأقامت ليالي حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلا، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله.

وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب عند رسول الله بالمدينة، حتى إذا كان عام ست من الهجرة خرج أبو العاص تاجراً مأموناً، وفي طريق عودته لقيته سرية لرسول الله، فأصابوا ما معه، وهرب قادماً المدينة إلى رسول الله تحت جنح من الليل، حتى دخل على زينب بنت رسول الله فاستجار بها، فأجارته، وجاء في طلب ماله.

فلما خرج رسول الله إلى الصبح فكبر وكبر الناس، صرخت زينب أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله من الصلاة أقبل على الناس، فقال أيها الناس: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا: نعم. قال: أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من

ذلك حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم. ثم انصرف رسول الله، فقال: أي بنية، أكرمي مثواه ولا يخلص إليك، فإنك لا تحلين له.

وبعث رسول الله إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك. وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به، فقالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردوه جميعه لا يفقد من ماله شيئاً.

ثم رحل إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال ماله، ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه، قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وكان ذلك في رجب من عام ست من الهجرة قبل صلح الحديبية بخمسة شهور.

ثم خرج حتى قدم على رسول الله، فرد عليه الرسول زينب بعد أربع سنين.

١٩ ــ وَمَنَّ رسول الله علي بعض الأسرى بغير فداء: من مثل أبي العاص بن الربيع، وأبي عزة عمرو بن عبد الله الجمحي.

وأخذ الفداء من المشركين.

وكان فداء الرجل منهم أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم، إلا من لا شيء له، فَمَنَّ رسول الله عليه، وكان فداء بعض الأسرى تعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة.

٢٠ ــ وكان عمير بن وهب الجمحي شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله وأصحابه، ويلقون منه غماء وهم بمكة وكان ابنه وهب في أسارى بدر.

وجلس عمير في الحجر بعد بدر في يوم من الأيام، فذكر مصاب أهل بدر من قريش.

فقال له صفوان: والله ما في العيش بعدهم خير.

فقال عمير: صدقت والله، أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة، ابني أسير في أيديهم.

فاغتنمها صفوان، وقال: على دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا.

فقال له عمير: فاكتم عني شأني وشأنك.

قال صفوان: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، وانطلق حتى قدم به المدينة، فبينا عمر في جماعة من المسلمين يذكرون ما أكرمهم الله به إذ نظر فرأى عميراً قد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله، فقال يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخله علي، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه، فلببه بها، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا فاجلسوا عند رسول الله، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله، فلما رآه الرسول وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، إدن يا عمير فدنا، فقال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً.

قال الرسول: أصدقني ما الذي جئت له؟

قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: بل قعدت أنت وصفوان في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له. والله حائل بينك وبين ما تريد.

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد الله الذي هداني للاسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة التوحيد والحق، فقال رسول الله: فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره، ففعلوا. فقال: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي حتى أقدم مكة، فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أوذي أصحابك في دينهم.

فأذن له رسول الله، فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير يقول: أبشروا بواقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب، فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً. فأسلم على يديه ناس كثير.

٢١ ـــ وفي بدر نزلت سورة الأنفال المكرمة، وقد شهد المعركة

ثلاثمائة وأربعة عشر صحابياً[1]، ومعهم فرسان وسبعون بعيراً، ومع المشركين مائة فرس وعددهم ثلاثة أمثال عدد المسلمين.

وشهداء بدر هم أربعة عشر شهيداً :

١ ــ عبيدة بن الحارث المطلبي.

٢ ــ عمير بن أبي وقاص الزهري، أخو سعد.

٣ ــ صفوان الفهري.

٤ ــ عمير بن عبد عمرو الخزاعي.

٥ ــ عمير بن الحمام بن الجموح الأنصاري.

٦ ــ معاذ بن عمرو بن الجموح السلمي.

٧ ــ معاذ بن عفراء كما في سير أعلام النبلاء، وفي ابن هشام: معوذ.

٨ ــ عوف، أخو معاذ بن عفراء.

٩ ــ حارثة بن سراقة الأنصاري.

١٠ ــ يزيد بن الحارث.

١١ ــ رافع بن المعلي.

١٢ ــ سعد بن خيثمة الأوسي.

١٣ ــ مبشر بن عبد المنذر.

١٤ ــ عاقل بن البكير.

اما قتلى المشركين فمنهم:

١و٢ ــ عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة.

٣ ــ أبو جهل عمرو بن هشام.

٤و٥ ــ أمية بن خلف ــ وابنه علي

---

(١) من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلا، ومن الأوس واحد وستون رجلا، ومن الخزرج مائة وسبعون رجلا.

٦ ــ عقبة بن أبي معيط.
٧ ــ أبو البختري.
٨ ــ العاص، أخو أبي جهل.
٩ ــ حنظلة بن أبي سفيان، أخو معاوية.
١٠ ــ عبيد بن أبي أحيحة.
١١ ــ العاص أخو عبيد.
١٢ ــ الحارث بن عامر النوفلي.
١٣ ــ طعيمة عم جبير بن مطعم.
١٤و١٥و١٦ ــ حارث بن زمعة، وأبوه، وعمه عقيل.
١٧ ــ نوفل بن خويلد الأسدي أخو خديجة.
١٨ ــ النضر بن الحارث.
١٩ ــ عمير بن عثمان، عم طلحة بن عبيد الله.
٢٠ ــ مسعود المخزومي أخو أم سلمة.
٢١ ــ أبو قيس، أخو خالد بن الوليد.
٢٢ ــ قيس المخزومي.
٢٣و٢٤ ــ نبيه ومنبه ابنا الحجاج.
٢٥و٢٦ ــ حارثة والعاص ابنا منبه.

وقيل إن قتلى المشركين سبعون رجلا والأسرى من المشركين مثلهم[١].

٢٢ ــ وقال ضرار بن الخطاب بن مرداس في بدر، يخاطب المسلمين:

فإن تظفروا في يوم بدر فإنما   بأجمل أمسي جدكم وهو ظافر

---

(١) وفي يوم بدر أسلم أبو الدرداء عويمر بن زيد. وقد عاش حتى مات قبل مقتل عثمان (٢: ٢٤١ ــ ٢٥٥ سير أعلام النبلاء).

وبالنفر الأخيار هم أولياؤه يحامون في اللأواء والموت حاضر
يعد أبو بكر وحمزة فيهمو ويدعى علي وسط من أنت ذاكر
ويدعى أبو حفص وعثمان منهمو وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر

فأجابه كعب بن مالك:

عجبت لأمر الله والله قادر على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشرا بغوا وسبيل البغي بالناس جائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد لأصحابه، مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره وأن رسول الله بالحق ظاهر
وكان رسول الله قد قال: أقبلوا قولوا، وقالوا: إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حمه الله زاجر

وقال عبد الله بن الزبعرى السهمي يبكي قتلى بدر قصيدته:

ماذا علي بدر وماذا حوله من فتية بيض الوجوه كرام

فأجابه حسان بقصيدته:

تبلت فؤادك في المنام خريدة تشفي الضجيع ببارد بسام

ومنها:

ابك بكت عيناك ثم تبادرت بدم يعل غروبها سجام
ماذا بكيت به الذين تتابعوا هلا ذكرت مكارم الأقوام
وذكرت منا ماجدًا ذا همة سمع الخلائق صادق الإقدام
أعني النبي أخا المكارم والندي وأبر من يولي على الأقسام

وقال أمية بن أبي الصلت يرثي قتلى المشركين في بدر، وقد نهي الرسول عن روايته:

ألا بكيت على الكرا م بني الكرام أولى الممادح
كبكا الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الجوانح

مـن يبكهـم يبكـي علـى حـزن ويصـدق كـل مـادح
مـاذا ببـدر فالعقنـقـل مـن مرازبـة جحاجـح

وقد نهى الرسول عن روايتها.
وقال أمية يرثي زمعة بن الأسود:

عين بكي بالمسبلات أبا الحا رث لا تذخـري علـى زمعـة

إلى آخر هذه القصيدة:
وقالت هند بنت عتبة بن ربيعة:

لله عينـا مـن رأى هلكـا كهـلك رجاليـه
يـا رب بـاك لـي غـدا فـي النائبـات وباكيـه
قـد كـنت أحـذر مـا أرى فاليـوم حـق حذاريـه

وقالت صفية بنت مسافر:
ألا يـا مـن لعيـن للتـبكـي دمعهـا فـان
ومـا لـيث غريـف ذو أظافيـر وأسنـان
أبـو شبليـن وثـاب شديـد البـطش عرثـان
كحبـي إذ تولـي و وجـوه القـوم ألـوان

وقالت هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب ترثي عبيدة بن الحارث ابن المطلب:

لقد ضمن الصفراء مجداً وسؤدداً وحلماً أصيلا وافر اللب والعقل

وقالت قتيلة تبكي أخاها النضر بن الحارث:
هل يسمعني النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟

إلى آخر هذه القصيدة التي قال فيها الرسول: لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه.

وكان فراغ رسول الله من بدر في عقب شهر رمضان أو في شوال من السنة الثانية للهجرة.

— ٢ —

وصدق الله العظيم فيما يقول:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُم وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكم بِهِ، وَمَا النَصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾[1].

وفيما يقول: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى، وَلِتَطْمَئِنَّ به قُلُوبُكم، وَمَا النَصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2].

نحن الآن في بدر، القرية الرابضة بين مكة والمدينة وينبع، على بعد مائة وخمسين كيلومتراً من مدينة رسول الله الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

واليوم صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة، السابع عشر كذلك من مارس عام ٦٢٤ ميلادية منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن من الزمان.

أما المشهد: فمنظر وجوه مؤمنة ظافرة منتصرة، تحف برسول الله ﷺ كما تحف النجوم بالقمر والأضواء بالشمس، ومن حولهم أشلاء وجثث ممزقة لسبعين قتيلا كلهم من وجوه قريش وسادتها، وبين الأشلاء جرحى الهزيمة من القرشيين المكيين، وجوههم معفرة ذليلة، أصابها الخوف والفزع ورسول الله ﷺ وأصحابه يحفرون لقتلى المشركين

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٦.

(٢) سورة الانفال آية ١٠.

قليباً ــ أي بئراً، ويدفنهم في جوفه، ثم يقف ومن معه على حافة القليب، شاكراً لله هذا النصر المبين وهو يقول يا أهل القليب:

يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام.

وعدد رسول الله ﷺ أسماء رؤوس الشرك الذين أذلهم الله وقتلهم ممن رمى بهم في القليب، ثم قال صلوات الله عليه: يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم حقا، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا.

يا أهل القليب، بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم. كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس.

ولما أخذ جثمان عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله إلى ابنه المسلم أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فإذا وجهه كئيب، فقال له رسول الله: يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء فقال لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، وكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك.

وينادي رسول الله على شاعر المسلمين وبطلهم عبد الله بن رواحة، وعلى بطل الحرب متبني رسول الله زيد بن حارثة، فيبعثهما بشيرين بهذا النصر المبين، والفوز العظيم إلى المدينة.

ثم ينفض رسول الله وأصحابه عنهم غبار المعركة، ويسير من بدر وخلفه الأسرى من المشركين سبعون أسيراً، ويسير الموكب النبيل موكب رسول الله إلى المدينة، فلما وصل الموكب إلى الروحاء، وهي على نحو نصف الطريق من بدر إلى المدينة إذا وفود أهل المدينة مقبلة

جاءت من المدينة تهنِّىء رسول الله، بما فتحه الله على المسلمين من هذا النصر المبين.

وقدم رسول الله إلى المدينة قبل الأسرى بيوم، وفي المسجد النبوي مسجد رسول الله، صلوات الله عليه، أدى لله صلاة الشكر.. على نعمة النصر العظيم.

ووزع رسول الله الأسرى على أصحابه. وقال لهم: استوصوا بالأسرى خيرا.

هذا جانب من صورة هذا المشهد الكبير، وفي الجانب الآخر صورة عربي خزاعي من أهل مكة قادم من بدر إلى بلد الله الحرام بأسوأ خبر سمعه القرشيون طيلة حياتهم قال لهم: لقد قتلت أفلاذ أكبادهم في بدر، قتل أبو جهل، وعتبة، وشيبة، ابنا ربيعة، وأمية بن خلف وغيرهم من سادة القرشيين وقادتهم وكبرائهم. وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، وبعث مكانه إلى أرض المعركة في بدر العاص بن هشام ابن المغيرة. فلما سمع بمقتل أشراف قومه، مات حزناً وجزعاً، وأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وذهب إلى غضب الله وعذابه، وناحت قريش على قتلاها، ثم قال بعضهم لبعض: لا تنوحوا على قتلاكم، فيشمتَ محمد وأصحابه، وباتوا بهم دائم وحزن مقيم، وأخذوا يبعثون في فداء الأسرى، ومن لم يبعث أهله في فدائه كان فداؤه تعليمَ عشرة من أطفال المسلمين الكتابة، ووجد المسلمون في مكة في أنفسهم عزاً وقوة وشعر المسلمون في المدينة بالأمن والطمأنينة.

وجاء رجل من مكة إلى المدينة مسرعاً لا يلوي على شيء ولا يستريح من كلال ويعم صوب المسجد النبوي ووقف على مجلس رسول الله ﷺ، ووضع في يده قلادة، وهو يقول: إن ابنتك زينب بنت محمد بعثت بهذه القلادة إليك، فدية لزوجها الأسير أبي العاص، ابن عبد العزى بن عبدِ شمس بنِ مناف بن الربيع.

وتقول: اطلقوا سراحه وهذه فديته، وكان أبو العاص ابنَ هالة أخت خديجة أم المؤمنين، وكانت القلادة هدية خديجة لابنتها يوم زفافها واستقرت القلادة في رسول الله، ودمعت عيناه، ثم قال لأصحابه:

« إن رأيتم أن تطلقوا لهذه أسيرها وتردوا عليها مالها.. »

فبادر عبدالله بن جبير بن نعمان الأنصاري الذي أسر أبا العاص في بدر إلى السعي نحو بيته، حيث فك أسر أبي العاص زوج زينب بنت رسول الله وكان قد أكره على الخروج إلى بدر، وأصبح أبو العاص حراً، وعادت قلادة بنت رسول الله إلى يدي أبي العاص زوجها وأخذ رسول الله العهد على أبي العاص سراً أن يحل سبيل ابنته زينب لتهاجر إلى أبيها رسول الله في المدينة، ولتقيم في دار الإسلام مع المسلمين. وقبل هجرة رسول الله إلى المدينة كانت قريش قد مشت إلى أبي العاص يقولون له: فارق زوجك وصاحبتك ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت. فرد عليهم رداً عنيفاً، وقال: لا أفارق صاحبتي وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش، فمشت قريش إلى عتبة ابن أبي لهب، تقول له: إنك قد فرغت محمداً من همه، طلق ابنته التي عندك وهي زوجته أم كلثوم وردَّها إلى أبيها ونحن نزوجك أي امرأة من قريش شئت، وكان لم يدخل بأم كلثوم بعد، فقال لهم: أفارقها على أن تزوجوني بنت سعيد بن العاص، قالوا له: نعم فطلقها وأخرجها الله من يده كرامة لها وهواناً له وتزوجها بعده عثمان بن عفان رضي الله عنه... وعادت زينب إلى أبيها صلوات الله عليه، وتوفيت في المدينة في العام الثاني للهجرة، وتوفيت بعدها بشهور أختها أم كلثوم بنت رسول الله رضي الله عنهما أجمعين.

لقد كان النصر الأكبر الذي ناله المسلمون في بدر نهاية لأحداث طويلة دامية مريرة، وفيه يقول الله تبارك وتعالى من سورة الأنفال:

﴿ إذ يُوحي ربُّك إلى الملائكةِ أني معكم، فثبِّتوا الذين آمنُوا، سأُلقي في قلوبِ الذِين كفَرُوا الرُّعبَ فاضرِبُوا فوقَ الأعناقِ، واضرِبُوا منهم كل بنانٍ * ذلك بأنهم شاقُّوا اللهَ ورسولَهُ، وَمَنْ يشاقِقِ اللهَ ورسولَهُ فإنَّ اللهَ شديدُ العقابِ ﴾(١).

لقد كانت غزوة بدر الكبرى حدث الأحداث في تاريخ العالم القديم، فقد أنهت نظرية سيادة قريش على الجزيرة العربية وأسطورة أنها لا تغلب.

وأنهت كذلك معركة بدر الكبرى عهداً من الاضطهاد الوثني للرسالات السماوية وأتباعها، ووضعت نهاية لأفكار الجاهلية في الحجر على الحريات الدينية. وقررت حقيقة جديدة وهي أن الجزيرة العربية قد أصبح للإسلام والمسلمين فيها مكان روحي وسياسي كبير لا يمكن تجاهله، وجعلت كذلك معركة بدر قريشاً تفكر ألف مرة ومرة في مصير قوافلها التجارية الدامية الذاهبة إلى الشام، حتى أنها غيرت طريق هذه القوافل فصارت تمر بطريق طويل بقلب في قلب نجد حتى تستطيع الذهاب الشام، والإفلات من قبضة المسلمين. وفي هذه المعركة هزمت قريش شر هزيمة، قتل منهم سبعون وأسر سبعون وهرب وفقد الباقون، وأما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر مجاهداً: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وبعد المعركة برزت بين القوى السياسية المختلفة في منطقتنا دولة إسلامية قوية هي دولة الإسلام في المدينة وما حواليها.

ترجع أسباب هذه المعركة الخالدة إلى اضطهاد قريش للمسلمين سواء منهم المهاجرون إلى المدينة، أو الذين ظلوا مقيمين في مكة، وإلى مصادرتها لأموالهم وتجارتهم وديارهم، وإلى مؤامراتهم الدنيئة الدائمة ضد الإسلام ورسوله والمؤمنين به.

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ١٢ و١٣.

وقد بدأت الأحداث بإرسال رسول الله سرية من المسلمين لاعتراض القافلة التجارية الكبيرة التي عاد بها أبو سفيان من الشام، وكانت تقدر أموالها بنحو خمسين ألف دينار، وفيها ألف بعير محملة بالأموال، إذ أنه لم يبق أحد من قريش، رجالا ونساء، لم يسهم فيها بحظ، حسب ماله ومكانته وكان يتولى حراستها أربعون قرشياً منهم عمرو بن العاص ومخزمة بن نوفل وكان الرسول قد فكر في اعتراضها وهي ذاهبة إلى الشام إلا أنها كانت قد أسرعت وأفلتت من أيدي المسلمين في طريقها إلى الشام، وصارت نتائج غزوة العشيرة محدودة حيث لم تثمر الثمرة المطلوبة.

واستعمل أبو سفيان في عودته ذكاءه في معرفة الأخبار، وما انتواه محمد وأصحابه، حيال قافلته الكبيرة. ولما علم أن الرسول قد ندب المسلمين لمهاجمة قافلته بمن فيها وما فيها حذر حذراً شديداً، وبعث رجلا إلى مكة ليأتي قريشا في أنديتها، ويستنفرهم، للدفاع عن أموالهم وتجارتهم، ولينبئهم أن جيش محمد في طريقه إلى اعتراض القافلة والاستيلاء على كل أموالها، ولما وصل الرجل إلى مكة أخذ يصرخ بأعلى صوته ببطن الوادي، وهو يقول: يا معشر قريش أموالكم مع أبي سفيان، قد عرض لها محمد في أصحابه ولا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

وأسرع الناس بالخروج دفاعاً عن تجارتهم وأموالهم، ولم يتخلف من سادة قريش إلا أبو لهب، الذي بعث مكانه العاص بن هشام ابن المغيرة، وكان عدد الذين خرجوا من مكة تسعمائة وخمسين رجلا، أكثرهم من قريش، ومعهم مائتا فرس يقودونها، وعدد كبير من الإبل، وليس لهم قيادة موحدة، ولا تنظيم عسكري مخطط له؛ واحتاط رسول الله ﷺ للأمر، فخرج هو والمسلمون من المدينة يوم الاثنين لثمان ليال مضت من رمضان، من العام الثاني للهجرة، لمساندة السرية التي

كان قد بعث بها لمهاجمة قافلة أبى سفيان، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وخمسة مجاهدين من المسلمين والأنصار، ومعهم فرسان وسبعون بعيراً، وكان نصيب رسول الله وعلي بن أبي طالب، ومرثد الغنوي بعيراً واحداً يتناوبون الركوب عليه، فقال علي ومرثد لرسول الله: يا رسول الله ﷺ، نحن نمشي عنك، فقال لهما: ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما.

وبعث رسول الله دوريات للاستطلاع في مقدمة الجيش، وسار خلفها قلب الجيش المؤلف من كتيبتين: واحدة من الأنصار بقيادة سعد بن معاذ، وأخرى من المهاجرين بقيادة علي بن أبي طالب... ويلي ذلك مؤخرة الجيش بقيادة قيس بن أبي صعصعة.

وعلم رسول الله بخروج قريش للدفاع عن أموالها، وحينئذ صار الأمر أكبر من تهديد قريش في تجارتها وطريق قوافلها، وصار احتمال الصدام الحربي قوياً، وبعد أن كان خروج رسول الله ذا هدف واحد هو الحصار الاقتصادي لتجارة قريش، إذ أن رسول الله لما ندب المسلمين في المدينة للخروج قال لهم: هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها، أي يجعلها لكم غنيمة، أصبح الأمر حينئذ أمر مواجهة عسكرية محتومة.

وعندئذ عقد رسول الله ﷺ مجلساً حربياً حيث عرض القضية على أصحابه من أولي الرأي والجهاد في الإسلام.

فقام أبو بكر فقال وأحسن.

وقام عمر فقال وأحسن.

ثم قام المقدار بن عمرو فقال :

يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما

قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنَا قاعِدُونَ ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فقال له رسول الله خيرا، ودعا له به.

ثم التفت رسول الله ﷺ ناحية الأنصار، وقال: أشيروا علي أيها الناس، إذ أنه كان يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا إذا دهمه في قلب المدينة عدوه. فقال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله.. قال صلوات الله عليه. أجل قال سعد:

لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غدا، وإنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعلّ الله يريك منا ما تقربه عنك، فسر بنا على بركة الله.

فسر رسول الله بقول سعد، وقال:
سيروا وابشروا، فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين ــ أي قريشا أو أموالها ــ والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم.

وحينئذ أصبح الأمر واضحاً، وأن قرارا قد اتخذ بالحرب، وكان لا بد من أن تسير الأمور إلى غايتها المحتومة..

وبعدئذ جمعت سرايا الاستطلاع كل ما أراد الرسول الأعظم معرفته عن قريش، وأنهم بين التسعمائة والألف، وأن فيهم أشراف قريش: عتبة وشيبة وأبا جهل، وأمية بن خلف والنضر بن الحارث وسواهم.

---

(١) سورة المائدة آية ٢٤.

وفي تلك الأثناء كان أبو سفيان قد سلك بقافلته طريق ساحل البحر، وبعد عن بدر كثيرا ونجا هو ومن معه وما معه من خطر المواجهة.

وبعث أبو سفيان بذلك إلى وجوه قريش يقول لهم: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم ورجالكم فقد نجاها الله فارجعوا إلى بلدكم.

فقال أبو جهل: لا والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليها ثلاثا، ننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان ـــ أي المغنيات ـــ وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها.

وكان في صف دعاة السلام والدعوة إلى تجنب الحرب من جيش أبي جهل: الأخنس الثقفي، وحكيم بن حزام، وعدد قليل، ولكن الأكثرية والغالبية العظمى كانت في صف الحرب، وسارت الأمور إلى نهايتها.

وفي بدر التقى الجمعان.

رسول الله في العدوة الدنيا على بئر ماء، والآبار الأخرى قد جعلها المسلمون لا يستقى منها، والمشركون في العدوة القصوى بلا ماء.

سعد بن معاذ والمسلمون ينون لرسول الله عريشا ـــ أو مقر قيادة ـــ وسط أرض المعركة، في موضع مشرف على أرض القتال، وكلمة التعارف بين المسلمين أحد أحد.

وبدأ القتال، مقر للقيادة وسيطرة للقائد الأعظم على المعركة، وطاعة وتامة من المسمين لقائدهم، وتضحية وإقدام من جانب المسلمين، وتنظيم كامل لجيش المسلمين على أساس جديد غير معروف وهو حرب الصف..

أما المشركون فأسلوبهم في القتال أسلوب الكر والفر، وليس لهم

قيادة منظمة ولا قائد واحد معروف، وليس لأحد منهم سيطرة على المعركة وما يجري فيها، وهم يقاتلون كأفراد، أما المسلمون فيقاتلون صفوفا.

ويسير القتال نحو الذروة، والرسول في عريشه، يقول لصاحبه أبي بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، ثم يخرج إلى المسلمين يقول لهم:

والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة فقال عمير بن الحمام — وفي يده تمرات — بخ بخ، أي مرحى مرحى، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل المشركين حتى قتل.

ويقبل رسول الله على أصحابه ويقول لهم:

أما بعد فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فان الله عظيم شأنه، يأمر بالخير، ويحب الصدق، ويعطي الخير أهله على منازلهم عنده.

وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق، لا يقبل الله فيه من أحد، إلا ما ابتغي به وجهه.

وكان النصر من الله لرسوله وللمؤمنين، هذا النصر الذي خلده التاريخ وسار على وجه الزمان.

١٠ ـــ غزوة لبني سليم بالكدر

قدم رسول الله المدينة بعد بدر، فلم يقم بها غير سبع ليال.

ثم خرج يغزو بنفسه، يريد بني سليم، واستعمل على المدينة سباع ابن عرفطة الغفاري، أو ابن أم مكتوم.

فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر(١)، فأقام عليه ثلاث ليال.

ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيداً.

فأقام رسول الله شهر شوال وذا القعدة، وقبل في إقامته هذه فداء جل أسرى قريش.

وفي شوال صلى صلوات الله عليه صلاة الفطر.

١١ ـــ غزوة السويق

١ ـــ في ذي الحجة من العام الثاني للهجرة وبعد بدر غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق.

وقد كان أبو سفيان حين رجع إلى مكة، ورجعت قريش مهزومة من بدر نذر أن لا يمس النساء حتى يغزو محمداً.

فخرج أبو سفيان في مائتي راكب من قريش، وفاءً بالعهد الذي قطعه على نفسه.

وسار في النجدية، حتى نزل صدر قناة، إلى جبل يقال له ثيب على مسافة بريد أو نحوه من المدينة.

---

(١) بينه وبين المدينة ثمانية برد.

ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير في جنح الليل... فأتى حيي بن أخطب فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له بابه خوفاً وفرقاً: فانصرف عنه إلى سلام بن مسلم، وكان سيد بني النضير في زمانه، وفي أيديه مالهم، فاستأذن عليه فأذن له، فسقاه وقراه[1]، وأعلمه بأدق أسرار المسلمين والرسول.

وخرج أبو سفيان فأتى أصحابه، وبعث رجالا منهم إلى المدينة، فأتوا ناحية منها يقال لها العريض، فحرقوا النخيل فيها، وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له، ثم انصرفوا راجعين.

٢ ــ وعلم المسلمون في المدينة بالأمر، فأخذوا عدتهم..

وخرج رسول الله بهم في طلب أبي سفيان ومن معه، وسار حتى بلغ قرقرة الكدر، ثم عاد راجعاً بعد أن هرب أبو سفيان وقومه.

واستعمل الرسول على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر.

وسميت هذه غزوة السويق، وبلغ فيها الرسول قرقرة الكدر وشاهد أزواداً من أزواد قريش قد طرحوها في الحرث، تخففاً وطلباً للنجاة والهرب، وكان أكثر ما طرحت قريش من الأزواد هو السويق[2]، فأخذ المسلمون منه الكثير.

ولذلك سميت هذه الغزوة غزوة السويق.

(١) صنع له القرى، وهو الطعام الذي يقدم للضيف.

(٢) هو القمح والشعير مطحوناً، وقد يمزج باللبن والعسل والسمن.

١٢ ــ غزوة ذي أمر
في المحرم من السنة الثالثة

رجع الرسول صلوات الله عليه من غزوة السويق، فأقام في المدينة قليلا، ثم خرج في آخر المحرم، وقد غزا نجدا، يريد غطفان، وهي غزوة ذي أمر وهو موضع بنجد من ديار غطفان.

وكان ﷺ قد استعمل على المدينة عثمان بن عفان.

وأقام الرسول بنجد طيلة شهر صفر، ولما لم يلق كيداً رجع إلى المدينة في أوائل ربيع الأول.

١٣ ــ غزوة الفرع
في ربيع الآخر وجمادى الأولى من السنة الثالثة

خرج رسول الله من المدينة غازياً بعد أن استعمل عليها ابن أم مكتوم وهو يريد قريشاً.

فبلغ ﷺ بحران ــ بين الفرع والمدية بثمانية برد ــ معدنا بالحجاز من ناحية الفرع.

فأقام بها شهر ربيع الآخر، وجمادى الأولى، ولم يلق كيداً.

ثم رجع إلى المدينة.

وكانت إقامة رسول الله بعد قدومه من بحران هي طيلة جمادى الآخرة ورجب وشعبان وشهر رمضان، وفي شوال سنة ثلاث وقعت معركة أحد.

١٤ ـــ حصار رسول الله لبني قينقاع في السنة الثالثة

١ ـــ جمع رسول الله اليهود بسوق بني قينقاع، وقال فيهم: يا معشر اليهود... احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل. تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم.

فقالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب. فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله، وحاربوا فيما بين بدر وأحد.

٢ ـــ وكان السبب في ذلك أن امرأة عربية قدمت بأشياء لها إلى سوق بني قينقاع، فباعتها، وجلست إلى صائغ يهودي فيها، فأخذ يريدها على كشف وجهها فأبت، فعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت عورتها، فضحك هو ومن معه بها، فصاحت فوثب مسلم على الصائغ فقتله، فقام شر بين المسلمين واليهود من بني قينقاع، وأخذ اليهود يسبون المسلمين ورسول الله ويتناولونهم بالأذى.

فحاصرهم رسول الله خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه، وكانوا حلفاء الخزرج، فقام عبد الله بن أبي بن سلول فقال: يا محمد، أحسن في موالي فسكت رسول الله، فكرر عبد الله كلامه، فأعرض عنه رسول الله فأدخل يده في جيب درع رسول الله، فغضب الرسول وقال: أرسلني، ويحك أرسلني.

قال عبد الله: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر ـــ مقاتل لا درع له ـــ وثلاثمائة دارع ـــ لابس الدرع ـــ قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة.

ومشى عبادة بن الصامت، أحد بني عوف، وكان بنو قينقاع حلفاء كذلك لقومه، فخلعهم إلى رسول الله، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلقهم، قائلا: أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.

هذا وقد كانت غزوة بني قينقاع بعد بدر، كما كانت غزوة بني النضير بعد أحد، وغزوة بني قريظة بعد الخندق[1].

١٥ ــ غزوة زيد بن حارثة إلى القردة من مياه نجد في السنة الثالثة

أصبحت قوافل قريش إلى الشام تتجنب طريق الشام بعد غزوة بدر، وتسلم طريق نجد، وفي ذلك يقول حسان:

دعوا فلجات الشام قد حال دونها   جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم   وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
إذا سلكت للغور من بطن عالج   فقولا لها: ليس الطريق هنالك

وخرج أبو سفيان وقومه معه بأموال جليلة إلى الشام سالكين طريق نجد إلى الشام.

فبعث رسول الله زيد بن حارثة للقائهم في طريق نجد، فسار حتى لقيهم على ماء القردة.

فأصاب قوافل قريش وما فيها فأخذها، وقدم بها على رسول الله.

(١) ٢: ١٩٢ زاد المعاد.

١٦ ـــ مقتل كعب بن الأشرف
في السنة الثانية

١ ـــ بعد هزيمة بدر وصل النبأ إلى المدينة على أيدي زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، بالفتح وبمقتل أشراف قريش.

فملك الحقد قلب كعب بن الأشرف، وأخذ يهذي ويقول: هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ثم خرج كعب إلى مكة، فجعل يحرض على رسول الله، وينشد القصائد يبكي فيها قتلى قريش في بدر، ومن شعره:

قتلت سراة الناس حول حياطهم   لا تبعدوا إن الملوك تصرع

وعاد كعب إلى المدينة ليشبب بنساء المسلمين.

فقال رسول الله لأصحابه: من لي بابن الأشرف ؟
فأجاب محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله، أنا أقتله.
فقال ﷺ: فافعل.
فعاد محمد بن مسلمة[1] إلى منزله، فجلس ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا القليل الأقل.

وانضم إلى محمد بن مسلمة: سلكان بن سلامة، وهو أخو كعب من الرضاعة، ومعهما عباد بن بشر، والحارث بن أوس، ومشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم فقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم.

---

(١) توفي عام ٤٢ هـ عن ٧٧ سنة (٢: ٢٦٦ ـــ ٢٦٩ سير أعلام النبلاء).

أرسلوا جميعاً سلكان إلى كعب، فتحدث معه ساعة، وتناشدا الشعر، ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف، جئتك لحاجة أريد ذكرها لك، فاكتم عني.. قال: افعل. قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل، حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا.

فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول.

فقال سلكان: قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك، وتحسن في ذلك.

فقال كعب: أترهنوني أبناءكم؟

قال سلكان: لقد أردت أن تفضحنا، إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الدروع ما فيه وفاء، وأراد سلكان أن لا ينكر كعب السلاح والدروع إذا جاءوا بها، فقال: إن في الدروع لوفاء.

ورجع سلكان إلى أصحابه، وأخبرهم، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إلى كعب، وأقبلوا في ليلة مقمرة حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به سلكان، وكان كعب حديث عهد بعرس، فنزل ففتح لهم، وتحدث معهم.

قال لهم كعب: أترهنوني نساءكم؟، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم؟

قال: أترهنوني أبناءكم؟

قالوا: أأردت أن تفضحنا؟

ثم تحدث معهم، وتحدثوا معه، وقالوا له: هل لك يا ابن الأشرف

أن تسير إلى شعب العجوز، فنتحدث بقية ليلتنا هذه؟ قال لهم: إن شئتم.

فخرجوا يتماشون. فشموا ساعة، ثم أدخل سلكان يده في شعر رأسه، ثم شم يده، وقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها، حتى أطمأن، ثم مشى ساعة. ثم عاد لمثلها، فأخذ برأسه وقال: اضربوا عدو الله، فضربوه بسيوفهم فلم تغن شيئاً، وصاح كعب صيحة أيقظت أهل الحصون من حولهم، فأخذ سلكان سكيناً فغرزها في بطنه فوقع عدو الله.

وخرجنا، فجئنا رسول الله وهو قائم يصلي آخر الليل، فسلمنا عليه، فأخبرناه بقتل عدو الله، ورجعنا إلى أهلنا... وذلك لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة الثالثة.

فأصبحنا وقد خافت اليهود، فليس بالمدينة يهودي إلا وهو يخاف على نفسه.

٣ ـــ وقال رسول الله: من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه، فقتل بعض المسلمين عدداً من اليهود الذين أخذوا يتآمرون على الإسلام وعلى رسول الله.

١٧ ـــ غزوة أحد
وهي في شوال من السنة الثالثة للهجرة

١ ـــ لما أصيب يوم بدر من كفار قريش، من أصيب، ورجع المهزومون منهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بتجارة قريش سار جماعة من القرشيين، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان وأصحاب التجارة، وقالوا: يا معشر قريش، إن محمدا قد

وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا ندرك منه ثأرنا.. ففعلوا.

فأجمعت قريش لحرب رسول الله، وللأخذ بالثأر، وأخذ أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي يحرض كنانة وقبائل تهامة على حرب رسول الله، وكان قد أسر يوم بدر، فقال: يا رسول الله، إني فقير ذو عيال وحاجة، فامنن علي، فمن عليه رسول الله. فاجتمع إليه في مكة صفوان بن أمية، فقال له: يا أبا عزة، إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك، فاخرج معنا، فقال: إن محمدا قد مَنَّ علي فلا أريد أن أظاهر عليه، قال: أعِنَّا بنفسك، ولك والله عليّ إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي، ويصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر.. فأجابه أبو عزة، وجعل يطوف في تهامة، ويدعو بني كنانة وخرج كذلك مساقع الجمحي إلى بني كنانة يحرضهم على رسول الله.

٢ ـــ وجاء يوم المعركة التي أرادتها قريش، وصنعتها للانتقام.

فخرجت قريش بحدها وجدها، ومعها أحابيشها وحلفاؤها، وأخذوا النساء معهم التماساً للحفيظة، ومنعاً من الفرار.

وقاد هذه الجموع أبو سفيان، وخرج بهند بنت عتبة، وخرج عكرمة ابن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية ببرزة الثقفية، وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه ابن الحجاج، وخرج الكثير ومع كل منهم امرأته.

وسار جيش قريش إلى المدينة حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة، وذلك يوم الخميس السادس من شوال في السنة الثالثة للهجرة.

فجمع رسول الله أصحابه واستشارهم وقال لهم: « إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوها علينا قاتلناهم فيها ».

وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله.. ولكن أصحاب رسول الله، أو الكثير منهم، ممن لم يشهدوا بدرا قالوا: يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا.

فقال ابن سلول: يا رسول الله، أقم بالمدينة، لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

فلم يزل الناس برسول الله حتى دخل، فلبس لأمته(١)، ثم خرج عليهم وقد ندم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله، ولم يكن لنا ذلك، وقالوا لرسول الله: يا رسول الله، استكرهناك، ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل.

وخرج رسول الله في ألف من أصحابه، والمشركون في ثلاثة آلاف فيهم مائتا فارس وسبعمائة محارب مسلح، وذلك بعد عام كامل من غزوة بدر، وكان خروج رسول الله يوم الجمعة السابع من شوال من السنة الثالثة للهجرة وفي جيش رسول الله فارسان اثنان، ومائة محارب مسلح واستعمل رسول الله على المدينة ابن أم مكتوم، وفي الطريق بين المدينة وأحد جمع ابن سلول اليهودي أنصاره وعاد بهم إلى المدينة

---

(١) اللأمة الدرع أو السلاح كله.

وهو يتعلل ويقول: « أطاع أصحابه وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟ » وحاول عبد الله بن عمرو بن حرام أن يرده هو ومن معه إلى أرض المعركة فأبى عبد الله بن أبي بن سلول، وقال لهم ابن حرام: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم. ولما استعصوا عليه قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عز وجل نبيه عنكم.

وقال الأنصار لرسول الله: ألا نستعين بحلفائنا من يهود، قال: لا حاجة لنا فيهم، وظهر من اليهود الغدر وسوء القصد، من مثل مربع ابن قيظي وغيره.

ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال.

واستعد رسول الله للقتال، وهو في سبعمائة رجل، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير، وكان عدد الرماة خمسين رجلا، وقال له: انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك.

ولبس رسول الله درعين، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، ولم يشترك في المعركة زيد بن ثابت، ولا عبد الله بن عمر، ولا البراء ابن عازب، كانوا أبناء خمس عشرة سنة.

وكان على ميمنة المشركين خالد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل.

وقال رسول الله: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجال، فأبى ﷺ دفعه إليهم، حتى قام أبو دجانة: قال: وما حقه يا رسول

الله؟ قال: أن تضرب به العد وحتي ينحني، فقال أبو دجانة: أنا آخذه يا رسول الله بحقه، فأعطاه إياه، فأخذه وعصب رأسه بعصابته، وجعل يتبختر بين الصفين، وقال رسول الله حين رآه كذلك: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن(١).

٣ ــ وخيانة ابن سلول في أحد يقابلها صنيع يهودي آخر، هو أبو عامر(٢)، عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان من بني ضبيعة، كان بعد الهجرة قد أبغض الإقامة في المدينة، لمكان الإسلام والمسلمين والرسول فيها. فخرج إلى مكة مباعدا لرسول الله، ومعه خمسون شابا من الأوس، وأخذ يحرض على رسول الله، ويقول لقريش: إن حربا لو قامت ورآه أهل المدينة من الأوس مع قريش، فسوف يخرجون جميعا من صفوف محمد إلى صفوف قريش، ولن يبقى مع محمد أحد منهم.

فلما نشبت معركة أحد كان أبو عامر أول من برز لهم ومعه الأحابيش وعبدان أهل مكة، فأخذ ينادي: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، فردوا عليه: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق، وكان في الجاهلية يسمى الراهب، فسماه رسول الله الفاسق، فلما سمع ردهم، قال: لقد أصاب قومي بعدي شر.. وأخذ يقاتلهم قتالا شديدا، ويرميهم بالحجارة.

---

(١) قتل أبو دجانة في موقعة اليمامة عام ١٢ هـ، وموقفه يوم أحد معروف (١٧٥ ــ ١/١٧٧ سير أعلام النبلاء، /٣٧١ تاريخ الإسلام للذهبي، الطبقات لابن سعد، ٣/٢: ١٠١، ٢/٢ ــ ٣ أسد الغابة، ٥٧/٧ الإصابة).

(٢) ابو عامر الراهب قد تنصّر في الجاهلية، وصار إلى رهبنة وعبادة. وكان كثير التحدث للناس باوصاف النبي التي عرفها من التوراة والانجيل، ولكن لما هاجر النبي ﷺ الى المدينة، وصارت فيها للاسلام كلمة عالية، انتكس ابو عامر هذا وانسلخ من آيات الله والتهم قلبه الحقد على النبي ﷺ وبارزه بالعداوة والبغضاء. =

٤ ــ وكان لأبي سفيان في التحريض على القتال مواقف مشهورة، قال لأصحاب لواء المشركين، من بني عبد الدار: يا بني عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا في بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا، ستعلم غدا إذا التقينا، كيف نصنع، وذلك هو ما أراده أبو سفيان، وكان

= واتخذ سبيله الى المشركين بمكة لاستثارتهم الى حربه حتى تمَّ له ما اراد بغزوة أُحُد التي اصاب المسلمين فيها ما اصابهم.. وكان من امر هذا الفاسق في تلك الغزوة ان حفر حفائر فيما بين الصفّين. فوقع في احداهن رسول الله ﷺ فجرح وجهه وكسرت رباعيته وشجَّ رأسه. وكان من امره ايضاً انه تقدم في اول المبارزة الى قومه من الأنصار واخذ يستميلهم الى جانب المشركين عن طريق المخادعة والعدة.

وقد كشف لهم ايمانهم الصادق دخيلته وهدفه، فعرفوا نيته ومقصده وبادروه بتلك الكلمة الحازمة التي ردته على اعقابه: « لا أنعم الله بك عيناً، يا فاسق ويا عدو الله ». فرجع وهو يقول: « لقد اصاب قومي شرّ بعدي ».

وانقلب هائماً على وجهه في القبائل يغريهم بقتال النبي واصحابه. واخيراً ذهب الى ملك الروم يستنصره على النبي، فوعده ومنّاه، « وما وعد الشيطان إلا غروراً ».

وكتب الى جماعة من قومه المنافقين يعدهم هو ايضاً ويمنّيهم. يعدهم انه سيقدم عليهم بجيش جرار يقاتل به المسلمين ويردهم عما هم فيه. واشار عليهم ان يتخذوا معقلاً يكون مرصداً له. ولجيش حلفائه الذي وعد به.

وهنا فكّر قومه المنافقون ودلّهم الشيطان على فكرة انشاء مسجد في مكان قريب من مسجد قباء. فبنوه بقصدهم السيّئ وشيّدوه واحكموه. ثم جاءوا الى الرسول وسألوه ان يصلي فيه ويباركه لهم.. وقالوا: « انا بنيناه للضعفاء واهل العلة في الليلة الثانية ». وليحلفن إن اردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون، برروا انشاءهم اياه بهذا الانتحال الكاذب وقصدوا بصلاة الرسول فيه ان تكون سبيلاً لاقبال المسلمين عليهم والاتصال بهم وبذلك يستطيعون اغراءهم وانتزاعهم من صفوف النبي واصحابه.. وبهم يكثر سوادهم وتقوى شوكتهم. ويعلنون محاربة الرسول حتى يخرجوه من المدينة كما اخرجه قومه من مكة.

اللواء في يدي أبي سعد بن أبي طلحة، ثم في يدي عثمان بن أبي طلحة.

وقامت الحرب، وكان القتال شديدا حامي الوطيس، وكان للقلة من أصحاب رسول الله مواقف مشهودة ومن بينهم أبو دجانة سماك ابن خرشة يروي الزبير بن العوام فيقول: وجدت نفسي، حين سألت رسول الله السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إياه قبله، فأعطاه لأبي دجانة وتركني، والله لأنظرن ما يصنع، فاتبعته. فوجدته قد أخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت له إذا تعصب بها. فجعل لا يلقي أحدا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا أجهز عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة..

فحمي نفسه، وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد رفع سيفه على مفرق رأس هند بنت عتبة وكانت مع المشركين تحرض على رسول الله، ثم عدل أبو دجانة السيف عنها. قال الزبير فقلت: والله ورسوله أعلم(١).

ومن ذوي المواقف المشهورة حمزة، وكان وحشي قاتل حمزة عبد الجبير ابن مطعم، وكان عم جبير ــ وهو طعيمة بن عدي ــ قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال له سيده جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت حر، وكان وحشي كالحبشيين

---

(١) قتل أبو دجانة سماك الساعدي الأنصاري يوم اليمامة عام ١٢ هـ، وقتل معه زيد بن الخطاب (١: ٢١٧ سير أعلام النبلاء للذهبي).

يجيد القذف بالحربة، وقلما يخطئ بها شيئاً.. وجاء حمزة في أحد يتقدم الصفوف، ويقتل في المشركين فأخذ وحشي حربته، وهزها حتى إذا رضي عنها قدفه بها فقتله، فلما مات تقدم فأخذ حربته، وخرج إلى صفوف المشركين.

ومنهم أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية، وقد عاشت إلى عهد عمر[1].

ومن ذوي المواقف المشهورة مصعب بن عمير، قاتل دون رسول الله حتى قتل، وقاتله هو ابن قميئة وكان يظن أنه رسول الله، فرجع إلى قريش وهو يقول: قتلت محمدا، وكان مصعب حامل لواء رسول الله، فلما قتل أعطى رسول الله اللواء لعلي بن أبي طالب.

ومنهم كذلك علي وغيره من الصحابة وقال أبو سفيان بن حرب من قصيدة مشهورة له:

فسلي الذي قد كان في النفس إنني ... قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرما كريما[2] ومصعبا ... وكان لدى الهيجاء غير هيوب
ولو أنني لم أشف نفسي منهم ... لكانت شجا في القلب ذات ندوب

ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده فهزموا المشركين هزيمة منكرة، وشمرت نساء قريش وفي مقدمتهن هند بنت عتبة، هاربات.

٥ ـــ وفي لحظة ترك الرماة أماكنهم، واشتغلوا بالغنائم. وكشفوا ظهور المسلمين للخيل، فأتى المسلمون من خلفهم، وصرخ صارخ:

---

(١) ٢: ٢٠٠ ـــ ٢٠٤ سير أعلام النبلاء.

(٢) يريد حمزة.

ألا إن محمداً قد قتل وتشابك الجيشان، وقتل صاحب لواء المشركين[١]، فجاءت عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش، واجتمعوا حوله.. وكسرت رباعية النبي اليمنى السفلى وجرحت شفته السفلى[٢] يوم أحد، وشج في وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم ووقع رسول الله في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر اليهودي ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ علي بيد رسول الله، ورفعه طلحة حتى استوى قائما، ومسح مالك بن سنان الدم عن وجه رسول الله، فقال ﷺ: « من مس دمه دمي لم تصبه النار ». ونزع أبو عبيدة إحدى الحلقتين من وجه رسول الله فسقطت ثنيته الأخرى، فكان ساقط الثنيتين.

وقال رسول الله حين غشيه القوم: من رجل يشري لنا بنفسه؟ فقام خمسة من الأنصار، منهم زياد بن السكن، فقاتلوا وقتلوا دون رسول الله رجلا ثم رجلا، وكان منهم أم عمارة التي قامت تباشر القتال، وتذب عن رسول الله بالسيف، وترمي عن القوس، وجاء ابن قميئة يقول دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، فاعترضت طريقه أم عمارة ومصعب بن عمير، ووقف أبو دجانة دون رسول الله، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله، وكان ﷺ يناوله النبل وهو يقول: ارم فداك أبي وأمي.

وانتهى أنس بن النضر ــ عم أنس بن مالك ــ إلى عمر وطلحة ابن عبيد الله، ورجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقوا بأيدهم، فقال:

---

(١) هو صؤاب، غلام أبي طلحة.

(٢) شج وجه النبي ﷺ في جبهته عبد الله بن شهاب الزهري وجرح وجنته ابن قميئة، فدخلت حلقتان من حلق المغفر فيها.

ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله؟ ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل وبه سبعون ضربة، وأصيب عبد الرحمن بن عوف وجرح عشرين جرحاً، وكان أول من عرف رسول الله بعد الهزيمة وقول الناس: قتل رسول الله، هو كعب بن مالك، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا. هذا رسول الله، فأشار إليه رسول الله أن أنصت.

فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا به. ونهض معهم نحو الشعب، معه: أبو بكر، وعمر، وطلحة، والزبير، ورهط من المسلمين.

وجاء أبي بن خلف، وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، ولما دنا من رسول الله تناول الرسول حربة، فطعنه بها في عنقه طعنة قتلته، وكان أبيّ هذا يلقى الرسول بمكة فيقول له: يا محمد، إن عندي فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة[1] أقتلك عليه، فيقول له رسول الله: بل أنا أقتلك إن شاء الله وغسل على الدم عن وجه رسول الله. والرسول يقول: اشتد غضب الله على من دمي وجه نبيه.

٦ ـــ وجاءت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمثلن بالقتلى من المسلمين، واتخذت هند من آذان المسلمين وأنوفهم خلاخيل وقلائد، وأعطت حليها لوحشي، وبقرت بطن حمزة، فأخرجت كبده، وجعلت تمضغها، فلم تستطع أن تستسيغها، فلفظتها، وأخذت ترتجز الشعر، وترد عليها هند بنت أثاثة بن عباد بن عبد المطلب.

ومر سيد الأحابيش الحليس بن زبان بأبي سفيان، وهو يضرب في شدق حمزة، برمحه، ويقول: ذق يا عقق أي يا عاق، فقال الحليس:

---

(١) الفرق مثل الفرح: مكيال يسع ستة عشر مداً.

يا بني كنانة هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون، فقال: اكتمها عني فإنها كانت زلة.

وصلى رسول الله الظهر يوم أحد قاعداً، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

٧ ــ وخرجت قريش من أرض المعركة، تريد العودة، فأشرف أبو سفيان على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: اعل هبل، يوم بيوم بدر، فقال رسول الله: قم يا عمر، فأجبه، فقل: الله أعلى وأجل، لا سواه، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال أبو سفيان: هلم إلي يا عامر، فقال رسول الله لعمر: ائته فانظر ما شأنه، فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن قال أبو سفيان: أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر.

ثم نادى أبو سفيان: قد كان في قتلاكم مثل، والله ما رضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت.

وانصرف أبو سفيان، ومن معه وهو يقول: إن موعدكم بدر للعام القابل، فقال، رسول الله لرجل من أصحابه: « قل له نعم، هو بيننا وبينك موعد ».

وفرغ المسلمون لقتلاهم، وقال رسول الله: من رجل ينظر إلى ما فعل سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد، فنظر، فوجده جريحاً وبه رمق، فقال: أبلغ رسول الله عني السلام، وقل له: إن سعد ابن الربيع يقول لك جزاك عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف، ثم لم يبرح حتى مات.

٨ ــ وخرج رسول الله يلتمس حمزة، فوجده ببطن الوادي قد

بقر بطنه عن كبده، ومثل به، فجدع أنفه وأذناه، فقال: لولا أن تحزن صفية تكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهر الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم وقال المسلمون: لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم، وقال رسول الله حين وقف على حمزة: لن أصاب بمثلك أبداً، ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع حمزة بن عبد المطب أسد الله وأسد رسوله، وكان رسول الله وحمزة وأبو سلمة إخوة من الرضاعة، أرضعتهم مولاة لأبي لهب ــ اسمها ثويبة ــ ونزل قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ** ﴾[1].

وأمر رسول الله بحمزة فسجي ببرده، ثم صلى عليه، فكبر سبع تكبيرات ثم أتى بالقتلى يوضعون إلى جانب حمزة، فصلى عليهم وعليه معه، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة.

وأقبلت صفية لتنظر إلى أخيها حمزة، فقال رسول الله لابنها الزبير: القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها فقال لها: إن رسول الله يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم وقد بلغني أنه قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فجاء الزبير، فأخبر رسول الله بذلك، فقال: خلي سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله فدفن.

٩ ــ وانصرف رسول الله راجعاً إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش، فلما لقيت الناس نعي لها أخوها عبد الله فاسترجعت فاستغفرت له، ثم نعي لها خالها حمزة فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعي لها

---

(١) سورة النحل آية ١٢٦.

زوجها مصعب فصاحت وولولت، فقال رسول الله: إن زوج المرأة منها لبمكان.

وسمعت امرأة من بني دينار أن زوجها وأخاها وأباها قد أصيبوا في أحد: فقالت: فما فعل رسول الله، قالوا: خيراً وبحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدكم جلل يا رسول، أي صغيرة.

وانتهى رسول الله إلى أهله، فناول سيفه ابنته، فاطمة، فقال: اغسلي عن هذا دمه يا بنية فوالله قد صدقني اليوم، وناولها علي سيفه: وقال: وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم: فقال رسول الله: لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة.

وروي ابن إسحاق أن يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال.

١٠ ــ وكان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين ومحق به المنافقين، وأكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة. ونزل فيه ما نزل من القرآن الكريم من سورة آل عمران.

ولما قدم رسول الله المدينة أخذ عبد الله بن أبي بن سلول كعادته في النفاق، وكان له مقام يقومه كل جمعة، لا ينكر، شرفاً له في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفاً. فإذ جلس رسول الله يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ابن سلول فقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله به، وأعزكم به، فانصروه وعززوه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس. فلما كان يوم أحد وعاد الرسول إلى المدينة، قام ابن سلول يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت فخرج وهو يقول والله لكأنما قتل بجرا[١] فلقيه رجل من

---

(١) هو الشر والأمر العظيم.

الأنصار بباب المسجد، فقال له: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله، قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

شهداء يوم أحد[1]

(أ) منهم من المهاجرين

١ ــ حمزة.

٢ ــ عبد الله بن جحش الأسدي ابن أخت حمزة، وقد دفنا في قبر.

٣ ــ عثمان بن عثمان المخزومي، وفي ابن هشام: شماس بن عثمان.

٤ ــ مصعب بن عمير شهيد أحد (٣ هـ).

(ب) ومن الأنصار من الأوس

٥ ــ حنظلة بن أبي عامر بن صيفي، غسيل الملائكة.

٦ ــ عمرو بن معاذ الأوسي.

٧ ــ وابن أخيه الحارث بن أوس.

٨ ــ والحارث بن أنيس.

٩ ــ وعمارة بن زياد بن السكن.

١٠ ــ ورفاعة بن وقش.

١١و١٢ ــ وابنا أخيه: عمرو وسلمة ابنا ثابت بن وقش.

١٣ ــ صيفي بن قيظي.

١٤ ــ جناب بن قيظي.

١٥ ــ عباد بن سهل.

١٦ ــ عبيد بن التيهان.

١٧ ــ حبيب بن زيد.

---

(١) ٣:٧٥ سيرة ابن هشام، ١٠٤ ــ ١/١٠٧ سير أعلام النبلاء ــ وقد عدّ ابن إسحاق الشهداء خمسة وستين وأوصلهم ابن هشام إلى السبعين.

١٨ ــ إياس بن أوس.
١٩ ــ اليمان، والد حذيفة.
٢٠ ــ زيد بن خاطب الظفري.
٢١ ــ أبو سفيان بن حارث بن قيس.
٢٢ ــ مالك بن أمية.
٢٣ ــ عوف بن عمرو.
٢٤ ــ أبو حية بن عمرو.
٢٥ ــ عبد الله بن جبير بن النعمان.
٢٦ ــ خيثمة والد سعد.
٢٧ ــ حليفه، عبد الله بن سلمة.
٢٨ ــ سبيع بن حاطب.
٢٩ ــ حليفه، مالك.
٣٠ ــ عمير بن عدي.

(ج) ومنهم من الخزرج

٣١ ــ عمرو بن قيس.
٣٢ ــ ابنه، قيس بن عمرو.
٣٣ ــ أخوه ثابت بن عمرو.
٣٤ ــ عامر بن مخلد.
٣٥ ــ أبو هبيرة بن الحارث.
٣٦ ــ عمرو بن مطرف.
٣٧ ــ إياس بن عدي.
٣٨ ــ أوس بن ثابت.
٣٩ ــ أنس بن النضر.
٤٠ ــ قيس بن مخلد، النجاريون.

٤١ ـــ كيسان مولي بني النجار.
٤٢ ـــ سليم بن الحارث.
٤٣ ـــ نعمان بن عبد عمرو.

(د) ومن بني الحارث بن الخزرج

٤٤ ـــ خارجة بن زيد بن أبي زهير.
٤٥ ـــ أوس بن أرقم.
٤٦ ـــ مالك بن سنان، والد أبي سعيد الخدري.
٤٧ ـــ سعيد بن سويد.
٤٨ ـــ عتبة بن ربيع.
٤٩ ـــ ثعلبة بن سعد.
٥٠ ـــ ثقف بن فروة.
٥١ ـــ عبد الله بن عمرو.
٥٢ ـــ ضمرة الجهني.
٥٣ ـــ عمرو بن إياس.
٥٤ ـــ نوفل بن عبد الله.
٥٥ ـــ عبادة بن الحسحاس.
٥٦ ـــ عباس بن عبادة.
٥٧ ـــ نعمان بن مالك.
٥٨ ـــ المجذر بن زياد البلوي.
٥٩ ـــ رفاعة بن عمرو.
٦٠ ـــ مالك بن إياس.
٦١ ـــ عبد الله، والد جابر.
٦٢ ـــ عمرو بن الجموح.
٦٣ ـــ خالد، ابنه.

٦٤ ــ أسير، مولاه.
٦٥ ــ سليم بن عمرو بن حديدة.
٦٦ ــ عنترة، مولاه.
٦٧ ــ سهيل بن قيس.
٦٨ ــ ذكوان بن عبد قيس.
٦٩ ــ عبيد بن المعلى بن لوذان.
٧٠ ــ سعد بن الربيع خزرجي قتل في أحد، كما في سير أعلام النبلاء للذهبي (١: ٢٣٠).

قتلى المشركين يوم أحد

١ ــ طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار من أصحاب اللواء.
٢ ــ أخوه، أبو سعد.
٣ ــ أخوه، عثمان.
٤ ــ ابنه، مساقع بن طلحة.
٥ ــ ابنه الجلاس بن طلحة.
٦ ــ ابنه، كلاب بن طلحة.
٧ ــ أرطاة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف.
٨ ــ ابن عمير بن هاشم، أبو زيد.
٩ ــ صؤاب، غلام له حبشي.
١٠ ــ القاسط بن شريح بن هاشم.
١١ ــ عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث.
١٢ ــ أبو الحكم بن الأخنس بن شريق.
١٣ ــ سباع بن عبد العزى، حليف لهم من خزاعة.
١٤ ــ هشام بن أمية بن المغيرة.
١٥ ــ الوليد بن العاص بن هشام بن المغيرة.

١٦ ـــ أبو أمية بن أبي حذيفة بن المغيرة.
١٧ ـــ خالد بن الأعلم، حليف لهم.
١٨ ـــ عمرو بن عبد الله بن عمير، وهو أبو عزة.
١٩ ـــ أبي بن خلف الجمحي.
٢٠ ـــ عبيدة بن جابر.
٢١ ـــ شيبة بن مالك.
٢٢ ـــ الحارث بن طلحة.

الشعر في معركة أحد

وهو كثير لا ينتهي.

١ ـــ قال هبيرة بن أبي وهب المخزومي قصيدته:

ما بال هم عميد بات يطرقني ... بالود من هند إذ تعدو عواديها

فرد عليه حسان بقصيدته:

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم ... إلى الرسول، فجند الله مخزيها

ورد عليه كعب بن مالك بقصيدته:

وفينا رسول الله نتبع أمره ... إذا قال فينا القول لا نتطلع

٢ ـــ وقال ابن الزبعرى في يوم أحد في قصيدته:

يا غراب البين أسمعت فقل ... إنما تنطق شيئاً قد فعل

فأجابه حسان بقصيدته:

ذهبت بابن الزبعري وقعة ... كان منا الفضل فيها لو عدل

٣ ـــ وقال كعب بن مالك يرثي حمزة قصيدته:

نشجت وهل لك من منشج ... وكنت متى تذكر تلجج

فأجابه ضرار بن الخطاب الفهري بقصيدته:

أيجـزع كـعب لأشياعـه ويبكـي مـن الزمـن الأعـوج

٤ ــ وقال ابن الزبعرى في يوم أحد قصيدته:

ألا ذرفت مـن مقلتيك دمـوع وقد بان من حبل الشباب قطوع

فأجابه حسان بقصيدته:

عفاهن صيفـي الريـاح وواكـف من الدلو رجاف السحاب هموع

٥ ــ وقال عمرو بن العاص في يوم أحد قصيدته:

خرجنا من الفيفا عليهـم كأننـا مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق

فأجابه كعب بن مالك بقصيدته:

ألا أبلغا فهراً على نأي دارهـا وعندهم من علمنا اليوم مصدق

٦ ــ وقال ضرار بن الخطاب قصيدته:

إنـي وجـدك لا أنـفك منتطقـاً بصارم مثل لـون الملـح قطـاع

وقال أيضاً قصيدته:

لا تجزعوا يا بني مخزوم إن لكم مثل المغيرة فيكم ما بـه رهـق

٧ ــ وقال عمرو بن العاص قصيدته:

لمـا رأيت الحـرب ينـزو شرهـا بالرضـف نـزوا
أيقـنت أن المـوت حـق والحيـاة تكـون لغـوا

فأجابه كعب بن مالك بقصيدته:

أبلغ قريشاً وخير القول أصدقه والصدق عند ذوي الألباب مقبول

٨ ــ وقال حسان قصيدته:

منـع النـوم بالعشـاء الهمـوم وخيـال إذا تغـور النجـوم

وهي من أروع قصائد حسان.

٩ ــ وقال الحجاج بن علاط السلمي قصيدته في مدح علي:

لله أي مـــذبب عـــن حرمـــة أعني ابن فاطمة المعم المخولا

١٠ ــ وقال حسان يرثي حمزة والشهداء قصيدته:

يـــا مـــي قومـــي فاندبـــن بسحـــرة شجـــو النوائـــح

وقال أيضاً قصيدته:

أتعـرف الـدار عفـا رسمهـا بعدك صوب المسبل الهاطل

التي بكى فيها حمزة.

١١ ــ وقال كعب يرثي حمزة أيضاً:

طرقت همومك فالرقاد مسهـد وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد

وقال أيضاً قصيدته:

صفيـــة قومـــي ولا تعجـــزي وبكـي النسـاء علـى حمـــزة

وقال أيضاً في يوم أحد:

إنك عمـــر أبـــيك الكريـــــم إن تسألي عنك من يجتدينا

وقال أيضاً قصيدته:

أبلـــغ قريشـــاً علـــى نأيهـــا أتفخـر منـا بمـا لـم تلـي

وقال أيضاً في يوم أحد قصيدته:

سائل قريشاً غداة السفح من أحد ماذا لقينا وما لاقوا من الهرب

١٢ ــ وقال عبد الله بن رواحة يرثي حمزة قصيدته:

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكـاء ولا العويـل؟

١٣ ــ وقال ضرار بن الخطاب في يوم أحد:

ما بال عينك قد أزرى بها السهد كأنما جال في أجفانها الرمد

١٤ ـــ وقال أبو زعنة الخزرجي في يوم أحد رجزاً، وقال غيره شعراً كثيراً.

١٥ ـــ وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثي حمزة أخاها قصيدتها:

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا بكاء وحزناً، محضري ومسيري[1]

وأقام رسول الله في المدينة بقية شهر شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم.

١٨ ـــ غزوة حمراء الأسد

وفي يوم الأحد لست عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة، أذن مؤذن رسول الله في الناس بطلب العدو وأن لا يخرج لطلبه إلا من كان قد لقيه في أحد، وإنما خرج رسول الله مرهباً للعدو، وليعلمهم أن الذي أصابه هو وأصحابه لم يوهنهم عن عدوهم.

فخرج رسول الله إلى حمراء الأسد، على ثمانية أميال من المدينة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

وأقام رسول الله في حمراء الأسد يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة يوم الخميس لعشرين من شوال من السنة الثالثة للهجرة.

ومر برسول الله في حمراء الأسد معبد الخزاعي، وهو يومئذ مشرك وخزاعة مسلمهم وكافرهم مع رسول الله بتهامة لا يخفون عنه شيئاً

(١) وراجع مجلة الأزهر عدد المحرم وصفر وربيع الأول عام ١٣٨٤ في بحث « غزوة أحد بين القرآن والشعر » لبعض الكتاب.

كان بها فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم خرج وسار إلى مكة، فلقي أبا سفيان بالروحاء وقد عزم أبو سفيان وأصحابه على الرجعة إلى رسول الله وأصحابه، ليستأصلوهم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، قد اجتمع من تخلف عنكم في يومكم وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك ما تقول! قال: والله ما رأى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل.

قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، فثني ذلك أبا سفيان ومن معه.

ومر بأبي سفيان ركب من عبد القيس، فقال:

ــ أين تريدون.

قالوا: نريد المدينة.

ــ ولم؟

ــ نريد الميرة.

ــ فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه؟

ــ نعم.

ــ قال: فإذا وافيتم محمداً فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصلهم.

فمر الركب برسول الله، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وتشاور أبو سفيان وأصحابه في الرجوع إلى محمد، فقال لهم.صفوان

ابن أمية بن خلف: لا تفعلوا فإن القوم قد غضبوا، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا، فرجعوا.

وأسر رسول الله وهو في حمراء الأسد معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، وأبا عزة الجمحي، الذي كان رسول الله أسره ببدر ثم مَنَّ عليه. فقال أبو عزة: يا رسول الله أقلني، قال: لا، والله لا تمسح عارضيك بمكة، وتقول: خدعت محمداً مرتين، فقتله الزبير أبو عاصم ابن ثابت وقتل عمار بن ياسر أو زيد بن حارثة معاوية بن المغيرة بعد حمراء الأسد.

١٩ ــ يوم الرجيع
سنة ثلاث من الهجرة
آخر شوال من العام الثالث للهجرة

١ ــ قدم على رسول الله بعد « أحد » رهط عضل والقارة.

فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام.

فبعث الرسول معهم ستة من أصحابه:

١ ــ مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وهو رئيسهم.

٢ ــ خالد بن البكير الليثي.

٣ ــ عاصم بن ثابت، وهو الذي حمته مقتولا الدبر (النحل).

٤ ــ خبيب بن عدي.

٥ ــ زيد بن الدثنة.

٦ ــ عبد الله بن طارق.

وخرجوا مع الرهط، فلما وصلوا الرجيع ـــ ماء لهذيل بناحية الحجاز غدر الرهط بهم، وغشوا المسلمين بالسيوف فقتلوا عاصما ومرثداً وخالدا وأما الثلاثة الباقون فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران نزع عبد الله بن طارق يده من الحبل، ثم أخذ سيفه ليقاتل الرهط فرموه بالحجارة، فقتلوه وأما خبيب وزيد فقدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.

أما زيد فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بابيه أمية بن خلف الذي قتل في بدر. وخرجوا به من المحرم ليقتل، واجتمع رهط من قريش منهم أبو سفيان، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، وقتلوا زيداً.

وأما خبيب فحبسوه عند بني الحارث لأنه كان قد قتل بعضهم في بدر، وقدموه ليقتل بأبي أهاب التميمي، فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين، فافعلوا، قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من مقتل لاستكثرت من الصلاة، فلما رفعوه على خشبة، قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا، ثم قال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحداً، ثم قتلوه رحمه الله.

٢ ـــ وقال حسان يرثي خبيبا قصيدته:

ما بال عينك لا ترقا مدامعها   سحا على الصدر مثل اللؤلؤ الفلق

وقصيدته الأخرى:

يا عين جودي بدمع منك منسكب   وابكي خبيبا مع الفتيان لم يؤب

وقصيدة ثالثة أخرى[1]، ولحسان قصيدة يهجو فيها هذيلا فيما صنعوا بخبيب، ومنها:

أجرتم فلما أن أجرتم غدرتم وكنتم بأكناف الرجيع لها ذما

وله قصيدة أخرى يهجوهم بها:

سألت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

وقصيدة أخرى يهجوهم بها، ومنها:

همو غدروا يوم الرجيع وأسلمت أمانتهم ذات عفة ومكارم

وقصيدة أخرى يقول فيها:

همو قتلوا يوم الرجيع ابن حرة أخا ثقة في وده وصفاء

وقصائد أخرى له في هذا الباب..

لكن الرسول العظيم صلوات الله عليه الذي أبلغه الله أنباء وفده استجابة لدعوة عاصم، بعث عمرو بن أمية الضمري فدائياً يأتيه بالأخبار يقول عمرو: « وصلت مكة، فجئت إلى خشبة خبيب، وأنا أتخوف العيون فرقيت إليها فحللت خبيبا فوقع على الأرض، فانتبذت غير بعيد، ثم التفت، فلم أر لخبيب أرمة (أي جثة) فكأنما الأرض ابتلعته، فلم تذكر لخبيب أرمة حتى الساعة »[2].

وظل رسول الله ﷺ يدعو شهراً في صلاته على الغادرين « عضل والقارة » وكان رجزه يوم الخندق « اللهم العن عضلا والقارة »!!

---

(١) راجع ترجمة خبيب في ١/١٧٧ سير أعلام النبلاء، ٣/١١١ أسد الغابة ٢/١٠٣ الاصابة.

(٢) بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمري إلى مكة وبعث معه رجلا من الأنصار إثر هذه الحادثة لقتل أبي سفيان، فلم يستطيعا شيئاً لأن أهل مكة عرفوهما وعادا إلى المدينة (٢: ٢١٦ ــ ٢١٨ الطبري ــ مطبعة الاستقامة عام ١٩٣٩).

٢٠ ــ أبو سلمة إلى أبي قطن

وبعث رسول الله أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي الرجل الصالح إلى أبي قطن في المحرم سنة أربع من الهجرة، فغاب تسعاً وعشرين ليلة ثم رجع في صفر. وجرحه الذي أصابه يوم أحد يزداد شدة، فمات منه لثمان خلون من جمادي الآخرة، وتزوج رسول الله زوجته بعده في شوال عام ٤ هـ.

٢١ ــ غزوة بئر معونة
في صفر من السنة الرابعة

في صفر على رأس أربعة أشهر من غزوة أحد، وقعت غزوة بئر معونة.
وسببها أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر، ملاعب الأسنة، قدم على رسول الله المدينة فعرض عليه الرسول الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم، فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله المنذر بن عمرو في أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين، منهم: الحارث بن الصمة، وعامر بن فهيرة مولي أبي بكر، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وغيرهم.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة ــ وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم ــ فلما نزلوها بعثوا بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل فلما أتاه قتل الرسول، واستصرخ على وفد الرسول بني عامر، فأبوا أن يجيبوه، فاستصرخ قبائل من بني سليم وذكوان، فأجابوه إلى ذلك،

وخرجوا فأحاطوا بالمسلمين وقتلوهم عن آخرهم إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق، وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف وهو المنذر بن محمد، فقاتل الأنصاري القوم حتى قتل، وأخذوا عمر بن أمية أسيرا، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل، وجز ناصيته، فقدم على رسول الله، فأخبره الخبر، فقال رسول الله: هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً.

وممن قتل في بئر معونة: عامر بن فهيرة رحمه الله. ولحسان وعبد الله بن رواحة وأنس بن عباس السلمي وكعب بن مالك قصائد في يوم بئر معونة.

٢٢ ــ إجلاء بني النضير
في شهر ربيع الأول من العام الرابع من الهجرة

١ ــ خرج رسول الله إلى بني النضير، يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما عمرو بن أمية الضمري، أثناء خروجه من أرض بني عامر بعد يوم بئر معونة، وكان القتيلان معهما عهد من رسول الله، وكان بين بني عامر وبني النضير عقد وحلف.

فلما كلمهم رسول الله، قالوا: نعم، نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم إن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، ورسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه، وصعد عمرو بن جحاش إلى البيت..

فأتى رسول الله الخبر من السماء، ومعه أبو بكر وعمر وعلي، فقام

وخرج راجعاً إلى المدينة، وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

ثم سار حتى نزل بهم، وذلك في شهر ربيع الأول.

وحاصر رسول الله بني النضير ست ليال[1]، ونزل فيها تحريم الخمر.

٢ ـــ تحصن اليهود من رسول الله في الحصون، فأمر رسول الله بقطع النخيل والتحريق فيها، وكان رهط من يهود الخزرج، منهم عبد الله بن أبي بن سلول، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فانتظر بنو النضير العون منهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الدروع، فقبل ﷺ منهم ذلك، وخرج بعضهم إلى خيبر، والبعض إلى الشام، وخلوا الأموال لرسول الله، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة فقد ذكرا حاجة، فأعطاهما رسول الله.

وأسلم رجلان من بني النضير على أموالهما فأحرزاها.

ونزلت في ذلك سورة الحشر بأسرها، ولابن لقيم العبسي وعلي ابن أبي طالب وكعب بن مالك وعباس بن مرداس السلمي، قصائد في ذلك:

وقال سماك اليهودي الكذاب يرد على المسلمين:

---

(١) في الطبري (٢: ٢٢٥): خمسة عشر يوماً.

إن تفخروا فهو فخر لكم　　بمقتل كعب أبي الأشرف
غداة غدوتم على حتفه　　ولم يأت غدراً ولم يخلف

وكذلك قال خوان بن جبير اليهودي يرد على المسلمين قصيدة أخرى.

ثم أقام رسول الله ﷺ في المدينة بعد غزوة بني النضير شهر ربيع الآخر وبعض جمادي.

٢٣ ـ غزوة ذات الرقاع
في العام الرابع من الهجرة في جمادى الأولى

١ ـ وزعم الواقدي أن هذه الغزوة كانت في المحرم من السنة الخامسة للهجرة.

غزا رسول الله نجدا يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري، ويقال: عثمان بن عفان، وسار حتى نزل (نخلا).. وهذه الغزوة هي غزوة ذات الرقاع، وسميت بذلك لأن المسلمين رفعوا فيها راياتهم، أو أن ذات الرقاع اسم شجرة بذلك الموضع[1].

ولقي رسول الله بها جمعا عظيما من غطفان فاقترب الجيشان بعضهما

---

(١) وروي البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع رسول الله، ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرقة، فسميت ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا.

وقيل: سميت هذه الغزوة ذات الرقاع، لأن الجبل الذي كانت به هذه المعركة جبل به سواد وبياض وحمرة (٢: ٢٢٧ الطبري).

من بعض ولم يكن بينهم حرب وخاف الناس بعضهم بعضا، حتى صلى رسول الله بالمسلمين صلاة الخوف ثم انصرف بالناس.

٢ — وفي هذه الغزوة، حاول رجل من بني محارب وغطفان قتل رسول الله، واسمه.. غورث، قال لقومه ألا أقتل لكم محمدا؟ قالوا بلى، وكيف تقتله؟ قال أفتك به.. فأقبل إلى رسول الله وهو جالس وسيف الرسول في حجره، فقال: يا محمد، أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم، وكان السيف محلي بالفضة، فأخذه، فاستله، ثم جعل يهزه، ويهم بقتل رسول الله فما يستطيع، ثم قال: يا محمد، أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: لا، يمنعني الله منك: ثم عمد إلى سيف رسول الله فرده عليه[1] فأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكم إِذْ هُم قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُم أَيْدِيَهُم، فَكَفَّ أَيْدِيَهُم عَنْكُم** ﴾[2]. وقيل نزل في عمرو بن جحاش من بني النضير وما هم به من قتل رسول الله.

وعاد رسول الله إلى المدينة فلما وصل ضراراً، وهي على ثلاثة أميال نزل رسول الله بأصحابه، فاستراحوا وأمر بجزور فنحرت فطعموا.

ولما قدم رسول الله المدينة من غزوة ذات الرقاع أقام بها بقية جمادي الأولى وجمادي الآخرة، ورجبا.

---

(١) وفي رواية: نزل رسول الله تحت شجرة، فعلق بها سيفه، فجاء رجل من المشركين فاخترط سيف رسول الله، فقال: أتخافني؟ قال لا. فمن يمنعك مني؟ قال: الله فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله، فقال: من يمنعك مني؟ قال كن خير آخذ، قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، قال الأعرابي: أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلي رسول الله سبيله.

(٢) سورة المائدة آية ١١.

٢٤ ــ غزوة بدر الثانية
في شعبان من السنة الرابعة من الهجرة

خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، لميعاد أبي سفيان، واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول الأنصاري، أو عبد الله بن رواحة.

وسار بأصحابه حتى نزل بدرا، فقام ثماني ليال ينتظر أبا سفيان.

وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية الظهران، وقيل بلغ عسفان ثم بدا له الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب، ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا. فرجع الناس، فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

وطال انتظار رسول الله على بدر لأبي سفيان لمعياده.. فأتاه مخشي ابن عمرو الضمري، وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودان، فقال يا محمد، أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.. قال: لا، والله يا محمد ما لنا بذلك منك من حاجة.

وقال كعب بن مالك[1] في ذلك:

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافيا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأبت ذميما وافتقدت المواليا

(١) شاعر من شعراء الإسلام، ومن المجاهدين الذائدين عن رسول الله ﷺ توفي عام ٩ هـ.

وقال حسان من قصيدة له:

أقمنا على الرس النزوع ثمانيا بأرعن جرار عريض المبارك
فأبلغ أبا سفيان عني رسالة فإنك من شر الرجال الصعالك

ورد أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب على حسان بقصيدة منها:

قمت على الرس النزوع تريدنا وتتركنا في النخل عند المدارك(١)
فإنك لا في هجرة إن ذكرتها ولا حرمات الدين أنت بناسك

٢٥ ــ غزوة دومة الجندل
في شهر ربيع الأول سنة خمس من الهجرة

انصرف رسول الله عائداً إلى المدينة بعد بدر الآخرة.

فأقام بها عدة أشهر، حتى مضى صفر، وفي شهر ربيع الأول من عام خمسة من الهجرة غزا رسول الله دومة الجندل، واستعمل على المدينة سباعاً الغفاري.

ثم رجع رسول الله قبل أن يصل إلى دومة الجندل، ولم يلق حربا، فأقام في المدينة بقية العام الخامس من الهجرة.

٢٦ ــ غزوة الخندق ــ الأحزاب
في شوال من السنة الخامسة من الهجرة

١ ــ كان اليهود هم الإصبع التي حاكت مؤامرة غزوة الأحزاب، يقول ابن هشام:

---

(١) الرس: البئر: والنزوع: القريبة القعر، المدارك: المواضع القريبة.

إن نفرا من اليهود منهم: سلام بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت قريش: يا معشر يهود: إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

قالت اليهود: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فأنزل الله فيهم: ﴿ **ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً منَ الكتابِ يؤمنونَ بالجبت والطاغوتِ، ويقولون للذين كفروا: هؤلاءِ أهدَى من الذين آمنـوا سبيلاً** ﴾(١).

وسر قريشا ما دعاهم اليهود إليه من حرب رسول الله، فاجتمعوا لذلك وتواعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود، حتى جاؤا قبيلة غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه.

وخرجت قريش يقودها أبو سفيان بن حرب.
وخرجت غطفان يقودها عيينة بن حصن الفزاري، والحارث بن عوف المري ومسعر الأشجعي.

والجميع يسيرون ووجهتهم المدينة.

٢ ـــ سمع بنبأ الأحزاب رسول الله، وبما أجمعوا له من الأمر. فخفر الرسول الخندق على المدينة، وعمل فيه رسول الله والمسلمون

---

(١) سورة النساء الآية ٥١.

معه، ولكن المنافقين جعلوا يتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ولا إذن.

وعمل المسلمون فيه حتى أحكموه، وكان في ذلك معجزات وآيات باهرات، حدث سلمان الفارسي، قال: ضربتِ في ناحية من الخندق، فغلظت على صخرة، ورسول الله قريب مني فلما رآني أضرب، ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة؛ ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ثم ضرب به ضربة ثالثة لمعت تحت المعول برقة شديدة. فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قلت: نعم، قال: أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق.

٣ ــ وفرغ رسول الله والمسلمون من الخندق وأقبلت قريش[١]، فنزلت بمجتمع الأسيال من دومة، في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، فنزلوا إلى جانب أحد.

وخرج رسول الله والمسلمون وجعلوا ظهورهم إلى سلع، في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب الرسول هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم. واستعمل رسول الله ابن أم مكتوم.

٤ ــ وخرج حيي بن أخطب، فأبي كعب بن أسد القرظي صاحب

---

(١) كان معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، وحامل لوائهم عثمان بن طلحة ووافتهم بنو سليم وهم سبعمائة وخرجت معهم بنو أسد، وخرجت فزارة فاوعبت وهم ألفا بعير، وخرجت أشجع وهم أربعمائة، وخرجت بنو مرة.

عقد بني قريظة وعهدهم. وكان قد وادع رسول الله على قومه، فقال له كعب: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشئوم، واني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً، فقال له حيي. ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وببحر طام ـــ أي من الأحزاب ـــ جئتك بقريش على قادتها وبغطفان على قادتها وسادتها، قد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه، فقال له كعب: جئتني ـــ والله ـــ بذل، فلم يزل يفتل لكعب في الذروة والغارب[1]، حتى سمح له علي أن أعطاه عهداً وميثاقاً، لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً، أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، وبذلك نقض كعب عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله.

وأرسل رسول الله ـــ حين انتهى إليه وإلى المسلمين الخبر ـــ وفدا إلى اليهود، فيه سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة من بني الحارث بن الخزرج، وخوات بن جبير من بني عمرو بن عوف فقال للوفد: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقاً فالحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس. فخرج الوفد، حتى أتوا اليهود، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد وشاتموه. فقال له سعد ابن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى ـــ أكبر ـــ من المشاقة.

وأقبل الوفد عائداً إلى رسول الله فسلموا عليه، فقالوا له لحن القول، فقال صلوات الله عليه: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.

---

(١) هما أعلى ظهر للبعير.

٥ ــ وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق حتى قال أحدهم: كان يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وقال أوس بن قيظي يا رسول الله، إن بيوتنا عوزة من العدو، وذلك على ملأ من قومه، فأذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج من المدينة.

وأقام رسول الله وأقام عليه المشركون بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر، لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالسهام والنبل والحصار(١).

---

(١) كان الخندق عملا ناجحا، وهو لون من ألوان الدفاع كان يعرفه الفرس، وأشار به سلمان الفارسي.

وكان الخندق يشمل الجهة الشمالية من المدينة مما يلي الشرق لأنها الناحية التي يسهل منها الهجوم، فالمدينة من الشرق والغرب والجنوب حرات مرتفعة، يصعب على المهاجم أن يهاجم من ناحيتها، على حين يسهل الدفاع عنها. ولذلك وكل رسول الله بكل جانب من الخندق قوما وجعل أربعين ذراعا بين كل عشيرة.

أما اتساعه وعمقه فيصوره أقرب تصوير ما حدث عندما خرجت طائفة من فرسان قريش أمثال عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبي جهل وأضرابهما ليبدأوا بمبارزة المسلمين، فاجأهم الخندق ــ ولم يستطيعوا العبور منه « حتى تيمموا مكانا ضيقا، وضربوا خيولهم فاقتحمت منه » ومع قصدهم إلى هذا المكان الضيق من الخندق، فإن أحد فرسانهم تردى فيه ولم يستطع الخروج منه. فبين ــ إذن ــ أن أضيق مكان في الخندق كان أعرض من مجال قفزة الجواد الأصيل يقود عنانه فارس مدرب ثم هو أعمق من أن يستطيع رجل الخروج منه وحده.

ثم إن الظروف التي تم فيها حفر الخندق كانت قاسية من كل جانب: فالأرض التي يحفرون فيها لم تكن سهلة كلها بل كان منها صخرية تكسر الفؤوس ويعيي بحطمها أشداء الرجال من أمثال سلمان الفارسي.. والجو الذي كان حفر الخندق فيه بارد غاية البرودة. يبين ذلك من حديث أنس بن مالك الذي رواه البخاري. فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، ويبين كذلك من هذا الحديث أن عمل الحفر لم يكن مما يمارسه المحاربون أصلا، فإذا أضيف إلى هذا أن المسلمين آنذاك كانوا يعيشون في فاقة ومسغبة حتى ليقول جابر بن عبد الله: =

وأراد رسول الله أن يكسر حدة الأحزاب فأخذ يفاوض عيينة بن حصن الفزاري، والحارث المري، وهما قائدا غطفان، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة.

فلما أراد رسول الله أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، يستشيرهما في ذلك، فقالا له:

= « ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا.. وأنهم يؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة ــ دسم زنخ ــ توضع بين يدي القوم، والقوم جياع وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن ».

فأتم المسلمون ــ في هذه الظروف القاسية ــ هذا العمل الشاق في ستة أيام، وذلك لتعلم أي أمة كانت، وأي معين من الإيمان والصبر تستنبط منه هذه الأمة قوى تأتي بالمعجزات.

ومع العمل الشاق دائما تكون الأهازيج والأرجاز، فهي بما فيها من التسلية عون على التحمل، لأنها تنقل مراكز التنبه في الإنسان إلى شيء غير التفكير في التعب والألم.

روي البيهقي في الدلائل أن رسول الله ــ ﷺ ــ كان أول الضاربين في الخندق بيده، وقال:

بسم الله وبه هدينا
ولو عبدنا غيره شقينا
يا حبذا ربا وحب دينا

روي البخاري عن البراء بن عازب قال: رأيته ﷺ ــ ينقل من تراب الخندق، حتى واري عني التراب جلدة بطنه ــ وكان كثير الشعر ــ فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل من التراب يقول:

والله لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألي قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا

قال: ثم يمد صوته بآخرها. =

يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما.

فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله: فأنت وذاك.

وأقام رسول الله والمسلمون، وعدوهم محاصر لهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس قريش، منهم عمرو بن عبدود بن أبي قيس، تلبسوا للقتال.

= ومد الصوت بآخرها تفسره الرواية الأخرى « ورفع بها صوته: أبينا أبينا » وكان هذا هو شعار المسلمين.

وهذا التكرار بصوت مرتفع لإباء الفتنة هو الكلمة التي يبثها رسول الله أصحابه يسعر بها حماستهم، ويستثير لها حميتهم، فيأتيه جوابهم في هتاف جماعي موقع:

نحن الذين بايعوا محمداً.
على الإسلام ما بقينا أبداً

ثم يرددونها مرة ثانية:
نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً.
وتم حفر الخندق، وتمت نعمة الله على رسوله وعلى المؤمنين.

ثم أقبلوا حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيولهم فاقتحمت منه فلقيهم علي بن أبي طالب، فقتل عمرو ابن عبدود، وخرجت خيلهم منهزمة حيث اقتحموا الخندق مرة ثانية منهزمين هاربين.

ورمي سعد بن معاذ بسهم، فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك، وكذبوه وأخرجوه[1].

وأتى نعيم بن مسعود الغطفاني رسول الله، فقال يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله: « إنما أنت فينا رجل واحد، فخذ عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة » فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم. لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها. وإن كانوا غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا

---

(١) وقد مات بعد الأحزاب بشهر من هذا السهم الذي رمى به، وبكته أمه رجزاً، فقالت:
ويل أمه سعداً.
حزامة وجداً.

فقيل لها: أتقولين الشعر على سعد؟ فقال الرسول ﷺ: دعوها فغيرها من الشعراء أكذب
(١: ٢٠٨ سير أعلام النبلاء للذهبي).

بكم، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي ثم خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصيحاً لكم، فاكتموا عني، قالوا: نفعل قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ــ قريش وغطفان ــ رجالا من أشرافهم فنعطيكم إياهم فنضرب أعناقهم؟ ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهموني قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. قال فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فما أمرك؟ فقال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم.

وفي ليلة سبت من شوال سنة خمس أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام.

وقد هلك الخف ــ الإبل ــ والحافر ــ الخيل ــ فاعدوا القتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى أن تتشمروا إلى بلادكم، وتتركونا والرجل ولا طاقة لنا بذلك منه. فلما رجعت الرسل إليهم بما قالت قريظة قالوا: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا، فإن كنتم

تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا والله ولا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم وخذل الله بينهم.

٧ ــ وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم، وتطرح أبنيتهم.

فلما انتهى إلى رسول الله ما اختلف من أمرهم، وما فرق الله من جماعتهم، دعا حذيفة بن اليمان، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً، قال رسول الله: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا، قال حذيفة: فذهبت، فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً.

فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه، قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم، والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع ــ الخيل ــ والخف ــ الإبل ــ وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به، ولولا عهد رسول الله إلى أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني ثم شئت لقتلته بسهم فرجعت إلى رسول الله، وأخبرته الخبر.

وسمعت غطفان فعلت ما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

ورجع الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة، وهو يقول: « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم ».

٢٧ ــ غزوة بني قريظة
في سنة خمس من الهجرة، في ذي القعدة وصدر ذي الحجة

١ ــ أصبح رسول الله، وقد انصرفت قريش وغطفان والأحزاب، فانصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون معه، ووضعوا السلاح.

فلما كانت الظهر نزل جبريل عليه السلام، فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل، فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم، فأمر رسول الله مؤذنا فأذن في الناس: من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

وقدم رسول الله علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار علي حتى إذا دنا من الحصون، ودنا رسول الله، فقال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قال: يا أبا القاسم، ما كنت جهولا.

ولما أتى رسول الله إلى بني قريظة نزل على بئر من آبارها، وتلاحق به الناس.

٢ ــ وحاصر رسول الله بني قريظة خمسا وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وبعثوا إلى رسول الله: أن أبعث إلينا أبا لبابة لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء، والصبيان، يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح.

ونزلت قريظة على حكم رسول الله فقالت الأوس: يا رسول الله، إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، فقال لهم رسول الله: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فذلك إلى سعد بن معاذ، فأتاه قومه فحملوه معهم إلى رسول الله، وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله والمسلمين قال الرسول: قوموا إلى سيدكم فقاموا إليه، فقالوا يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، إن الحكم فيهم لما حكمت، قالوا: نعم، قال سعد: فإني أرى أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء.

٣ ــ وقتل رسول الله الرجال، وهم ستمائة أو سبعمائة، وفيهم حيي بن أخطب ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة.

وكان رسول الله قد أمر بقتل كل من أنبت من بني قريظة، وسألت سلمى بنت قيس، أم المنذر، احدى خالات رسول الله، الرسول ﷺ أن يهب لها رفاعة بن سموأل القرظي، فوهبه لها، فاستحيته.

وقسم رسول الله أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، واصطفى رسول الله لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو فأسلمت، وكانت عند رسول الله، حتى توفي عنها وهي في ملكه.

فلما انقضى أمر بني قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه، فمات منه شهيداً[1].

شهداء المسلمين يوم الخندق

هم ستة نفر:

١ ــ سعد بن معاذ.

٢ ــ أنس بن أوس.

٣ ــ عبد الله بن سهل.

وهم جميعا من بني عبد الأشهل.

٤ ــ الطفيل بن النعمان.

٥ ــ ثعلبة بن غنمة، وهما من جشم.

٦ ــ كعب بن زيد من بني النجار.

قتلى المشركين يوم الخندق هم ثلاثة

١ ــ منبه بن عثمان من بني عبد الدار بن قصي.

٢ ــ نوفل بن عبد الله من بني مخزوم.

٣ ــ عمرو بن عبدود، وابنه حسل معه على الأرجح.

شهداء المسلمين يوم بني قريظة هم:

١ ــ خلاد بن سويد.

٢ ــ أبو سنان بن محصن.

(١) وفيه يقول شاعر من الأنصار:

وما اهتز عرش الله من فقد هالك ... سمعنا به إلا لموت أبي عمرو

الشعر في غزوة الخندق وغزوة بني قريظة

قال ضرار بن الخطاب في الخندق من قصيدة طويلة له:

فلـولا خنـدق كانـوا عليـه　　لدمرنـا عليهـم أجمعينـا
ولكـن حـال دونهـم وكانـوا　　بـه مـن خوفنـا متعوذينـا
فأحجرناهمـو شهـرا كريتـا(1)　　وكنـا فوقهـم كالقاهرينـا
وسـوف نزوركـم عمـا قـريب　　كمـا زرناكـم متوازرينـا
بجمـع مـن كنانـة غيـر عـزل　　كأسد الغاب قد حمت العرينا

فرد عليه كعب بن مالك:

وسائلـة تسائـل مـا لقينـا　　ولـو شهـدت رأتنـا صابرينـا
صبرنـا لا نـرى لله عـدلا(2)　　علـى مـا نابنـا متوكلينـا
وكـان لنـا النبـي وزيـر صـدق　　بـه نعلـو البريـة أجمعينـا
لننصـر أحمـداً لله حتـى　　نكـون عبـاد صـدق مخلصينـا
ويعلـم أهـل مكـة حيـن سـاروا　　وأحـزاب أتـوا متحزبينـا
بـأن الله لـيس لـه شـريك　　وأن الله مولـى المؤمنينـا

وقال عبد الله بن الزبعرى في الخندق من قصيدة له:

لولا الخنادق غادروا من جمعهم　　قتلـى لطيـر شـغب وذبـاب

فأجابه حسان:

فدع الديار وذكر كـل خريـدة　　بيضـاء آنسـة الحـديث كعـاب
واشك الهموم إلى الإله وما نرى　　من معشر ظلموا الرسول غضاب
سـاروا بأجمعهـم إليـه وألبـوا　　أهـل القـرى وبـوادي الأعـراب

---

(1) أي كاملا.
(2) أي نظيرا.

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا قتل الرسول ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم ردوا بغيظهم على الأعقاب

وأجابه كعب بن مالك أيضاً بقصيدة منها:

جاءت سخينة كي تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب

وقال كعب بن مالك أيضاً من قصيدة طويلة:

ويعيننا الله العزيز بقوة منه وصدق الصبر ساعة نلتقي
ونطيع أمر نبينا ونجيبه وإذا دعا لكريهة لم نسبق
إن الذين يكذبون محمدا كفروا وضلوا عن سبيل المتقي

وقال كعب بن مالك أيضاً من قصيدة طويلة:

لقد علم الأحزاب حين تألبوا علينا وراموا ديننا، ما نوادع

ولكعب أيضاً من قصيدة طويلة:

لنظهر دينك اللهم إنا بكفك فاهدنا سبل الرشاد

ولمسافع الجمحي قصائد طويلة في ذلك، وكان مسافع مشركا، وكذلك لهبيرة بن أبي وهب، وكان كذلك هو مشركا.

ولحسان يفتخر:

ونحن قتلناكم بكل مهند ونحن ولاة الحرب حين تصول
ونحن قتلناكم ببدر فأصبحت معاشركم في الهالكين تجول

ولحسان قصائد أخرى طويلة ومنها قصائد في رثاء سعد بن معاذ.

وقال حسان في يوم بني قريظة:

لقد لقيت قريظة ماسآها وحل بحصنها ذل ذليل
وسعد كان أنذرهم بنصح بأن إلهكم رب جليل

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب من قصيدة طويلة:

أدام الله ذلك من صنيع   وحرق في طوائفها السعير

مقتل سلام بن أبي الحقيق

انقضى شأن غزوة الخندق وأمر بني قريظة، على الصورة التي عرفناها.

وكان أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، فيمن حزب الأحزاب على رسول الله، وهو يقيم في خيبر.

وكانت الأوس بعد بدر قد قتلت كعب بن الأشرف لعداوته لرسول الله، وتحريضه عليه، وتشبيبه بنساء المسلمين.

فجاءت الخزرج بعد غزوة الخندق تستأذن رسول الله في قتل أبي رافع فأذن لهم.

وكان الأوس والخزرج يتنافسان في الدفاع عن رسول الله، لا تصنع الأوس من ذلك شيئاً، إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله في الإسلام، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك.

ولما قتلت الأوس كعب بن الأشرف لعداوته للرسول، قالت الخزرج: والله لا تذهبون بها فضلا علينا أبدا، فتذاكروا: من رجل لرسول الله في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا أبا رافع وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول الله في قتله، فأذن لهم، فخرج إليه الخزرج من بني سلمة في خمسة نفر، وأمر عليهم رسول الله ابن عتيك، ونهاهم يقتلوا وليدا أو امرأة.

فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار أبي رافع ليلا، فلم يدعوا بيتا في الدار إلا أغلقوه على أهله، وقاموا على بابه، فاستأذنوا عليه، فأذن لهم. فدخلوا فابتدروه وهو على فراشه بسيوفهم، وجعلت امرأته

تصيح، فنهرها القوم وخرجوا ودخلوا في قبو في الحصن من أقبية الماء. وأخذ قوم أبي رافع يطلبونهم في كل وجه دون جدوى، وخرج النفر حتى قدموا على رسول الله، فأخبروه بقتل عدو الله

ولحسان في ذلك شعر جيد.

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد

لما انصرفت قريش مع الأحزاب عن الخندق، قال عمرو بن العاص لقوم من قريش: والله إني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكراً، وإني لقد رأيت أمراً فما ترون فيه؟ قالوا له: وماذا رأيت؟ قال لهم: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير. قالوا: إن هذا لرأي، فقال عمرو بن العاص لهم: فاجمعوا لنا ما نهديه له. وكان أحب ما يهدي إليه الجلد، فجمعوا له منه الكثير.

وخرجوا حتى قدموا على النجاشي، فبينما هم عنده إذ جاءه عمرو ابن أمية الضمري وافداً عليه برسالة من رسول الله في شأن جعفر وأصحابه.

فكلم عمرو بن العاص النجاشي في شأن عمرو بن أمية الضمري ليسلمه له، فغضب النجاشي غضباً شديداً، وقال ويحك يا عمرو بن العاص، أطعني واتبعه، فإنه والله لعلي الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، فأسلم عندئذ عمرو بن العاص، وكتم إسلامه عن أصحابه.

ثم عاد إلى بلاده قاصداً رسول الله ليسلم، وذلك قبيل الفتح، فلقيه خالد بن الوليد، وهو مقبل من مكة فقال عمرو له: إلى أين؟ فقال

خالد: والله إن الرجل لنبي، اذهب والله فأسلم، فحتى متى، فقال له عمرو: الله ما جئت إلا لأسلم.

وقدما المدينة على رسول الله، فتقدم خالد فأسلم[1]، ثم دنا عمرو بن العاص فأعلن إسلامه.

وأسلم معهما عثمان بن أبي طلحة.

٢٨ ــ غزوة بني لحيان
في جمادى الأولى من السنة السادسة من الهجرة

خرج رسول الله يطلب الثأر بأصحاب الرجيع: خبيب وأصحابه.

فأظهر أنه يريد الشام، ليصيب من القوم غرة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم[2]، وخرج منها. فسلك على غراب ــ جبل بناحية المدينة على طريق المسافر إلى الشام ــ ثم على مخيض، فالبتراء، ثم بين، فصخيرات اليمام، يسير على الطريق إلى مكة حتى نزل على غران ــ واد بين أمج وعسفان وفيه منازل بني لحيان ــ وسار إلى بلد يقال له ساية، فوجد القوم قد تمنعوا في رؤوس الجبال، وفاته من غرته ما أراد.

(١) والده الوليد بن المغيرة، مات بعد الهجرة النبوية بعام وقد كان خالد قائد خيل المشركين في الحديبية، ومعنى ذلك أن إسلامه تأخر عن صلح الحديبية وفي سير أعلام النبلاء الذهبي (٢٦٤:١) أنه هاجر مسلما في صفر سنة ثمان وتوفي خالد بحمص سنة إحدى وعشرين سنة، فميلاده قبل الهجرة بتسع وثلاثين سنة وبعد مولد رسول الله بـ ١٤ عاماً.

(٢) قرشي عامري، وأمه مخزومية، مات بالمدينة بعد القادسية عام ١٥ هـ (١: ٢٦٠ ــ ١٦٤ سير أعلام النبلاء للذهبي).

ثم خرج رسول الله في مائتي راكب، حيث نزلوا عسفان وبعد قليل كر رسول الله قافلا إلى المدينة، وهو يقول:

« آيبون تائبون إن شاء الله، لربنا حامدون ».
« أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال ».

٢٩ ــ غزوة ذي قرد أو الغابة
في جمادى الآخرة عام ستة من الهجرة

قدم رسول الله المدينة من غزوة بني لحيان، فلم يقم بها إلا ليال قلائل، حتى أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل من غطفان على إبل لرسول الله بالغابة، وفيها رجل من بني غفار وامرأته، فقتلوا الرجل، ونهبوا الإبل.

واحتملوا المرأة معهم.
وذهب سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي إلى الغابة متوشحا قوسه ونبله، حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى المغيرين وقد انصرفوا، فأشرف في ناحية سلع، وصرخ: واصباحاه، وخرج يرمي المغيرين بالنبل.

وبلغ رسول الله صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة: الفزع، الفزع فأقبلت الفرسان إلى رسول الله، وكان أولهم المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر.

فلما اجتمعوا إلى رسول الله أمر عليهم سعد بن زيد، وقال له: اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس.

وخرج الفرسان في طلب القوم حتى تلاحقوا، فكان أول فارس لحق بالقوم هو محرز بن نضلة.

وتقاتل القوم، فقتل من المسلمين محرز بن نضلة، ولم يقتل غيره من المسلمين.

وأقبل رسول الله في المسلمين، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. وسار رسول الله حتى نزل بالجبل من ذي قرد، ولحق به الناس، ونزل رسول الله بهذا المكان، وأقام عليه يوما وليلة.

ثم رجع رسول الله قافلا حتى قدم المدينة.
ونجت امرأة الغفاري، وبعض الإبل، وبعث رسول الله بالمرأة إلى أهلها.

وقال حسان في يوم ذي قرد من قصيدة:

أميـــر علينـــا رســـول المليـــ ـــك أحبب بذاك إلينـــا أميـــرا
رســـول تصديـــق مـــا جـــاءه ويتلـــو كتابـــا مضيئـــا منيـــرا

وأقام رسول الله بالمدينة بعض جمادي الآخرة ورجبا.

٣٠ ــ غزوة بني المصطلق بالمريسيع في شعبان سنة ست من الهجرة

١ ــ بنو المصطلق من خزاعة، غزاهم رسول الله، واستعمل على المدينة أبا ذر الغفاري.

وسبب ذلك أن رسول الله بلغه أنهم يجمعون لحرب رسول الله، وقائدهم هو الحارث بن أبي ضرار، وهو أبو جويرية زوج رسول الله.

فخرج رسول الله إليهم، حتى لقيهم على ماء لهم يقال له « المريسيع » من ناحية قديد إلى الساحل.

فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم، وكان شعار المسلمين في هذه المعركة: يا منصور، أمت أمت، وأصيب من بني المصطلق يومئذ أناس وأصاب رسول الله منهم سبياً كثيراً. وفي نهاية الغزوة حدث بين الأنصار والمهاجرين شيء، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فقال: قد نافرونا وكثرونا في بلادنا، والله ما عدنا « وجلابيب قريش »[1] هذه إلا كما قال الأول: « سمن كلبك يأكلك »، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم قال لمن معه: هذا ما فعلتم بأيديكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

وبلغ ذلك رسول الله، فأذن في الناس بالرحيل وهو مغضب، فقال أسيد بن حضير: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا.

فنزلت سورة المنافقين، تفضح صنيع عبد الله بن أبي وحزبه في الضلال وجاء ابنه عبد الله بن أبي إلى رسول الله فقال له:

يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتله يمشي في الناس، فأقتله، فأدخل النار.

---

(١) كانت قريش تلقب أصحاب رسول الله من أهل مكة بهذا اللقب.

فقال رسول الله: « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ».

٢ ـ ومن سبايا بني المصطلق في هذه الغزوة جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار زوج رسول الله، كانت في السبي فوقعت في يدي ثابت بن قيس بن الشماس، فكاتبته على نفسها، وجاءت إلى رسول الله تستعينه في كتابتها، فقال ﷺ لها: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أقضي عنك كتابك وأتزوجك، قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت، فقال المسلمون: أصهار رسول الله، وأرسلوا ما بأيديهم، نحو مائة أهل بيت من بني المصطلق، أعتقوا جميعاً، فما من امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

وأسلم وأبوها وابنان له وأناس من قومه.

وبعث رسول الله إلى قومها الوليد بن عقبة مصدقا، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم هابهم، فرجع إلى رسول الله فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم، فهم رسول الله بأن يغزوهم فبينا هم على ذلك قدم وفدهم على رسول الله، فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك، حين بعثته إلينا فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة، فقفل راجعا، فبلغنا أنه زعم لرسول الله أنا خرجنا إليه لنقتله، والله ما جئنا لذلك فنزل قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾[1].

٣ ـ وفي رجوع رسول الله من غزوة بني المصطلق شاع حديث الإفك، وقد برأ الله عائشة تبريئاً.

---

(١) سورة الحجرات الآية ٥.

حديث الإفك في غزوة بني المصطلق

سنة ست من الهجرة

١ ــ كان رسول الله إذا أراد سفراً صنع قرعة بين نسائه، فأية واحدة منهن خرج سهمها خرج بها معه.

فكانت عائشة هي التي خرجت في غزوة بني المصطلق.

فلما فرغ رسول الله منها، عاد إلى المدينة وتوجه قافلا، فلما كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل وبات الناس معه، ثم أذن في الناس بالرحيل فارتحل الناس، ورفعوا هودج عائشة على الجمل، وهم لا يدرون أنها ليست فيه، وساروا عائدين إلى المدينة.

وكانت عائشة حينئذ خرجت من بين القوم تقضي حاجة، وفي عنقها عقد، فلما عادت إلى رحلها لم تجد العقد في عنقها وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت إلى المكان الذي قضت فيه حاجتها، تلتمسه حتى وجدته، فرجعت إلى العسكر، فلم تجد أحداً، قد انطلق الناس، فتلففت بجلبابها، واضطجعت في مكانها انتظارا لطلب القوم لها.

ومر بها صفوان بن المعطل السلمي، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته، فوقف عليها، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ما خلفك يرحمك الله؟

فلم ترد عائشة عليه جواباً، وقرب البعير وقال لعائشة: اركبي، وتأخر عنها، فركبت، وأخذ هو برأس البعير، وسار سريعا يطلب الناس فلم يلحق بهم ودخل الناس المدينة ونزلوا واطمأنوا، ودخل صفوان المدينة في الصباح يقود جمل عائشة، فأشاع أهل الإفك ما أشاعوا، وقالوا ما قالوا، وارتج الناس، وعائشة لا تعلم عنه شيئاً، وانتهى الحديث

إلى رسول الله وإلى أبي بكر وامرأته[1] ولم يذكر أحد لعائشة شيئاً، وكان أثر السفر باديا عليها فمرضت، ورأت من رسول الله شيئاً من الإنكار والجفاء، فوجدت في نفسها، واستأذنت لتذهب إلى بيت أبيها تمرض فيه، فأذن لها رسول الله وبعد ما يقارب الشهر برئت عائشة من مرضها، وفي ليلة من رمضان سنة ست من الهجرة خرجت عائشة لبعض حاجتها، ومعها أم مسطح[2] بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف فعثرت أم مسطح في ثوبها، فقالت: تعس مسطح فردت عائشة: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً، فردت عليه عائشة: أوَما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ فأجابتها عائشة: ما الخبر؟ فأخبرتها بالذي كان من قول أهل الإفك، فقالت عائشة: أوقد كان هذا؟

قالت لها: نعم والله لقد كان.

فأصاب عائشة من الغم ما أصابها ورجعت، وما زالت تبكي حتى كأن البكاء سيصدع كبدها وقالت لأمها: يغفر الله لك، تحدث بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً، قالت لها: هوني عليك الشأن أي بنية، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

٢ ــ وقام رسول الله في الناس يخطبهم ويقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه « أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيرا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي ».

---

(١) هي أم رومان زينب بنت عبد دهمان من كنانة هذا وصفوان بن المعطل توفي عام ١٩ هـ (٢: ٣٩٥ سير أعلام النبلاء).

(٢) كانت أمها بنت صخر خالة أبي بكر، ومسطح لقب، واسمه عوف.

وكان الذين أشاعوا حديث الإفك:

١ ــ عبد الله بن أبي سلول في رجال من الخزرج.

٢ ــ مسطح[١].

٣ ــ حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين، حسداً منها لعائشة على مكانتها من رسول الله، وكانت أختها زينب من الأثيرات على قلب رسول الله، وكانت زوجة عبد الرحمن بن عوف، وقيل: كانت زوجة لمصعب بن عمير فلما قتل تزوجها طلحة، وأمها عمة الرسول.

٤ ــ حسان بن ثابت.

واستشار رسول الله علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، فقال أسامة: يا رسول الله ،أهلك، ولا نعلم إلا خيرا، وهذا الكذب والباطل.. وقال علي: يا رسول الله إن النساء لكثير، وسل الجارية فإنه ستصدقك.

فدعا رسول الله بريرة مولاة أم المؤمنين عائشة ليسألها، فقام إليها علي فضربها ضرباً شديداً، وهو يقول لها: اصدقي رسول الله، فقالت: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة، فتأكله.

ودخل رسول الله على عائشة، وعندها أبوها، وامرأة من الأنصار، وعائشة تبكي، فجلس الرسول، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا عائشة، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله، فإن كنت قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده.

وظلت عائشة ساكنة ثم قالت لأبويها: ألا تجيبان رسول الله؟

---

(١) توفي عام ٢٤ هـ (راجع ١٣٧/١ سير أعلام النبلاء للذهبي).

فقالا لها: والله ما ندري بماذا نجيبه، وهما آنذاك في حزن عميق، وألم دفين.

وبكت عائشة واستعبرت، وقالت: صبر جميل، والله المستعان على ما تصفون.

وسكتت عائشة وكانت بعد ذلك تقول: وايم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر من أن ينزل الله في قرآنا يقرأ به في المساجد ويصلى به، ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله في نومه شيئا يكذب به الله عني، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبرا، فأما قرآن ينزل في، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

٣ — ولم يبرح رسول الله مجلسه هذا، حتى نزل عليه الوحي، وتغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجي بثوبه، ووضع له وسادة تحت رأسه، ثم صعد الوحي وسري عن رسول الله، فجلس، والعرق يتحدر منه واليوم يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه، وحبات العرق مثل الجمان وهو يقول:

أبشري يا عائشة، قد أنزل الله براءتك.

وعائشة يرقص الفرح في فؤادها وتقول: بحمد الله.

وخرج رسول الله إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما نزل من القرآن وأمر الرسول بمسطح وبحسان[1]، وحمنة بنت جحش، وبابن سلول وكانوا ممن قالوا وأذاعوا ما قالوا وأذاعوا، فضربوا حد القذف.

---

(١) كان صفوان قد هجا حسانا وقال فيه:

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا ... وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

والجلابيب هو لقب كان المشركون في مكة يلقبون به أصحاب رسول الله من المهاجرين.

وقال حسان يمدح عائشة ويعتذر إليها:

حصان رزان ما تزن[1] بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتو فلا رفعت سوطي إلى أناملي
وكيف وودي ما حييت ونصرتي لآل رسول الله زين المحافل

وفي حد حسان يقول بعض شعراء المدينة:

لقد ذاق حسان الذي كان أهله وحمنة إذ قالوا هجيرا ومسطح

صلح الحديبية
ذو القعدة سنة ست من الهجرة

إلى العمرة

أقام رسول الله بالمدينة رمضان وشوالا، وفي ذي القعدة خرج معتمراً لا يريد حرباً، واستعمل على المدينة نميلة الليثي.

وخرج معه المسلمون خشية أن تعرض له قريش بحرب، أو أن تصده عن البيت، وساق الهدي وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.

وكان عدد من خرج مع رسول الله ألفاً وأربعمائة.

وفي عسفان لقيه بشر الكعبي. فقال: « يا رسول الله هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجوا (لحربك) وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ».

(١) أي ما تتهم. والحصان العفيفة. رزان: الوقور. غرثى: جائعة. الغوافل: النساء الغافلات.

وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى « كراع الغميم ».

فقال رسول الله: يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش، فوالله لا أزال أجاهد على الذين بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[1].

وسلك رسول الله طريقاً غير طريق قريش. وكان طريقاً وعراً قاد المسلمين فيه رجل من أسلم.

وسار الرسول ومن معه، ورأت خيل قريش المتقدمة المسلمين قد حادوا عن الطريق المألوف فرجع الفرسان رابضين إلى قريش فأخبروهم، وبلغ الرسول ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة، فتوقف فيها، وهو يقول:

« لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم. إلا أعطيتهم إياها ».

وفود قريش

وأرسلت قريش وفداً إلى رسول الله، على رأسه بديل بن ورقاء الخزاعي مع رجال من خزاعة، فكلموا رسول الله. وسألوه: ما الذي جاء به؟.

فأخبرهم رسول الله أنه لم يأت يريد حرباً. وإنما جاء زائراً للبيت، ومعظماً لحرمته.

---

(١) صفحة العنق.

فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش. إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال « وإنما جاء زائراً لهذا البيت ».

فردت قريش على بديل رداً أليماً، وقالوا: « وإن كان جاء ولا يريد قتالا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً. ولا تحدث بذلك عنا العرب، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها مع رسول الله لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة ».

وبعثت قريش وفداً ثانياً فيه مكرز بن حفص، فلما انتهى إلى رسول الله وكلمه، قال له الرسول نحوا لما قال لبديل وأصحابه. فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله.

وبعثت وفدا ثالثاً فيه الحليس بن علقمة سيد الأحابيش، فلما رأى الهدي رجع إلى قريش دون أن يصل إلى رسول الله، إعظاماً لما رأى.

وقال لقريش: « يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ».

وعادت قريش فبعثت وفداً رابعاً إلى رسول الله، فيه عروة بن مسعود الثقفي.

فقال عروة لرسول الله: « يا محمد، أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم[1]؟ إنها قريش قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة، أبداً. وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً.. ».

فرد عليه أبو بكر وهو جالس خلف رسول الله: أنحن ننكشف عنه؟

(١) بيضة الرجل: قبيله وأهله، يريد مكة. تفضها: تكسرها.

قال عروة: من هذا يا محمد؟
قال: هذا ابن أبي قحافة.

قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بهذه. ثم جعل يتناول لحية رسول الله وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله في الحديد، فجعل يقرع يده إذا تناول بها لحية رسول الله، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك.

فيقول عروة: ويحك، ما أفظك وأغلظك.
فتبسم رسول الله.
وقال عروة: من هذا يا محمد.
قال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة.
فقال عروة: أي غدر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس.
وكلم رسول الله عروة بمثل مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً، فانصرف من عند رسول الله، وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه.

ورجع عروة إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم.

وفود رسول الله

وبعث رسول الله إلى قريش وفداً فيه خراش بن أمية الخزاعي، وحمله الرسول على بعير له، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا

به جمل رسول الله، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله، حتى أتى رسول الله.

وبعثت قريش نحو أربعين أو خمسين رجلا ــ فرقة استطلاع ــ فرموا في عسكر رسول الله بالحجارة والنبل. فأخذهم المسلمون. فأتى بهم رسول الله فعفا عنهم، وخلي سبيلهم.

فبعث رسول الله وفداً ثانياً فيه عثمان بن عفان، ليخبر قريشاً أن رسول الله لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته.

ودخل عثمان مكة في جوار أبان بن سعيد بن العاص، فبلغ رسالة رسول الله إلى أبي سفيان وعظماء قريش، واحتبست قريش عثمان عندها فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قد قتل.

بيعة الرضوان

فقال رسول الله عندئذ؟ لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله على الموت، وقيل: بل بايعهم على أن لا يفروا، ولم يتخلف أحد من المسلمين عن البيعة.

هدنة وصلح

وبعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله، ليصالحه على أن يرجع عنهم عامه هذا.

فأتاه سهيل. فلما رآه رسول الله مقبلا قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

وأتى عمر أبا بكر فقال:

ــ يا أبا بكر أليس برسول الله؟

ـ بلى.

ـ أولسنا بالمسلمين؟

ـ بلى.

ـ أوليسو بالمشركين.

ـ بلى.

ـ فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

ـ إني أشهد أنه رسول الله.

ـ وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم جاء عمر رسول الله فقال له مثل ما قال لأبي بكر، فرد عليه الرسول بمثل ما رد به أبو بكر على عمر، وقال لعمر « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني ».

ودعا رسول الله علي بن أبي طالب فقال له:

اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم.

رسول الله: اكتب باسمك اللهم.

علي يكتبها:

رسول الله: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلا.

سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

رسول الله: « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأنك

ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها ». وشهد على الصلح رؤوس المسلمين.

أبو جندل بن سهيل بن عمرو

وبينما رسول الله يكتب الكتاب هو وسهيل إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله.

وقد كان أصحاب رسول الله قد خرجوا إلى مكة، وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رسول الله، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون.

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ يجره ليرده إلى قريش، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فقال رسول الله: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم.

فقام عمر إلى أبي جندل يمشي إلى جنبه، ويقول له: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني عمر سيفه من أبي جندل، ليأخذه فيضرب به أباه، ولكن أبا جندل لم يفعل[1].

---

(١) مات عام ١٨ هـ (١: ٢٤٠ سير أعلام النبلاء) ووالده سهيل بن عمرو خطيب قريش وفصيحها ومن أشرافها، وقد أسر في بدر، وحرض على الأخذ بالثأر، أسلم يوم فتح مكة، ومات يوم اليرموك (١: ٢٤١ المرجع السابق).

وانصرف رسول الله عائداً إلى المدينة، وفي الطريق نزلت سورة الفتح، وهي السورة الثامنة والأربعون من سور القرآن.

ولما رجع رسول الله إلى المدينة بعد الحديبية بعث برسائله إلى ملوك الأرض[1].

ما بعد صلح الحديبية؟

قدم رسول الله المدينة بعد صلح الحديبية، فقدم عليه أبو بصير عتبة بن أسد بن جارية، وكان ممن حبس في مكة، وكتب من مكة في أمره إلى رسول الله أزهر بن عوف والأخنس بن شريق، وبعثا رجلا من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم. فقدما على رسول الله بكتاب الأزهر والأخنس.

فقال رسول الله: يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، فانطلق إلى قومك.

قال: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟

قال: يا أبا بصير، انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا.

فانطلق معهما، وفي الطريق أخذ سيف العامري، فقتله به، وهرب المولي، ونزل أبو بصير العيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر الأحمر بطريق إلى الشام، واجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلا، يضيقون على قريش، لا تمر بهم قوافل تجارة لقريش إلا أخذوها،

---

(١) ١: ٦٠ زاد المعاد لابن القيم.

حتى كتبت قريش إلى رسول الله تسأله بأرحامها إلا آواهم فلا حاجة لهم بهم، فأعلن رسول الله ذلك إليهم، فقدموا عليه المدينة وعاشوا مع المسلمين فيها.

وهاجرت إلى رسول الله أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فخرج أخواها: عمارة والوليد، حتى قدما على رسول الله يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية[1]، فلم يفعل، أبى الله ذلك، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُم المُؤْمنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ، فَامْتَحِنُوهُنَّ، اللهُ أعلمُ بإيمَانِهِنَّ فَإنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إلى الكُفَّارِ** ﴾[2]، وأمر رسول الله برد مهورهن إلى أزواجهن في مكة، فأمسك رسول الله النساء، ورد الرجال، وتوفيت أم كلثوم في خلافة علي[3].

٣١ ــ غزوة خيبر
صفر سنة سبع من الهجرة

إلى خيبر

أقام رسول الله بالمدينة بعد أن رجع من الحديبية، ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر، واستعمل على المدينة

(١) بتخفيف الياء وتشديدها، وهي بئر يسمى المكان بها ــ وقبل الحديبية كان رسول الله قد رأى أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام وأخذ مفتاح الكعبة وطافوا واعتمروا وحلق بعضهم وقصر البعض، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا فأخبر أصحابه أنه معتمر.

(٢) سورة الممتحنة آية ١٠.

(٣) ٢: ١٩٩ و٢٠٠ سير أعلام النبلاء.

نميلة الليثي. ودفع الراية البيضاء إلى علي، وكان عامر بن الأكوع ــ عم سلمة بن الأكوع ــ يرتجز برسول الله، ويقول(١):

والله لـــولا مـــا اهتدينـــا ولا تصدقنـــا ولا صلينـــا
إنـــا إذا قـــوم بغـــوا علينـــا وإن أرادوا فتنـــة أبينـــا
فأنزلـــن سكينـــة علينـــا وثـــبت الأقـــدام إن لاقينـــا

وقتل عامر يوم خيبر شهيدا.
ولما أشرف رسول الله على خيبر، دعا، فقال:

« اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياض وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. أقدموا بسم الله ».

وكان شعار أصحاب رسول الله يوم خيبر: يا منصور، أمت، أمت.
فنزل رسول الله خيبر ليلا، فبات حتى إذا أصبح، فركب وركب معه المسلمون والرسول يقول:

« الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.. ».

الطريق إلى خيبر

وكان طريق رسول الله إلى خيبر: عصر، فالصهباء فالرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله.

---

(١) ينسب هذا الشعر لابن رواحة.

الفتح

وفتح رسول الله خيبر حصنا حصنا، وأخذ الأموال مالا مالا، وسقط حصن ناعم، فحصن القموص، وحصن الصعب بن معاذ، ما عدا حصن الوطيخ، وحصن السلالم.

وقاتل أبو بكر وعمر وعلي والزبير والمسلمون يومئذ قتالا شديداً.
فسأل اليهود رسول الله أن يرحلوا عن خيبر، وأن يحقن لهم دماءهم، وعاملهم في الأموال على النصف على أنه إذا شاء أن يخرجهم أخرجهم.

وصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئا للمسلمين، وكانت فدك خالصة لرسول الله.. وكان فتح خيبر في صفر سنة سبع.

صفية بنت حيي

وكان من السبايا في هذه الغزوة صفية بنت حيي، وكانت من بني النضير وقتل زوجها في خيبر كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فأخذها دحية الكلبي وجيء بها إلى رسول الله، فعرض عليها أن يعتقها ويتزوج بها فتكون زوجا له، أو أن يطلق سراحها فتلحق بأهلها، فاختارت الأولى بعد أن أسلمت وحسن إسلامها.

يهودية تضع السم لرسول الله

ولما اطمأن رسول الله أعلنت زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم إسلامها وصنعت مائدة لرسول الله وقدمت فيها شاة مشوية، ووضعت السم الكثير في ذراعها، لما تعلم من أن رسول الله يحب الذراع، ثم سمت سائر الشاة، وجاءت بها فوضعتها بين يدي رسول الله، فتناول الذراع، فمضغ مضغة ثم لفظها، وأكل معه بشر بن البراء

ابن معرور، فمات بشر. وقال رسول الله: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم.

وجيء بزينب، فاعترفت، وعفا عنها رسول الله، وفي رواية: أنه قتلها لما مات بشر. وكانت زينب ابنة أخي مرحب اليهودي.

ودخلت أم بشر على رسول الله في مرضه الذي توفي فيه، تعوده، فقال صلوات الله عليه:

يا أم بشر، إن هذا الأوان وجدت انقطاع أبهري[1] من الأكلة التي أكلت بخيبر، وكان المسلمون يرون أن رسول الله مات شهيدا، مع ما أكرمه الله من النبوة[2].

بعد خيبر

ولما فرغ رسول الله من خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهله عدة ليال، ثم انصرف راجعا إلى المدينة.

وأعرس رسول الله بصفية بنت حيي في الطريق، وكانت التي تولت تجميلها وتزيينها لرسول الله أم سليم ابنة ملحان، وهي أم أنس بن مالك.

النساء مع جيش رسول الله في غزوة خيبر

وفي مسير رسول الله إلى خيبر جاءت نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ـــ أي الى خيبر ـــ فنداوي الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا.

فقال رسول الله لهن: على بركة الله.

---

(١) عرق متصل بالقلب.

(٢) راجع القصة أيضا فيما يلي ص ٤٨٦.

شهداء المسلمين في غزوة خيبر

١ ــ ربيع بن أكثم، وثقف بن عمرو، ورفاعة بن مسروح. وهم من بني أمية بن عبد شمس.

٢ ــ عبد الله بن الهبيب. من بني أسد بن عبد العزى.

٣ ــ بشر بن البراء بن معرور، وفضل بن النعمان. وهما من بني سلمة الأنصاريين.

٤ ــ مسعود بن سعد بن قيس. من بني زريق.

٥ ــ محمود بن مسلمة من بني عبد الأشهل من الأوس.

٦ ــ أبو ضياح بن ثابت ــ الحارث بن حاطب ــ عروة بن مرة ــ أوس بن القائد ــ أنيف بن حبيب ــ ثابت بن أثلة ــ طلحة ابن يحيى، أوس بن قتادة. من بني عمرو بن عوف.

٧ ــ عمارة بن عقبة. من بني غفار.

٨ ــ عامر بن الأكوع ــ الأسود الراعي. وهما من أسلم.

٩ ــ مسعود بن ربيعة. من بني زهرة.

الحجاج السلمي

وكان الحجاج بن علاط السلمي قد أسلم وماله في مكة وامرأته وولده بها.

فخرج حتى إذا قدم مكة وجد بثنية البيضاء رجالا من قريش يتسمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر، وهي قرية الحجاز ريفا ومنعة ورجالا.

فلما رأوا الحجاج ولم يكونوا قد علموا بإسلامه، قالوا: عنده والله

الخبر أخبرنا يا أبا محمد، قد بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر، وهي بلد يهود، وريف الحجاز.

قال لهم الحجاج: قد بلغني ذلك، وعندي من الخبر ما يسركم.
قالوا: إيه يا حجاج.

قال لهم: هزم محمد هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمد أسرا، وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة، فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم.

فأذاعوا الخبر، وقالوا: هذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم، فيقتل بين أظهركم.

فقال لهم الحجاج: أعينوني على جمع مالي بمكة وعلى غرمائي، حتى أقدم خيبر، قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك حتى أصيب من مال محمد وأصحابه من فرص البيع، فجمعوا له ماله كله، ثم أخذ ماله الذي له عند زوجته.. وخرج إلى المدينة.

ما قيل من الشعر في خيبر

١ ــ قال ناجية بن جندب الأسلمي:

يا لعباد الله فيم يرغب.
ما هو إلا مأكل ومشرب.
وجنة فيها نعيم معجب.

٢ ــ كعب بن مالك في خيبر في المسلم المجاهد في خيبر:

يرى القتل مدحا إن أصاب شهادة ... من الله يرجوها وفوزاً بأحمد
يذود ويحمي عن ذمار محمد ... ويدفع عنه باللسان وباليد
وينصره من كل أمر يريبه ... يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بالأنباء بالغيب مخلصاً ... يريد بذلك الفوز والعز في غد

فدك

لما تم الفتح يوم خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، فبعثوا إلى رسول الله يصالحونه على النصف من فدك، وقدمت رسلهم على رسول الله بخيبر، أو بالطريق، أو بعد ما قدم المدينة، فقبل رسول الله ذلك منهم. فكانت فدك لرسول الله خالصة.

معاملة الرسول ليهود خيبر

١ ــ بعد الفتح فتح خيبر، دعا رسول الله اليهود، فقال لهم: إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها، وتكون ثمارها بيننا وبينكم، وأقركم ما أقركم الله.

فقبلوا، فكانوا على ذلك يعملونها.

٢ ــ ولما توفي رسول الله أقرهم أبو بكر على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله حتى توفي.

٣ ــ وفي عهد عمر، بلغه أن رسول الله قال في مرض موته: لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان، فأجلي اليهود عن خيبر إلا من كان منهم معه عهد من رسول الله ﷺ.

وكان اليهود قبل إجلائهم عن خيبر قد قتلوا رجلا من الأنصار، واعتدوا على عبد الله بن عمر، فكسروا يديه وهو نائم في ماله.

قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة
صفر سنة سبع من الهجرة

قدم يوم فتح خيبر ــ على رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فقبله رسول الله بين عينيه، والتزمه، وقال: « ما أدري بأيهما أنا أسر: بفتح خيبر، أم قدوم جعفر ».

وكان رسول الله قد بعث إلى الحبشة بقدوم المسلمين المهاجرين فيها عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين، فقدم بهم عليه ﷺ بعد الحديبية وهو بخير.

عائدون

ومن القادمين من أرض الحبشة:

ــ جعفر بن أبي طالب ــ ابنه عبد الله الذي ولد بالحبشة.

ــ زوج جعفر أسماء بنت عميس الخثعمية.

ــ وقتل جعفر في مؤتة بأرض الشام.

ــ خالد بن سعيد بن العاص ــ امرأته أمينة بنت خلف ــ ابناه سعيد وأمة ولدا في أرض الحبشة، وقتل خالد في الشام في خلافة أبي بكر.

ــ عمرو بن سعيد بن العاص ــ امرأته فاطمة بنت صفوان ماتت في الحبشة، وقتل عمرو في الشام في خلافة أبي بكر.

ــ أبو موسى الأشعري.

ــ الأسود بن نوفل بن خويلد.

ــ جهم بن قيس، وابناه: عمرو وخزيمة وماتت امرأته هناك.

ــ عامر بن أبي وقاص، وعتبة بن مسعود.

ــ الحارث بن خالد بن صخر ــ ماتت امرأته ريطة بالحبشة.

وجميع من قدم من المسلمين ستة عشر رجلا قدموا في السفينتين، معهم نساؤهم وأولادهم.

أم حبيبة

تنصر في أرض الحبشة عبيد الله بن جحش الأسدي، فخلف رسول الله أم حبيبة من بعده، واسم أم حبيبة رملة، باسم ابنتها حبيبة[1].

يزيد بن زمعة

عاد بعد خيبر، وقتل يوم حنين.

قادمون بعد خيبر

ومن قدم بعد ذلك ومن لم يقدم على رسول الله أربعة وثلاثون.

ومن مات بالحبشة منهم سبعة، ومن مات من أبنائهم رجل.

وجميع من هاجر إلى الحبشة من النساء من قدم منهن على رسول الله ومن هلك هنالك ست عشرة امرأة، سوى بناتهن اللاتي ولدن هنالك.

أم سلمة

وقدمت أم سلمة بنت أبي أمية، ومعها بنتها زينب ابنتها من أبي سلمة ولدتها هنالك.

ماتوا في الطريق

وفي الطريق ماتت ريطة بنت الحارث، وبنتان لها، وأختها عائشة بنت الحارث، وأختها كذلك زينب بنت الحارث، وأخوهن موسى بن الحارث، هلكوا جميعاً في الطريق، ولم يبق لهن إلا بنت اسمها فاطمة، هي بنت ريطة.

---

(١) من بنات عم الرسول، تزوجها رسول الله وعقد له عليها بأرض الحبشة سنة ست ماتت عام ٤٤ هـ. وقيل: عام ٥٩ هـ (١٥٥ ــ ١/١٥٨ سير أعلام النبلاء).

عمرة القضاء (أو القصاص)
ذي القعدة سنة سبع من الهجرة

١ ــ خرج رسول الله في ذي القعدة، في الشهر الذي صده فيه المشركون، معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التي صدوه عنها.

واستعمل الرسول على المدينة عويف بن الأضبط وخرج مع رسول الله المسلمون الذين كانوا معه ممن صد معه في عمرته.

وخرج أهل مكة منها حين دخلها الرسول وأصحابه.

وكان عبد الله بن رواحة آخذا بخطام ناقة رسول الله حين دخل مكة، وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله
أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله.

وتزوّج رسول الله ميمونة بنت الحارث في سفره لعمرة القضاء وهو حرام، زوجه إياها العباس بن عبد المطلب، وهو زوج أخت ميمونة، فزوجها العباس رسول الله بمكة، وأصدقها الرسول أربعمائة درهم.

وطاف رسول الله وسعى وأدى عمرته، وأقام بمكة ثلاثا.

٢ — وفي اليوم الثالث أتاه حويطب بن عبد العزى، وكانت قريش قد وكلته بإخراج رسول الله من مكة، فقال له: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا.

فقال النبي ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه؟

قال حويطب: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا.

فخرج رسول الله، وخلف مولاه أبا رافع على ميمونة، حتى أتاه بها، وهو بسرف، فبنى بها رسول الله ﷺ هنالك[1] ثم انصرف رسول الله إلى المدينة في ذي الحجة سنة سبع من الهجرة.

---

(١) هي آخر أزواجه ﷺ راجع في ترجمتها ١٦٩ — ١/١٧٤ سير أعلام النبلاء — وهي خالة خالد بن الوليد، وأخت الفضل زوج العباس، وخالة عباس، تزوجها مسعود بن عمرو الثقفي قبيل الإسلام ففارقها، ثم أبو رهم بن عبد العزى، فمات، فتزوجها رسول الله سنة سبع. وقد بعث رسول الله أبا رافع وأوس بن خولي العباس قبل أن يخرج من المدينة، فزوجاه ميمونة.. توفيت عام ٦١ هـ عن ثمانين سنة ولدت عام ١٩ ق هـ.

٣٢ ــ غزوة مؤتة
في جمادى الأولى سنة ثمان

١ ــ الجيش العظيم

في جمادى الأولى من سنة ثمان من الهجرة (سبتمبر ٦٢٩ هـ) جهز رسول الله صلوات الله عليه جيشاً بعثه إلى مؤتة بأرض الشام في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة، وولى عليهم زيد بن حارثة، وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس. فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس.

فتجهز الجيش وعددهم ثلاثة آلاف.

وخرج المسلمون فودعوا الجيش وأمراءه، وسلموا عليهم، وقالوا لهم: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، وودع عبد الله بن رواحة رسول الله بقصيدة منها:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن ... في المرسلين، ونصرا كالذي نصروا

وخرج الجيش وخرج الرسول يودعه، فقال ابن رواحة:

مني السلام على امرئ ودعته ... في النخل خير مشيع وخليل

٢ ــ المعركة وأبطالها

ومضى المسلمون، حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من قبائل العرب مائة ألف.

فأقام المسلمون في معان ليلتين، يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب

إلى رسول الله فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له، فخطب عبد الله بن رواحة الناس يحثهم على الجهاد.

فتقدم جيش المسلمين، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من عرب وروم بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف، ودنا العدو، وتجمع المسلمون في قرية يقال لها مؤتة، ودارت فيها معركة شديدة قتل فيها زيد بن حارثة، ثم خلفه جعفر وهو يقول:

حبذا الجنة واقترابها
طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها
كافرة بعيدة أنسابها.

وكان جعفر قد أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل عن ثلاث وثلاثين سنة، وقد ولد قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة، والرسول في الخامسة والعشرين من عمره، وقد جعل الله له جناحين في الجنة، ويسمى ذا الجناحين[1].

وقد حمل بعده اللواء عبد الله بن رواحة، وهو يقول:
يا نفس إلا تقتلي تموتي
هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت
إن تفعلي فعلهما هديت

يريد صاحبيه: زيدا وجعفرا، وجاهد ابن رواحة حتى قتل، فأخذ الراية بعده ثابت بن أرقم، حتى اختار الناس خالد بن الوليد، فأخذ

(١) استشهد في غزوة مؤتة سنة ٨هـ. /١٥٠ سير أعلام النبلاء.

الراية وقاتل حتى انصرف بالمسلمين، أي أنه قد استطاع أن يقوم بحركة ارتداد إنقاذا لجيشه.

وأخبر رسول الله المسلمين بموت جعفر وزيد وابن رواحة، وذهب إلى بيت جعفر يقبل أولاده، ثم أمر المسلمين بتعهد آل جعفر، وحزن رسول الله.

وانصرف خالد بجيش المسلمين قافلا، فلما دنوا من المدينة تلقاهم رسول الله والمسلمون بالاكبار والتقدير.

٣ ــ الشعراء يرثون الأبطال

وقال حسان قصيدة منها:

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى في جعفر من محمد ... وفاءا وأمرا حازما حين يأمر
ومازال في الإسلام من آل هاشم ... دعائم عز لا يزلن، ومفخر
وحمزة والعباس منهم ومنهم ... عقيل، وماء العود من حيث يعصر
همو أولياء الله أنزل حكمه ... عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر

وقال كعب بن مالك:

صلى الإله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا
إذ يهتدون بجعفر ولوائه ... قدام أولهم فنعم الأول
قرم(١) علا بنيانه من هاشم ... وعليهم نزل الكتاب المنزل

---

(١) السيد الكريم.. وكعب بن مالك شاعر رسول الله توفي عام ٥٠ هـ.

وبكى حسان جعفرا، وبكى زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، بشعره.

٤ ــ شهداء مؤتة

١ ــ جعفر[1]
٢ ــ زيد بن حارثة[2]
٣ ــ عبد الله بن رواحة[3]
٤ ــ مسعود بن الأسود.
٥ ــ وهب بن سعد بن أبي سرح.
٦ ــ عباد بن قيس.
٧ ــ الحارث بن النعمان.
٨ ــ سراقة بن عمرو
٩و١٠ ــ أبو كليب، وأخوه جابر، ابنا عمرو بن زيد.
١١ ــ عمرو وعامر: ابنا سعد بن الحارث.

---

(١) توفي سنة (٥٨)، قتل في مؤتة وهو الذي ورد اسمه في سورة الأحزاب (سير أعلام النبلاء ١:١٦٠).

(٢) قتل عام ٨ هـ في مؤتة (١٦٦ ــ ١٧٣: ١ سير أعلام النبلاء).

(٣) كانت أسماء بنت عميس زوجة لجعفر، هاجرت معه إلى الحبشة، ثم هاجرت معه إلى المدينة عام ٧ هـ، وتزوج بها بعد جعفر: أبو بكر، ثم علي، وعاشت بعد علي (٢:٢٠٤ ــ ٢٠٧ سير أعلام النبلاء).

دعوة رسول الله الملوك والأمراء إلى الإسلام[1] منذ ذي الحجة من عام ستة من الهجرة

١ ـــ بعث رسول الله ﷺ في ذي الحجة عام ستة من الهجرة رسله إلى الملوك والأمراء يحملون رسائله إليهم، يدعوهم فيها إلى الإسلام وذلك بعد الحديبية.

وقيل: كانت بعثة الرسول لرسله فيما بين الحديبية ووفاته ﷺ.

٢ ـــ فبعث حاطب بن أبي بلتعة في وفد إلى المقوقس صاحب الاسكندرية، وقد رد المقوقس على رسالة رسول الله ردا جميلا، وبعث معه جارية اسمها مارية تزوجها رسول الله، وجارية أخرى اسمها سيرين أهداها الرسول إلى حسان فتزوجها وولدت ابنه عبد الرحمن بن حسان[2].

وبعث دحية الكلبي إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم، فأجاز قيصر

(١) لم يتحدث ابن هشام عن رسائل رسول الله إلى الملوك والأمراء ـــ وذكر الطبري رسل رسول الله إلى الملوك والأمراء (٢٨٨ ـــ ٢:٢٩٧ طبري).
(٢) وقيل: بعث المقوقس بأربع جوار إلى رسول الله.

دحية بمال وكساه كسى جميلة، فأقبل حتى إذا كان بحسمى لقيه ناس من جذام فقطعوا الطريق عليه(١) فلم يتركوا معه شيئا.

وبعث رسول الله عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى برسالة فمزقها كسرى، وقال: يكتب إلي هذا وهو عبدي، فدعا عليه رسول الله أن يمزق الله ملكه، وكتب كسرى إلى باذان واليه على اليمن بأن يبعث إلى الحجاز رجلين يأتيانه بمحمد، فبعث باذان رجلين إلى المدينة فأخبرهما رسول الله بأن الله سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله(٢).

وبعث رسول الله عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فصدق رسالة رسول الله، وبعث ابنه في وفد من الحبشة في سفينة غرقت بهم في البحر(٣).

وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك دمشق، وقيل بل إلى جبلة بن الأيهم الغساني، وقيل: إنه توجه لهرقل مع دحية.

وبعث سليط بن عمرو العامري من عامر بن لؤي إلى هوذة الحنفي صاحب اليمامة(٤)، وإلى ثمامة بن أثال الحنفي(٥)، وهو صاحب جانب من اليمامة.

---

(١) ٢٨٦:٢ الطبري ــ وكان دحية من أجمل الصحابة الموجودين في المدينة فلذا كان جبريل ربما نزل في صورته (٣٩٨:٢ سير أعلام النبلاء)، وكان كذلك جرير بن عبد الله أجمل الناس، وتوفي عام ٥٤ هـ (٣٨١:٢ ــ ٣٨٤ سير أعلام النبلاء).

(٢) كان ذلك في ١٠ جمادى الأول سنة سبع ــ ٦٢٩ م ــ راجع ٢:٢٩٧ الطبري، ٥ جـ ٢ سير أعلام النبلاء.

(٣) ٢:٢٩٥ الطبري، وراجع ٦٢:١ زاد المعاد.

(٤) عاصمته كانت (الخرج).

(٥) مقره هو حجر (الرياض اليوم).

وبعث العلاء بن الحضرمي[1] إلى المنذر بن ساوي أخي بني عبد القيس وصاحب البحرين.

وبعث عمرو بن العاص إلى صاحبي عمان، وهما جيفر وعياذ الأزديان ابنا الجلندي، فأسلما.

وبعث الحارث بن عمير إلى عامل هرقل على بصرى شرحبيل بن عمرو فقتل الحارث رسول رسول الله. مما كان سببا في غزوة مؤتة.

هذا وعبد الله بن حذافة السهمي رسول نبي الله إلى كسرى هو الذي أسره الروم في معارك الشام في عهد عمر، وبالغوا في تعذيبه وامتحنه قيصر امتحانا شديدا، فلما بعث عمر إلى قيصر يهدده طالبا إطلاق سراحه أطلقه وأطلق معه ثلاثمائة أسير وأجازه بثلاثين ألف دينار وثلاثين وصيفة وثلاثين وصيفا[2].

وبعث رسول الله عياش بن أبي ربيعة المخزومي بكتاب إلى الحارث ومسروح ونعيم بني عبد كلال[3].

وقيل إنه بعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن.

وبعث مسعود بن سعد إلى فروة الجذامي عامل قيصر على معان، فأسلم وكتب إلى رسول الله باسلامه، وبعث اليه بهدية وهي بغلة شهباء وفرس وحمار وقباء سندس مخوص بالذهب، وأثواب.

---

(١) من حضرموت ولاه رسول الله البحرين، وظل عليها لأبي بكر وعمر، وتوفي عام ٥٢١ (١٩:١ سير أعلام النبلاء).

(٢) راجع ٨:٢ سير أعلام النبلاء — وراجع ٦٢:١ زاد المعاد في شأن رسائل رسول الله.

(٣) ٦٣:١ زاد المعاد.

وقيل: إنه ﷺ بعث عمرو بن أمية الضمري إلى مسيلمة الكذاب.

٣ ــ رسالة رسول الله إلى النجاشي[١].

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتابا هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة.

« سلم[٢] أنت، فإني أحمد الله إليك الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه.. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرا، ونفراً معه من المسلمين فإذا جاؤك فأقرهم، ودع التجبر، والسلام على من اتبع الهدى.. ».

وبلاغة رسول الله ﷺ مضرب الأمثال في روعتها وعظمتها وسمو منزعها وصدق حكمتها، وهي تلي بلاغة القرآن الكريم في سمو المنزلة ورفعة الشأن وقد كان ﷺ لا ينطق عن الهوى ومن ثم جاءت بلاغته دعوة إلى الخير والحق، وتقريراً لشريعة القرآن وآدابه ومثله.

وفي هذه الرسالة النبوية البليغة المعجزة التي بعث بها صلوات الله عليه إلى ملك الحبشة تتجلى الحكمة الرائعة، والمعاني السامية، والأسلوب المشرق، والإيجاز المحكم.

---

(١) ٢٩٤:٢ الطبري.

(٢) المعنى: سلام.

بدأ رسول الله صلوات الله عليه الرسالة بهذا التعبير الرائع « سلم » أي سلام ثم حمد الله وأثنى عليه ونوه بعيسى ووصفه بما وصفه به القرآن الكريم، وقد كانت الحبشة تدين بدين عيسى عليه السلام.

ثم دعا ملك الحبشة، وقومه إلى الإسلام، وإلى إكرام ضيوفه ونصحهم ثم ختم الرسالة بقوله صلوات الله عليه: والسلام على من اتبع الهدى.

٤ ـ وكتب ﷺ إلى هرقل ملك الروم:

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فأني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[1] ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[2].

وقال أبو سفيان[3] بن حرب:

كنا قوما تجاراً، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله ﷺ قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا، فلما كانت الهدنة، هدنة الحديبية، بيننا وبين رسول الله ﷺ، خرجت في نفر من قريش إلى الشام، وكان وجه متجرنا منه غزة فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من الفرس فأخرجهم منها، وانتزع منهم صليبه الأعظم، وكانوا قد استلبوه إياه.

---

(١) الأريسيون: الفلاحون والعمال لأنهم تبع لساداتهم وكبرائهم.

(٢) ٢:٢٩١ الطبري.

(٣) هو صخر بن حرب من سادات قريش في الجاهلية، كان من رؤساء المشركين يوم الأحزاب ويوم أحد، وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ، وتوفي سنة ٣١ هـ.

فلما بلغه ذلك منهم وبلغه أن صليبه قد استنقذ منهم، وكانت حمص منزله خرج منها يمشي على قدميه شكراً لله حين رد عليه ماردٌ، ليصلي في بيت المقدس، تبسط له البسط وتلقي عليها الرياحين.

فلما انتهى إلى إيلياء فقضى فيها صلاته، وكان معه بطارقته وأشراف الروم أصبح ذات غدوة مهموما يقلب طرفه إلى السماء، فقال له بطارقته: والله لكأنك أصبحت الغداة مهموما.

فقال: أجل! رأيت البارحة أن ملك الختان ظاهر، فقالوا: أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلا اليهود، وهم في سلطانك وتحت يدك، فابعث إلى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق من تحت يدك منهم من يهود، واسترح من هذا الهم.

فوالله إنهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى[1] برجل من العرب يقوده، وكانت الملوك تتهادى الأخبار بينهم فقال: أيها الملك إن هذا رجل من العرب من أهل الشاة والإبل يحدث عن أمر حدث فاسأله.

فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب بصري، قال هرقل لمن جاء به: سله عن هذا الحديث الذي كان ببلده فسأله، فقال: خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي، وقد اتبعه ناس فصدقوه وخالفه آخرون، وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة، وتركتهم على ذلك.

فلما أخبره الخبر قال: جردوه فإذا هو مختون، فقال: هذا والله النبي الذي رأيت لا ما تقولون، أعطوه ثيابه وينطلق. ثم دعا صاحب شرطته فقال له: اقلب الشام ظهراً لبطن حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل.

(١) بلد من أعمال دمشق.

فإنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال: أنتم من قوم الحجاز قلنا نعم! قال انطلقوا إلى الملك، فانطلقوا بنا. فلما انتهينا إليه قال أنتم من رهط هذا الرجل الذي بالحجاز قلنا نعم. قال فأيكم أمس به رحما. قال أبو سفيان. قلت أنا، قال أدن، ثم أقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي. وقال لهم إني سأسأله. فإن كذب فردوا عليه.

قال: فوالله لقد علمت أن لو كذبت ما ردوا علي، ولكني كنت آمرأً سيداً أتبرم عن الكذب. وعرفت أن أيسر ما في ذلك ان أنا كذبته أن يحفظوه علي، ثم يحدثوا به عني، فلم أكذبه.

قال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم ما يدعي، فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أموره. وأقول له أيها الملك: ما يهمك من شأنه! ان أمره دون ما بلغك، فجعل لا يلتفت إلى ذلك مني. ثم قال: أنبئني فيما أسألك عنه من شأنه. قال. قلت: سل عما بدا لك.

قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: محض. هو أوسطنا(١) نسباً. قال: أخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول ما يقول فهو يتشبه به قلت: لا. قال هل كان له فيكم ملك فسلبتموه إياه. فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه؟ قلت: لا. قال: أخبرني عن أتباعه منكم من هم قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء. فأما ذوو الأسنان من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد. قال: فأخبرني عمن يتبعه أيحبه ويلزمه، أم يقليه ويفارقه. قلت: قلما يتبعه أحد فيفارقه. قال: أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه. قلت: سجال يدال وندال عليه.

قال: فأخبرني هل يغدر. فلم أجد شيئاً أغتمز فيه غيرها وقلت:

---

(١) أي أخيرنا وأفضلنا نسبا.

لا. ونحن منه في مدة[1] ولا نأمن من غدره. قال: فوالله ما التفت إليها مني.

ثم كرر عليّ الحديث فقال: سألتك عن نسبه فيكم. فزعمت أنه محض من أوسطكم نسبا، فكذلك يأخذ الله النبي لا يأخذه إلا من أوسطه قومه نسبا. وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا. وسألتك هل كان له ملك فيكم فسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب ملكه، فزعمت أن لا. وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والأحداث والمساكين والنساء، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان. وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه، فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه فكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلب رجل فتخرج منه.

وسألتك عن الحرب بينكم وبينه فزعمت أنها سجال تدالون عليه ويدال عليكم، وكذلك حرب الأنبياء، لهم تكون العاقبة، وسألتك هل يغدر، فزعمت أن لا، فلئن كنت صدقتني عنه فليغلبن على ما تحت قدمي هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه، انطلق لشأنك.

فقمت من عنده وأنا أضرب بإحدى يدي على الأخرى وأقول: يا لعباد الله، لقد أمر[2] أمر ابن أبي كبشة[3] أصبحت ملوك بني الأصفر[4] يهابونه في ملكهم وسلطانهم.

---

(١) في مدة: يعني بها مدة صلح الحديبية.

(٢) أمر: عظم.

(٣) أبو كبشة: رجل من خزاعة خالف قريشا في عبادة الأوثان وعبد الشعري العبور. فسمي المشركون النبي ﷺ ابن أبي كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى، تشبيها له بأبي كبشة الذي خالفهم إلى عبادة الشعرى وقيل هو كنية الحارث بن عبد العزى أبو الرسول رضاعا، كانوا ينسبونه إليه استهزاء بالرسول.

(٤) بنو الأصفر: لقب ملوك الروم.

٥ ـــ رسالة الرسول إلى المقوقس[١].

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط.

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فعليك إثم كل القبط، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.. محمد رسول الله.

٦ ـــ وكتب في صلح الحديبية بينه وبين قريش[٢]:

باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضه عن بعض، على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة[٣]، وأنه لا إسلال ولا إغلال[٤]، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا

---

(١) أورد الطبري والقلقشندي نصا آخر لهذا الكتاب بمخالفة يسيرة في بعض الألفاظ كقوله: « فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ».

(٢) الحديبية: قرية صغيرة بينها وبين مكة مرحلة فنزل بها النبي عليه السلام سنة ست للهجرة قاصداً مكة لزيارة الكعبة فأرادت قريش منعه من الدخول مخافة العار. وبعد تراسل بينهما تصالحا على ما في هذه الصحيفة.

(٣) العيبة: موضع السر أو الخريطة الملابس والمراد الأمن.

(٤) الاسلال: السرقة الخفية والرشوة والاغلال: الخيانة.

تدخل علينا مكة، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، وإن معك سلاح الراكب والسيوف في الركب، فلا تدخلها بغير هذا.

٧ ـــ كتاب الرسول إلى المنذر بن ساوي:

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي. سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد: فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصحهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك ومن أقام على يهوديته أو نصرانيته فعليه الجزية.

٨ ـــ كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز.

بسم الله الرحمن الرحيم:

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأدعوك بدعاية الله عز وجل، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين. وأسلم تسلم، فإن توليت فإنما إثم المجوس عليك.

٩ ـــ كتابه ﷺ لبني ضمرة بالموادعة.

هذا كتاب من محمد ﷺ لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من ناوأهم، وأن لا يحاربوا في دين الله، ما بل بحر صوفة، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برّ منهم واتقى.

٣٣ ـ فتح مكة
في رمضان عام ٨ هـ.

١ ـ بعد صلح الحديبية ـ الذي كان من نصوصه أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ـ دخل بنو بكر بن عبد مناة ابن كنانة في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد الرسول وعهده.

وكانت بين القبيلتين دماء في الجاهلية.

فلما كانت الهدنة التي تلت صلح الحديبية، عادت الحرب بين القبيلتين، حرب الثأر والانتقام، وناصرت قريش بني بكر على خزاعة، فرفدتهم بالسلاح، وقاتلت معهم حتى حازوا خزاعة إلى الحرام فلما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم اسمه رافع.

وقال في ذلك شاعر من بني بكر:

حبسناهم في دارة العبد «رافع» وعند بديل محبسا غير طائل

وهكذا تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانت خزاعة في عقده وعهده..

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي، حتى قدم على رسول الله المدينة، فأنشد رسول الله في المسجد والناس حول رسول الله:

يا رب إني ناشد محمداً
حلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]

(١) القديم.

قد كنتم ولداً وكنا والدا
ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا[1]
وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا[2]
إن سيم خسفا وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مزيدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
زعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعاً وسجدا

فأجابه رسول الله: نصرت يا عمرو بن سالم.

وخرج بديل بن ورقاء في وفد من خزاعة إلى المدينة، فأخبروا رسول الله بما كان، وبمظاهرة قريش لبني بكر عليهم.

ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وفي عسفان لقيه أبو سفيان، بعثته قريش إلى رسول الله ليؤكد العقد والهدنة، وليزيد في المدة، وقدم أبو سفيان على رسول الله، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري، أرغبت لي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش

---

(١) حاضرا.

(٢) تشمر للحرب.

رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله، قال: لقد أصابك يا بنية بعدي شر.

ثم خرج أبو سفيان فكلم رسول الله، فلم يرد عليه شيئاً.. فذهب إلى أبي بكر ليكلم له رسول الله، فرد عليه: ما أنا بفاعل، فأتى عمر فكلمه أن يكلم رسول الله، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله. فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به فأتى علياً فكلمه فقال له: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فقال: يا أبا الحسن. إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً.

وعاد أبو سفيان إلى مكة بخفي حنين.

٢ ــ وأمر رسول الله الناس بالاستعداد، وأعلم الناس أنه سائر إلى مكة واحتاط في الأمر حتى لا تعلم قريش شيئاً.

ولكن حاطب بن بلتعة كتب كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله من السير إليهم، وأعطى الكتاب لمولاة لبعض بني عبد المطلب اسمها سارة، وجعل لها جائزة على أن تبلغ كتابه قريشاً، فجعلته في رأسها وفتلت عليه ضفائرها، وخرجت به. ونزل الوحي من السماء ليخبر الرسول بذلك، فبعث عليا والزبير، وقال لهما: « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم »، فخرجا حتى أدركاها، فاستنزلاها، وسألاها عن الكتاب فأنكرت، وفتشا في رحلها فلم يجدا شيئاً، فهددها علي وقال لها: إني أحلف بالله ما كذب رسول ولا كذبنا، فأخرجت الكتاب، فأخذاه وأتيا به رسول الله، فسأل حاطب ما حملك على هذا؟ فاعتذر وعفا رسول الله عن جريمته.

واستخلف رسول الله على المدينة: أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري.

وخرج صلوات الله عليه يقود الجيش في عشر من رمضان عام ثمانية من الهجرة، في عشرة آلاف من المسلمين.

وفي ذلك الحين كان العباس عم الرسول يخرج من مكة مهاجراً إلى المدينة.

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الشاعر، ابن عم رسول الله ومعه عبد الله بن أبي أمية(١) بن المغيرة المخزومي قد خرجا إلى رسول الله ليسلما، فلقياه في نيق العقاب بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال بمكة ما قال.

فقال أبو سفيان، ومعه بني له: والله ليأذن لي أو لآخذن بيدي بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فعطف رسول الله عليهما، وأذن لهما، فدخلا عليه، وأسلما، وأنشد أبو سفيان رسول الله قصيدة له في مدحه.

وأدرك أبو سفيان العباس عم رسول الله في الجحفة، وسار معه إلى مر الظهران، وشاهد جيشه العتيد القوي يسير والنصر فوق ألويته، فلم يملك إلا أن يقول:

واصباح قريش، والله لئن دخل محمد مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

وجلس العباس على بغلة رسول الله البيضاء، وسارت به إلى « الأراك » لعله يجد أحداً يخبر قريشاً في مكة بمكان رسول الله، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

---

(١) كان أبو أمية زوجا لعاتكه عمة رسول الله.

وفي تلك الأيام كانت قريش في حيرة شديدة، وقد عميت عليهم الأخبار فلا يأتيهم خبر عن رسول الله، ولا يدرون ما هو فاعل وخرج في إحدى الليالي ثلاثة منهم يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً، أو يسمعون به، وهم:

١ ــ أبو سفيان بن حرب.
٢ ــ حكيم بن حزام.
٣ ــ بديل بن ورقاء.

يقول العباس عم الرسول: فوالله إني لأسير، وألتمس ما أخرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل وهما يتحدثان، وأبو سفيان يقول لصاحبه: « ما رأيت كالليلة نيراناً قط، ولا عسكراً » وبديل يقول له: هذه والله خزاعة، حمستها الحرب[١]، وأبو سفيان يرد عليه: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

فنادى العباس[٢]، على أبي سفيان، فرد عليه: ما لَكَ فداك أبي وأمي، فقال له العباس: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله في الناس، واصباح قريش والله، قال أبو سفيان: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي.

العباس: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب ورائي حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك.

أبو سفيان يركب خلف العباس ويرجع صاحباه، فكلما مر بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله والعباس عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته!! حتى مر بنا عمر قال: من هذا وقام إلى العباس، فلما رأى أبا سفيان قال: أبو سفيان عدو الله،

---

(١) اشتدت عليها الحماسة وهي الشجاعة والشدة.

(٢) ولد العباس قبل عام الفيل بثلاث سنوات ومات سنة ٣٢ هـ (٢:٧ ــ سير أعلام النبلاء).

الحمدلله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، وعدا إلى رسول الله، وسار العباس فسبقه إلى رسول الله وقال عمر: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فقال العباس: يا رسول الله إني قد أجرته، وتحاور عمر والعباس في مجلس رسول الله، فقال ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فاتني به، فلما أصبح غدا به إلى رسول الله فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، فغمزه العباس وقال له: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

فشهد أبو سفيان شهادة الإسلام قال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا، قال صلوات الله عليه: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فلما ذهب العباس لينصرف قال له رسول الله: يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الخيل حتى تمر به جنود الله فيراها.

ففعل العباس، ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه فأقول: سليم، فيقول: ما لي ولسليم، وأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفذت القبائل، حتى مر رسول الله في كتيبته الخضراء[1]، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق

(١) قيل لها ذلك لكثرة الحديد وظهوره فيها.

من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ فرد عليه العباس. هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، قال أبو سفيان[1]: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال العباس: النجاء إلى قومك.

وعاد أبو سفيان إلى مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت هند بنت عتبة فأخذت بشاربه، وهي تقول: قبح من طليعة قوم، قال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

٣ ــ ودخل رسول الله مكة، وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد..

دخل الزبير ببعض الجيش من كدي، وسعد بن عبادة من كداء، ثم خلفه ابنه على الراية، فكان هو الذي دخل بها.

ودخل خالد بن الوليد من الليط أسفل مكة وجاء أبو عبيدة فدخل مكة بين رسول الله، ودخل رسول الله من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة، وضربت له هنالك قبته.

وأراد صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أن يقاتلوا.

---

(١) عاش أبو سفيان طويلا، وتوفي عام ٢١ هـ عن تسعين عاماً (٢ ٧٨ سير أعلام النبلاء).

وأعد حماس بن خالد سلاحاً، فقالت له امرأته: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء، فقال لها: والله إني لأرجو أن أصيب بعضهم. وانضم إلى صفوان وعكرمة، فلم يغن عنهم من الله شيئاً وأصيب من المشركين نحو اثني عشر أو ثلاثة عشر رجلا، ثم انهزموا، وكان شعار المهاجرين في فتح مكة والطائف حسين، وشعار الخزرج يا بني عبد الله، وشعار الأوس يا بني عبيد الله.

وأمر رسول الله أمراءه من المسلمين أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

وأمر رسول الله بقتل أناس بعينهم منهم:

الحويرث بن نقيد بن وهب، وكان ممن يؤذي رسول الله بمكة، ولما حمل رسول رسول الله فاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله من مكة يريد بهما المدينة كان الحويرث نخس بهما فرمى بهما إلى الأرض، وقد قتله علي ابن أبي طالب.. وأمر رسول الله بقتل ابن خطل وجاريتيه، اللتين كانتا تغنيان بالشعر الذي قيل في هجاء رسول الله[1].

ولما نزل رسول الله مكة، واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بعضا في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، ثم وقف على بابها، وقد اجتمع له الناس في المسجد، فقال:

لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له
صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت، وسقاية الحاج.

---

(١) سيرة ابن هشام، ٢٠٣ الشفاء للقاضي عياض. وممن أمر رسول الله صلوات الله عليه بقتلهم: مِقْيَس بن صبابة، وجملتهم ستة نفر.

ألا وقتل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء الناس من آدم، وآدم من تراب، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى** ﴾[1].

ثم قال:

يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم، قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثم جلس رسول الله في المسجد، فقال: أين عثمان بن طلحة، فدعي له، فقال ﷺ : « هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء.. ».

ويروى أن رسول الله دخل الكعبة، ومعه بلال، فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام، جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا، فخرج عليهم النبي، فقال: لقد علمت الذي قلتم، وذكر لهم ما قالوه، فقال الحارث وعتاب، نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك.

فلما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة، على رجل من هذيل فقتلته وهو مشرك، فقام رسول الله خطيباً فقال:

« .. يا أيها الناس، إن الله حرم مكة، يوم خلق السموات

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣.

والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة. فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد فيها[1] شجراً، لم تحلل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب »

وحين فتح النبي مكة ودخلها، قام على الصفا يدعو الله، وقد أحدقت به الأبصار، فقالوا فيما بينهم؛ أترون رسول الله إذا فتح عليه أرضه وبلده يقيم بها.

فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال النبي ﷺ: معاذ الله المحيا محياكم، والممات مماتكم.

ودخل رسول الله مكة يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول ﴿ **جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ، إِنَّ البَاطِلَ، كَانَ زَهُوقاً** ﴾[2]. فما أشار لوجه صنم إلا وقع لقفاه، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم، وفي حديث ابن مسعود: فجعل يطعنها ويقول: جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد[3].

وأراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل رسول الله وهو يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه قال رسول الله: أفضالة؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، أذكر الله عز وجل، فضحك النبي، وقال: استغفر الله.

(١) أي يقطع.

(٢) سورة الاسراء آية ٨١.

(٣) ٢٠٣ الشفاء.

وقال فضالة:

قالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا   يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمدا وقبيله   بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيّننا   والشرك يغشي وجهه الإظلام

وإثر فتح مكة خرج صفوان بن امية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فرارا من رسول الله وأمانا على نفسه.

فقال عمير بن وهب[1]: يا نبي الله، إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هارباً منك، ليقذف نفسه في البحر فهلا أمنته.

فقال ﷺ: هو آمن.

قال: يا رسول الله، فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه رسول الله عمامته التي دخل فيها مكة.

فخرج بها عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر، فقال له: يا صفوان، فداك أبي وأمي، الله الله في نفسك أن تهلكها، فهذا أمان من رسول الله، قد جئتك به.

قال له صفوان: ويحك، اغرب عني، فلا تكلمني.

قال: أي صفوان، فداك أبي وأمي، أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزه عزك وشرفه شرفك، وملكه ملكك.

قال صفوان: إني أخافه على نفسي.

قال ابن وهب له: هو أحلم من ذاك وأكرم.. فرجع معه، حتى وقف به على رسول الله.

---

(١) كان زوج عمة النبي ﷺ، وهي أروى بنت عبد المطلب، ووالدة مصعب، وطليب (بدري قتل يوم اليرموك) (١:٢٥٨ سير أعلام النبلاء للذهبي) ومصعب بن عمير قتل يوم أحد (١:١٠٢ سير أعلام النبلاء).

فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك أمنتني.

قال رسول الله: صدق.

قال صفوان: فاجعلني بالخيار فيه شهرين.

قال رسول الله: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر وأسلم صفوان، وكانت فاختة بنت الوليد زوجة له وأسلمت قبله وبعد إسلام صفوان أقرهما رسول الله على النكاح الأول... وكانت أم حكيم زوجاً لعكرمة بن أبي جهل ولما أسلمت استأمنت رسول الله لعكرمة فأمنه، فلحقت به باليمن فجاءت به، فأسلم عكرمة وأقرهما رسول الله على الزواج الأول.

وخرج ابن الزبعرى إلى نجران، فقال فيه حسان:

لا تعدمن رجلا أحلك بغضه نجران في عيش أجذ لئيم

فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى خرج إلى رسول الله فأسلم وقال قصيدته:

منع الرقاد بلابل وهموم والليل معتلج الرواق بهيم

مما أتاني أن أحمد لامني فيه فبت كأنني محموم

إني لمعتذر إليك من الذي أسديت إذا أنا في الضلال أهيم

أيام تأمرني بأغوى خطة سهم، وتأمرني بها مخزوم

فاليوم آمن بالنبي محمد قلبي، ومخطئ هذه محروم

مضت العداوة وانقضت أسبابها ودعت أواصر بيننا وحلوم

فاغفر فدى لك والداي كلاهما زللي، فإنك راحم مرحوم

وعليك من علم المليك علامة نور أغر وخاتم مختوم

أعطاك بعد محبة برهانه شرقاً، وبرهان الإله عظيم

ولقد شهدت بأن دينك صادق حق، وأنك في العباد جسيم

والله يشهد أن أحمد مصطفى مستقبل في الصالحين كريم

وخرج وكذلك هبيرة بن أبي وهب المخزومي بعد الفتح إلى نجران فأقام بها، حتى مات كافراً، وكانت عنده أم هانئ ابنة أبي طالب، واسمها هند.

٨ ـــ وكان جيش المسلمين في فتح مكة عشرة آلاف.. وفي الفتح يقول حسان قصيدته:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

ومنها:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة.

ويؤثر لعمر بن الخطاب في فتح مكة قوله:

ألم تر أن الله أظهر دينه على كل دين قبل ذلك حائد
وأسلبه من أهل مكة بعدما تداعوا إلى أمر من الغي فاسد
غداة أجال الخيل في عرصاتها مسومة بين الزبير وخالد
فأمسي رسول الله قد عز نصره وأمسي عداه من قتيل وشارد

٣٤ ـــ مسيرة خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بني جذيمة سنة ثمان من الهجرة

١ ـــ بعد الفتح بعث رسول الله السرايا فيما حول مكة، تدعو إلى الله عز وجل ولم يأمرهم بقتال.

ومن هذه السرايا كانت سرية خالد، بعثه رسول الله وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعيا إلى الله، فسار إلى بني جذيمة، فوطئهم وأصاب منهم وقتل.

فهرب رجل منهم فأتى رسول الله، فأخبره الخبر، فدعا رسول الله علي بن أبي طالب، وقال له: يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك. فخرج علي حتى جاءهم، ومعه مال قد بعث به رسول الله، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم

من الأموال، فلما فرغ علي من ذلك قال لهم: هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم؟ قالوا: لا، قال فإني أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله، مما لا يعلم ولا تعلمون ففعل، ثم رجع إلى رسول الله فأخبره الخبر، فقال أصبت وأحسنت، ثم قام رسول الله فاستقبل القبلة قائما شاهرا يديه، حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه، يقول اللهم إلي أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد.

وقيل: إن خالد بن الوليد قد قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبدالله بن حذافة السهمي، وقال: إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام.

٣٥ ــ مسيرة خالد لهدم العزى
سنة ثمان من الهجرة

وبعث رسول الله خالدا إلى العزى، وهي بيت بنخلة، يعظمه هذا الحي من قريش وكنانة ومضر كلها.

وكان سدنتها وحجابها من بني شيبان، من بني سليم، حلفاء بني هاشم. فلما انتهى إليها خالد هدمها، ثم رجع إلى رسول الله.

وبعد أن هدم خالد العزى قال: ذهبت العزى فلا عزي اليوم. وقال أيضاً:

كفرانك كفرانك لا سبحانك
إنـي رأيت الله قـد أهـانك[1]

(١) ويروي صاحب كتاب « ديوان الهذليين » شعراً لأبي خراش الهذلي يبكي فيه سادن العزى الذي قتله خالد وأبو خراش ظل على شركه وضلاله القديم (١٤٨/٢ ديوان الهذليين طبعة دار الكتب، وانظر ص ٣٤ وما بعدها من كتاب الأصنام لابن الكلبي).

٣٦ ــ غزوة حنين
في شوال سنة ثمان من الهجرة بعد فتح مكة

١ ــ سمعت هوازن بفتح مكة وانتصار الإسلام في معركته على المشتركين فجمعها مالك بن عوف النصري، فاجتمعت إليه مع هوازن ثقيف كلها، ونصر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وناس قليل من هلال، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء.

فلم يشهدها من هوازن: كعب ولا كلاب.

وفي بني جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب، وكان شيخا مجرباً.

وفي ثقيف سيدان لهم: قارب بن الأسود، وسبيع بن الحارث وأخوه أحمر.

وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري.

وتجمع كل هؤلاء لحرب رسول الله، وأخرج مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، كما فعلت قريش شبيه ذلك في أحد.

وسار مالك بن عوف حتى نزل في أوطاس[1]. وجاء دريد في هودج له يقاد به، فلما نزل حيث نزل الناس، قال لمن معه: في أي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، قال: أين مالك قيل: هذا مالك.

قال: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن

(١) واد في ديار هوازن، كانت فيه وقعة حنين، وفيها قال الرسول: « حمني الوطيس » كناية عن استعار نار الحرب.

له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير، وبكاء الصغير؟

قال: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم.
قال: ولم ذلك؟
قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم.

فزجره دريد، وقال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعلينا قومهم، ثم الق الصباء[1] على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

قال: لا، والله لا أفعل ذلك إنك قد كبرت وكبر عقلك.

٢ ــ وسمع رسول الله ﷺ بأمرهم، فبعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، ففعل ذلك وسمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله، وسمع من مالك ومن أمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله فأخبره الخبر.

فأجمع رسول الله السير إلى هوازن، ليلقاهم وذكر له أن عند صفوان ابن أمية أدرعاً وسلاحاً فأرسل إليه، وهو يومئذ على شركه، وقال له: يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا، فقال صفوان: أغصبا يا محمد، قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح.

---

(١) جمع صابئ يريد المسلمين.

وخرج رسول الله، ومعه ألفان من أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه وفتح الله بهم مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، واستعمل رسول الله عتاب بن أسيد على مكة أميراً على من تخلف عنه من الناس، ومضى رسول الله يريد هوازن، فقال عباس بن مرداس السلمي من قصيدة له:

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها ... مني رسالة نصح فيه تبيان
أني أظن رسول الله صابحكم ... جيشاً له في فضاء الأرض أركان
فيهم سليم أخوكم غير تارككم ... والمسلمون عباد الله غسان
وفي عضادته اليمنى بنو أسد ... والأجربان: بنو عبس وذبيان
تكاد ترجف منه الأرض رهبته ... وفي مقدمه أوس وعثمان[1]

وسار المسلمون مع رسول الله، وفيهم من هو حديث عهد بالجاهلية، حتى بلغوا وادي حنين، وهو من أودية تهامة، وذلك في عماية الصبح[2]، وكانت هوازن قد سبقت إلى الوادي، فكمنوا للمسلمين في شعابه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيأوا وأعدوا العدة، فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد وتفرق المسلمون لا يلوي أحد على أحد.

وانحاز رسول الله ذات اليمين، ونادى:
أيها الناس، هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله.
فلم يغن النداء شيئاً.
وبقي مع رسول الله نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، ومنهم أبو بكر، وعمر وعلي، والعباس، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث، وأسامة بن زيد، وسواهم.

---

(١) من مزينة.
(٢) أي في ظلامه قبل تبلج نوره.

فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله من حفاة أهل مكة الهزيمة، أظهر رجال منهم ما في نفوسهم من الحقد والعداوة، فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمة أصحاب محمد دون البحر، وصرخ كلدة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان بن أمية، وهو يومئذ لا يزال على شركه في المدة التي جعل له رسول الله: اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن. وكان صفوان أخا كلدة لأمه.

وقال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأري ــ وكان أبوه قتل يوم بدر ــ اليوم أقتل محمدا، يقول شيبة: فأدرت برسول الله لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي، فلم أطق ذلك، فعلمت أنه ممنوع مني.

ويقول العباس بن عبد المطلب: إني لمع رسول الله آخذ بمقادة بغلته البيضاء، وكنت امرأً جسيماً شديد الصوت، ورسول الله يقول، وقد رأى ما رأى،: أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال رسول الله: يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة.. فأجابوا لبيك، لبيك، وأخذ الرجل يؤم الصوت، حتى ينتهي إلى رسول الله، والرسول يقول:

أنـــــا النبــــــي لا كـــــذب   أنــــا ابــــن عبــــد المطــــلب

٣ ــ واجتمع إلى رسول الله منهم مائة فاستقبلوا هوازن، فاقتتلوا، وكانت الدعوة أول ما كانت: يا للأنصار ثم يا للخزرج، وكانوا صبرا عند الحرب، فنظر رسول الله إلى تجالد الناس، فقال: الآن حمي الوطيس(١) ثم أخذ رسول الله قبضة من تراب الأرض ورمى بها في

(١) هو التنور، والمراد به الحرب ــ هذا وقد شهد أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر وأخوه ربيعة بن الحارث مع رسول الله يوم حنين.

وجوههم وقال: شاهت الوجوه، ثم قال: انهزموا ورب محمد.

التفت رسول الله إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله، وكان حسن الإسلام منذ أسلم، فقال: من هذا؟ قال: أنا ابن أمك يا رسول الله.

والتفت رسول الله فرأى أم سليم بنت ملحان، وكانت مع زوجها أبي طلحة، وهي حازمة وسطها، ببرد لها، فقال رسول الله: أم سليم، قالت: نعم يا رسول الله، بأبي أنت وأمي أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فانهم لذلك أهل، فقال رسول الله: أَوَيكفي الله يا أم سليم.

ونزلت الملائكة من السماء تقاتل مع رسول الله، فلم يكن إلا هزيمة القوم..

كان مالك بن عوف النصري قد بعث عيونا من رجاله. فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ويلكم!! ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى..

٤ ـــ وانهزمت هوازن، واستحر القتل في ثقيف في بني مالك فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم وفر قارب بن الأسود هو وبنو عمه وقومه.

وأتى المشركون المنهزمون الطائف، ومعهم مالك بن عوف، فعسكر بعضهم في أوطاس، ونزل بعضهم في نخلة، وتبعت خيل رسول الله من سلك في نخلة من الناس.

وأدرك ربيعة بن رفيع، وهو ابن الدغنة، دريد بن الصمة، فقتله.

وبعث رسول الله في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري

فقتلوه، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري، وهو ابن عمه. فقاتلهم وفتح الله على يديه، وهزمهم.

وقال رسول الله يومئذ: إن قدرتم على بجاد[1] فلا يقتلنكم وكان قد أحدث حدثا، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، وهي أخت رسول الله رضاعا، فعنف المسلمون عليها في سيرها، فقالت: تعلموا والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها، حتى أتوا بها رسول الله؛ فلما انتهى بها السير إلى رسول الله، فقالت: يا رسول الله، إني أختك من الرضاعة، فقال: وما علامة ذلك؟ فأخبرته، فعرف رسول الله العلامة فبسط لها رداءه فاجلسها عليه، وخيرها. وقال: إن أحببت فعندي محبة مكرمة، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك فعلت، فقالت بل تردني إلى قومي، فردها رسول الله إلى قومها.

٥ ـــ ونزل في حنين قوله تعالى: ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين، إذا أعجبتكم كثرتكم**﴾[2]

وفي هذه المعركة استشهد من المسلمين:

١ ـــ أيمن بن عبيد.

٢ ـــ يزيد بن زمعة بن الأسود.

٣ ـــ سراقة بن الحارث بن عدي.

٤ ـــ أبو عامر الأشعري.

وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلا.

(١) رجل من بني سعد بن بكر.

(٢) سورة التوبة، الآيات ٢٥ ـــ ٢٧

وجمعت إلى رسول الله سبايا حنين وأموالها، وكان على المغانم مسعود ابن عمرو الغفاري وأمر رسول الله بالسبايا والأموال إلى الجعرانة، فحبست بها وهي ستة آلاف رأس من الأسر، وأربعة وعشرون ألفا من الإبل، وأربعون ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة.

فلما رجع النبي ﷺ إلى الجعرانة قدمت عليه وفود هوازن مسلمين فأعتق أبناءهم ونساءهم كلهم ستة آلاف وأهل بعمرة من الجعرانة وذلك في ذي القعدة سنة ثمان، ثم إن رسول الله رجع إلى المدينة واستخلف أبا بكر على أهل مكة، وقيل: بل عتاب بن أسيد، وأمره أن يقيم للناس الحج ويعلم الناس الإسلام، ورجع إلى المدينة فقدمت عليه وفود ثقيف فبايعوه (الطبري ٢٥٣/٢).

الشعر في يوم حنين ويسمى يوم أوطاس

قال بجير بن زهير في هذا اليوم من قصيدة:

الله أكرمنا وأظهر ديننا ... وأعزنا بعبادة الرحمن
والله أهلكلم وفرق جمعهم ... وأذلهم بعبادة الشيطان

وقال عباس بن مرداس:

يا خاتم النبآء إنك مرسل ... بالحق، كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بني عليك محبة ... في خلقه، ومحمدا سماكا

وله من قصيدة طويلة:

ولكن دين الله دين محمد ... رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بعد الضلالة أمرنا ... وليس لأمر حمه الله[1] دافع

(١) أي قدره الله.

وقال أيضاً:

وأنا مع الهادي النبي محمد ... وفينا، ولم يستوفها معشر ألفا
بفتيان صدق من سليم أعزة ... أطاعوا فما يعصون من أمره حرفا
غداة هزمنا المشركين ولم نجده ... لأمر رسول الله عدلا ولا صرفا
رضا الله ننوي لا رضا الناس نبتغي ... ولله ما يبدو جميعا وما يخفى

وله أيضاً من قصيدة طويلة:

ونحن يوم حنين كان مشهدنا ... للدين عزا وعند الله مدخر
وقد صبرنا بأوطاس أسنتنا ... لله ننصر من شئنا وننتصر
فما ترى معشراً قلوا ولا كثروا ... إلا وقد أوصار منا فيهمو أثر

وله أيضا:

إما أتيت النبي فقل له ... حقا عليك إذا اطمأن المجلس
يا خير من ركب المطي ومن مشى ... فوق التراب إذا تعد الأنفس
إنا وفينا بالذي عاهدتنا ... والخيل تفزع بالكماة وتضرس
وعلى حنين قد وفى من جمعنا ... ألف أمد به الرسول عرندس[1]
كانوا أمام المؤمنين دريئة ... والشمس يومئذ عليهم أشمس
قضى ويحرسنا الإله بحفظه ... والله ليس بضائع من يحرس

وله أيضا:

وكنا على الإسلام ميمنة له ... وكان لنا عقد اللواء وشاهره
وكنا له دون الجنود بطانة ... يشاورنا في أمره ونشاوره
جزى الله خيراً من نبي محمداً ... وأيده بالنصر والله ناصره

---

(١) أي شديد القوى.

وله أيضا:

وقال نبي المؤمنين تقدموا ... وحب إلينا أن نكون المقدما
وجند من الأنصار لا يخالفونه ... أطاعوا فما يعصونه ما تكلما

وقال مالك بن عوف يعتذر عن فراره:

كلفتموني ذنب آل محمد ... والله أعظم من أعق وأظلم
وخذلتموني إذ أقاتل واحدا ... وخذلتموني إذ تقاتل خثعم
وإذا بنيت المجد يهدم بعضكم ... لا يستوي بان وآخر يهدم

وقال قائل من هوازن من قصيدة يذكر فيها مسيرهم إلى رسول الله مع مالك بن عوف بعد إسلامه:

اذكر مسيرهم للناس إذ جمعوا ... ومالك فوقه الرايات تختفق
ومالك مالك ما فوقه أحد ... يوم حنين عليه التاج يأتلق
ثمت نزل جبريل ينصرهمو ... من السماء فمهزوم ومعتنق

وقالت امرأة من بني جشم ترثي أخوين لها:

أعيني جودا على مالك ... معا والعلاء ولا تجمدا

وفي يوم حنين جاء رسول الله أمه من الرضاعة حليمة (السعدية) بنت أبي ذئب من هوازن، فالتفت إليها، وبسط لها رداءه، فجلست عليه، واختلف في إسلامها وإسلام زوجها، وإسلام ثويبة.

٣٧ ــ غزوة الطائف بعد حنين
في سنة ثمان

١ ــ قدم الجيش المهزوم من ثقيف إلى مدينتهم الطائف، فأغلقوا أبواب هذه المدينة وصنعوا الصنائع للقتال، وذلك، بعد حنين.

فسار رسول الله إليهم، حين فرغ من حنين.

فقال كعب بن مالك حين اجمع رسول الله السير إلى الطائف:

وإنـــا قـــد أتيناهـــم بزحـــف يحيـط بسـور حصنهـم صفوفـا
نطيـــع تبينـــا. ونطيـــع ربـــا هـو الرحمـن كـان بنـا رؤوفـا
نجاهـد لا نبالـي مـن لقينـا أأهلكنـــا التـــلاد أم الطريفـــا

فرد عليه كنانة بن عبد ياليل:

مـن كـان يبغينـا يريـد قتالنـا فإنـا بـدار معلـم لا نريمهـا
وجدنا بها الآباء من قبل ما ترى وكانت لنا أطواؤها وكرومها

وقال شداد بن عارض الجشمي في مسير رسول الله:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصر الله من ليس ينتصر
إن الرسول متى ينزل بلادكمو يظعن وليس بها من أهلها بشر

وسار الرسول بجيشه فسلك على « نخلة اليمانية » ثم على قرن، ثم المليح، ثم « بحرة الرغاء »، من « لية » فبني بها مسجداً وصلى فيه، وأمر رسول الله ـــ وهو مار بلية... بحصن مالك بن عوف قائد جموع يوم حنين، فهدم.

ثم سلك في طريق يقال لها « الضيقة » فسماها « اليسرى »، فمر على نخب حتى نزل تحت سدرة يقال لها « الصادرة » وهي قريب من مال لرجل من ثقيف، فأرسل إليه رسول الله: إما أن تخرج، وإما أن نخرب عليك حائطك، فأبى أن يخرج، فأمر رسول الله بإخرابه.

ثم مضى رسول الله، حتى نزل قريباً من الطائف وعسكره.

ورمي الطائفيون رسول الله بالنبل فقتل بعض من المسلمين وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف، فكانت النبل تنهال عليهم ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم، لأنهم أغلقوه عليهم.

فوضع رسول الله عسكره عند مسجده، الذي بالطائف، فحاصرهم

بضعا وعشرين ليلة، وقيل: سبع عشرة ليلة، وكان مع رسول الله من أمهات المؤمنين: أم سلمة، وامرأة أخرى.

وحاصرهم رسول الله، وقاتلهم قتالا شديداً وتراموا بالنبل، ورماهم رسول الله بالمنجنيق، وكان رسول الله أول من رمى به في الإسلام، رمى أهل الطائف.

ولم يشهد حنينا، ولا حصار الطائف اثنان من أشراف ثقيف: عمرو ابن مسعود، ولا غيلان بن سلمة، كانا في جرش(1)، يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق.

واقترب الحصار من نهايته، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة، فزحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف قطع الحديد المحماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل، فقتلوا منهم رجالا، فأمر رسول الله بقطع أعناب ثقيف.. فتقدم إلى الطائف اثنان من المسلمين هما: أبو سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، فناديا ثقيفا: أن أمنونا حتى نكلمكم، فأمنوهما، فدعوا نساء من نساء قريش وبني كنانة ليخرجن إليهما، خوفا عليهن من السبي، فأبين، ومنهن: آمنة بنت أبي سفيان، وكانت زوجا لعروة بن مسعود، ومنهن الفراسية بنت سويد بن عمرو، والفقيمية أميمة، وظل عروة الثقفي على شركه حتى أسلم بعد حصار الطائف.

---

(1) هي في أعلى وادي بيشة وهي قاعدة الأزد وقصة قدوم وفد الأزد يتقدمهم صرد بن عبد الله الأزدي في بضعة عشر رجلا من قومه (٤/٢٣٢ سيرة ابن هشام) معروفة، وجرش: من مخاليف اليمن، وبجوارها جبل شكر، وهي اليوم أطلال وبها آثار وجبل شكر منيع جداً، ويبلغ ارتفاعه عن سطح أرضه نحو ألف قدم وطوله نحو خمسة آلاف متر، وموقعه في متوسط بلاد رفيدة، ويبعد نحو ثلاثين كيلو مترا عن « خميس مشيط » وهي في جنوب الجبل (مجلة العرب السعودية لصاحبها حمد الجاسر، عدد مارس ١٩٧١ ـــ مقال للأستاذ حمد الجاسر عنوانه « جرش قاعدة الأزد ».

وقال ابن الأسود بن مسعود: يا أبا سفيان ويا مغيرة، ألا أدلكما على خير مما جئتما له: إن مال بني الأسود بن مسعود حيث قد علمتما، وإن محمدا إن قطعه لم يعمر أبدا، فكلماه، فليأخذه لنفسه أو ليدعه لله والرحم فإن بيننا من القرابة ما لا يجهل، فتركه رسول الله لهم، وجاء إلى رسول الله من الطائف عبيد فأسلموا، فأعتقهم رسول الله.

وأذن عمر بالرحيل، بأمر رسول الله، دون أن يدخل المسلمون عليهم حصنهم.

وممن استشهد من المسلمين في حصار الطائف: عبد الله بن أبي بكر بن الصديق، وسعيد بن سعيد بن العاص بن أمية، والسائب بن الحارث قيس، وأخوه عبد الله بن الحارث، والمنذر بن عبد الله، وكان جميع من استشهد بالطائف من أصحاب رسول الله اثنا عشر رجلا سبعة من قريش وأربعة من الأنصار، ورجل من بني ليث.

وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم في طائفهم ما بين ذي القعدة منصرف رسول الله إلى شهر رمضان من سنة تسع.

وخرج رسول الله حين انصرف عن الطائف، حتى نزل بالجعرانة هو وجيشه.

فقال له رجل من المسلمين: يا رسول الله، أدع على ثقيف، فقال رسول الله: اللهم أهد ثقيفا، وائت بهم.

٣ ــ وفي الجعرانة أتى رسول الله وفد هوازن، وقد أسلموا، فقالوا يا رسول الله أمنن علينا مَنَّ الله عليك، وكان مع رسول الله من أسراهم ستة آلاف، ومن الإبل والشاة ما لا يحصى، فقال لهم رسول الله: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فآثروا إطلاق سراح أسراهم

من الأبناء والنساء فقال لهم رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم. فردوا إلى هوازن أبناءهم ونساءهم جميعا.

وسأل رسول الله وفد هوازن عن مالك بن عوف، فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله: أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل فأخبروه بذلك، فخرج من الطائف إلى رسول الله، فأدركه بالجعرانة، أو بمكة، فأسلم فرد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل وحسن إسلامه، وقال في رسول الله:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهمو، بمثل محمد
أوفي وأعطي للجزيل إذا اجتدي ... ومتى تشأ يخبرك عما في غد

فاستعمله رسول الله على من أسلم من قومه.

ولما فرغ رسول الله من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب، واتبعه الناس يقولون: يا رسول الله، أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم.

فقام رسول الله فحذرهم من الغلول في الغنيمة، فرد المسلمون ما كانوا أخذوه منها.

فقسم رسول الله الفيء بين المسلمين، وأعطى المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشرافا من أشراف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم، فأعطى مائة من البعير لبعض شرفاء الناس، وأعطى ما دون ذلك لمن هم دونهم، وأعطى عباس بن مرداس السلمي أباعر فسلخها، فعاتب فيها رسول الله فقال:

فأصبح نهبي ونهب العبـ ... ـيد بين عيينة والأقرع
وقد كنت في الحرب ذا تدرأ ... فلم أعط شيئا ولم أمنع

وما كان حصن ولا حابس يفوقان عباس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

يريد: الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزازي، وهما ممن أعطي كل منهما مائة بعير ــ والعبيد في شعر ابن مرداس: هو اسم فرسه.

فقال رسول الله: اذهبوا فاقطعوا عني لسانه، فأعطوه حتى رضي، فكان ذلك قطع لسانه الذي أمر به رسول الله.

وجاء عباس بن مرداس إلى رسول الله، فقال له: أنت القائل: فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة، فقال أبو بكر الصديق: بين عيينة والأقرع، فقال رسول الله: هما واحد، فقال أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله ﴿**وما علّمناهُ الشعرَ وما ينبغِي لَهُ**﴾[1].

وقال قائل لرسول الله: أعطيت عيينة والأقرع مائة، مائة، وتركت جعيل بن سراقة. فقال رسول الله: أما والذي نفس محمد بيده لجعيل خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع، ولكني تألفتهما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه.

ولم يعط رسول الله الأنصار شيئاً فقال حسان بن ثابت يعاتب رسول الله:

علام تدعي سليم وهي نازحة قدام قوم همو آووا وهم نصروا
نجالد الناس لا نبقي على أحد ولا نضيع ما توحي به السور

ثم قال الأنصار ما قالوا، فرد عليهم رسول الله رداً جليلاً.

---

(١) سورة الشعراء الآية ٦٩.

خطبة لرسول الله

ولما أعطى رسول الله ما أعطى ــ من مغانم حنين في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء ــ وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم المقالة، حتى قال قائلهم:

لقي والله رسول الله قومه.

فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء.

قال رسول الله: فأين أنت من ذلك يا سعد؟

قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال ﷺ: فاجمع لي قومك في الحظيرة.

فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فلما اجتمعوا إليه أتاه سعد فقال:

قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار.
فأتاهم رسول الله ﷺ.
فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل ثم قال:
يا معشر الأنصار.
ما قالة قد بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟
ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟
وعالة فأغناكم الله؟
وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟
قالوا: بلى لله ولرسوله المن والفضل.
فقال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟

قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل.
قال: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم.
أتيتنا مكذباً فصدقناك.
ومخذولا فنصرناك.
وطريداً فآويناك.
وعائلا فآسيناك.

وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟

أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم.

فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار.

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.
فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم.
وقالوا:
رضينا برسول الله قسماً وحظاً.
ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا(١).

---

(١) هذه رواية الطبري ٢/٣٦٠ و٣٦١ وهي في سيرة ابن هشام وتاريخ ابن الأثير بألفاظ مقاربة.

عمرة رسول الله من الجعرانة في ذي القعدة من سنة ثمان من الهجرة

وخرج رسول الله من الجعرانة معتمراً، ولما فرغ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة، وترك معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن.

وقدم رسول الله المدينة في بقية ذي القعدة لست ليال بقين منها، أو في أول ذي الحجة، وحج بالمسلمين تلك السنة عتاب بن أسيد، وحجت العرب على ما كانوا يحجون عليه.

وجاء إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي فأعلن إسلامه، وعاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فرموه بالنبل ومات شهيداً عام ٩ هـ.

وكان عروة أحد المتفاوضين في صلح الحديبية، ولما عاد من عند الرسول إلى قومه قال لهم:

« إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً، فاقبلوا ما عرض عليكم، فإني لكم ناصح مع أني أخاف أن لا تنصروا عليه ».

ولما رفضوا نصيحته قال لهم مغاضباً: « ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة ». وانصرف هو ومن معه إلى الطائف.

كعب بن زهير يمدح رسول الله

١ ــ لما قدم رسول الله المدينة بعد منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله قتل رجالا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، وأن من بقي من شعراء قريش من مثل ابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله، فإنه لا يقتل أحد جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج نجاتك من الأرض.

٢ ــ وكان كعب قد قال حين أسلم أخوه بجير قصيدة منها:

وخالفت أسباب الهدى واتبعته ... على أي شيء ويب غيرك دلكا
على خلق لم تلف أماً ولا أباً ... عليه، ولم تدرك عليه أخا لكا

ورد عليه بجير بقصيدة منها:

إلى الله، لا العزى ولا اللات، وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
فدين زهير، لا شيء دينه ... ودين أبي سلمى عليّ محرم

٣ ــ ولما بلغ كعباً كتاب أخيه بجير، ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول.

فلما لم يجد من شيء بدا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على صديق له من جهينة، فغدا به إلى رسول الله حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله، ثم أشار له إلى رسول الله فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه، فقام إلى

الرسول حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، والرسول لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله: نعم قال: أنا يا رسول الله، فأنشده قصيدته « بانت سعاد ».

٤ ــ وهذا هو بعض أبيات القصيدة التي طارت شهرتها في كل مكان.

قال كعب بن زهير يستعطف رسول الله ﷺ مبتدئاً بالغزل:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول
شجت بذي شبم من ماء محنية ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه ... من صوب غادية بيض يعاليل
ويل امها خلة لو أنها صدقت ... بوعدها ولو أن النصح مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل
فما تقوم على حال تكون بها ... كما تلون في أثوابها الغول
ولا تمسك بالوعد الذي وعدت ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل
أرجو وآمل أن تدنو مودتها ... وما إخال لدينا منك تنويل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت ... إن الأماني والأحلام تضليل
أمست سعاد بأرض لا يبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيل
وقال كل خليل كنت آمله ... لا ألهينك إني عنك مشغول
فقلت: خلوا سبيلي لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معتذرا ... والعذر عند رسول الله مقبول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت في الأقاويل
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به ... يرى ويسمع ما قد يسمع الفيل
لظل يرعد من وجد بوادره ... إن لم يكن من رسول الله تنويل
مازلت أقتطع البيداء مدرعا ... جنح الظلام وثوب الليل مسدول
حتى وضعت يميني ما أنازعها ... في كف ذي نقمات قوله القيل
لذاك أخوف عندي إذ أكلمه ... وقيل: إنك منسوب ومسئول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره ... في بطن عثر غيل دونه غيل
يغدو فيلحم ضرغامين عيشهما ... لحم من الناس معفور خراديل
إذا يساور قرنا لا يحل له ... أن يترك القرن إلا وهو مغلول
منه تظل سباع الجو نافرة ... ولا تمشي بواديه الأراجيل
ولا يزال بواديه أخو ثقة ... مضرج البز والدرسان[1] مأكول
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند، من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا. فمازال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل
شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود في الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق القفعاء[2] مجدول
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم ... قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
لا يقع الطعن إلا في نحورهم ... وما لهم عن حياض الموت تهليل[3].

وقال كعب بن زهير يمدح الأنصار وقد طلب إليه ذلك لقصره مدحه في « بانت سعاد » على المهاجرين:

---

(١) جمع دارس وهو الثواب الخلق.
(٢) شجر يشبه حلق الدروع.
(٣) أي فرار.

من سره كرم الحياة فلا يزل   في مقنب من صالحي الأخيار
ورثوا المكارم كابرا عن كابر   إن الخيار هم بنو الأنصار
المكرهين السمهري بأذرع   كسوالف الهندي غير قصار
والناظرين بأعين محمرة   كالجمر غير كليلة الإبصار
والباذلين نفوسهم لنبيهم   يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون يرونه نسكا لهم   بدماء من علقوا من الكفار
صدموا[1] عليا يوم بدر صدمة   ذلت لوقعتها رقاب نزار
وإذا حللت ليمنعوك إليهم   أصبحت عند معاقل الأغفار
قوم إذا خوت النجوم فإنهم   للطارقين النازلين مقاري

وقال ضرار بن الخطاب يستعطف النبي ﷺ عقب فتح مكة حين نظر سعد بن عبادة الأنصاري إلى أبي سفيان يوم الفتح وقال له: اليوم يوم الملحمة، قال:

يا نبي الهدى إليك لجا   ء قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر   ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو   م ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعدا يريد قاصمة الظهـ   ـر بأهل الحجون والبطحاء
وغر الصدر لا يهم بشيء   غير سفك الدما وسبي النساء
فانهينه فإنه أسد الأسـ   ـد لدى الغاب والغ في الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمـ   ـر سكوتا كالحية الصماء

(١) هو علي بن مسعود بن مازن الغساني.

٣٨ ــ غزوة تبوك
في رجب سنة تسع من الهجرة

١ ــ أقام رسول الله في المدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب، ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمن عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاء، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم.

وكان رسول الله قلما يخرج في غزوة إلا كني عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يقصد إليه، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يقصد إليه، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاد، وأخبرهم أنه يريد الروم.

فقال بعض المسلمين: إني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله.

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر زهادة في الجهاد وشكا في الحق، وإرجافا برسول الله.

وبلغ رسول الله أن ناسا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبي طلحة بن عبد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فكان ممن كان فيه الضحاك بن خليفة، الذي صعد ظهر البيت، قفز منه، فانكسرت رجله، أما الباقون من أصحابه فأفلتوا.

٢ ــ وجد رسول الله في سفره، وأمر الناس بالجهاز، وحض أهل الغنى على النفقة، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم

ينفق أحد مثلها، قيل إنه أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله: اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض.

وجاء رجال من المسلمين، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وكانوا أهل حاجة، يطلبون من رسول الله ما يحملهم فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون.

وجاء المعتذرون من الأعراب، يعتذرون إلى رسول الله ليأذن لهم، فلم يعذرهم الله عز وجل.

ثم أجمع رسول الله على السير، وكان جماعة من المسلمين قد تخلفوا عن رسول الله، من غير شك ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن ربيع، وكانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم.

فلما خرج رسول الله ضرب عسكره على ثنية الوداع، واستعمل رسول الله على المدينة سباع بن عرفطة.

فلما سار رسول الله تخلف عنه عبد الله بن أبي[1] فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، وخلف رسول الله علي بن أبي طالب على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، وقال له: اخلفني في أهلي وأهلك.

وممن تخلف عن رسول الله أبو خيثمة، ثم ابنه ضميرة، فقال: رسول الله في الضح ــ الشمس ــ والريح الحر، وأبو خيثمة في

(١) مات عبد الله بن أبي بن سلول عام ٩ هـ وابنه عبد الله بن عبد الله قتل يوم اليمامة عام ٢ هـ (١:٢٣٤ سير أعلام النبلاء)، وممن قتل يوم اليمامة عكرمة بن أبي جهل (١:٣٣٤.١٠ المرجع نفسه.

ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم!! ما هذا بالنصف، وخرج في طلب رسول الله، فأدرك في الطريق عمير بن وهب الجمحي يطلب رسول الله فترافقا، ولم يدركا رسول الله إلا حين نزل تبوك.

ومر رسول الله في الطريق إلى تبوك بالحجر ــ مدائن صالح ــ فنزلها، واستقى الناس من بئرها، فقال لهم: لا تشربوا من مائها شيئاً، وقال لأصحابه: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم. وبنى بها مسجداً.

ومضى رسول الله سائراً، فجعل الناس يتخلفون عنه، يقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

ولحق أبو ذر برسول الله ماشياً، فقال فيه صلوات الله عليه: رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده(1).

وقال رهط من المنافقين بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال.

ولحق عمير بن وهب برسول الله فأدركه حين نزل بتبوك.

ولما انتهى رسول الله إلى تبوك بني بها مسجداً وأتاه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله، وأعطاه الجزية، وكذلك فعل أهل جرباء وأذرح، فأعطوه الجزية، فكتب لهم رسول الله كتاباً.

وهذا كتاب رسول الله لأهل أيلة:

« هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيادتهم في البر والبحر.

---

(1) مات بالربذة عام ٣٢ هـ في عهد عثمان (٢:٣١ ــ ٥٧ سير أعلام النبلاء).

لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي.
ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن، وأهل البحر.

فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه من بر أو بحر ».

خالد يسير إلى دومة الجندل[1]

وبعث رسول الله خالد بن الوليد في ٤٢٠ فارساً إلى صاحب دومة، وهو أكيدر بن عبد الملك، وكان ملكاً عليها، وهو من كندة، وأخوه اسمه حسان بن عبد الملك، فلقيه خالد في الطريق فأسره، وقتل أخاه حساناً، وبعث خالد بقباء أكيدر إلى رسول الله، ثم قدم خالد بأكيدر على رسول الله، فصالحه على الجزية، وخلى سبيله.

٥ ــ وأقام رسول الله بتبوك بضع عشرة ليلة، وقيل كتب رسول الله إلى قيصر كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام فقارب الإجابة ولم يجب.

ثم انصرف إلى المدينة، وأقبل رسول الله حتى نزل بذي أوان، بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار.

ثم قدم رسول الله المدينة، وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين، وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين، من غير نفاق ولا ريب: كعب ابن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

فنهى الرسول أصحابه عن أن يكلموا هؤلاء الثلاثة وأتاه المنافقون

(١) هو حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيئ.

يحلفون له معتذرين وهم بضعة وثمانون رجلا، فيصفح رسول الله عنهم، ويحدث عبد الله بن كعب بن مالك حديث تخلف أبيه عن تبوك، وهو حديث طويل[1].

ودخل رسول الله المدينة، فبدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس فجاء المخلفون يحلفون له ويعتذرون، ويقبل منهم رسول الله علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، وجاءه كعب بن مالك، فجلس بين يدي رسول الله، وقال: والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال له رسول الله: قم حتى يقضي الله فيك، وكذلك كان أمر مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، ونهى رسول الله عن كلام الثلاثة، فاعتكف صاحباه في بيوتهما. وأما كعب فكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق ولا يكلمه أحد، وكذلك امتنع عن حديثه أبو قتادة ابن عمه، قال كعب: ففاضت عيناي من الدمع، ثم غدوت إلى السوق، فإذا نبطي يسأل عني من نبط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، فجاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، فيه: الحق بنا نواسك.

ومضت أربعون ليلة فأمره رسول الله أن يعتزل امرأته هو وصاحباه.

فلما مضت خمسون ليلة، جاءه صائح يصيح بأعلى صوته: يا كعب ابن مالك، أبشر، وآذن رسول الله بتوبة الله عليه وصاحبيه حين صلى الفجر، فتلقاهم الناس يبشرونهم بالتوبة، وقال رسول الله لكعب: « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ».

(١) راجعه في ٤:١٨٧ سيرة ابن هشام، وكان عبد الله من أعلم الأنصار ٢:٤٢٢ سيرة ابن هشام وتوفي كعب بن مالك عام ٥٠ هـ كما ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء (راجع ٣٧٥ ـــ ٣٨٠ جـ ٣ سير أعلام النبلاء).

وأنزل فيهم آيات كريمات من سورة التوبة: ﴿ وعَلَى الثلاثَةِ الذين خُلِّفُوا ﴾[1].

٦ ـــ وكان قدوم رسول الله من تبوك إلى المدينة، في شهر رمضان من السنة التاسعة.

وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وكانت تسمى في زمان النبي وبعده المبعثرة، لما كشف من أسرار الناس وسرائرهم[2].

وكانت أحوال الشام في غاية السوء إبان ذاك، وكان الناس هناك على أشد ما يكونون من الحرمان.

---

(١) سورة التوبة آية ١١٨.

(٢) وكانت غزوات الرسول تسع عشرة غزوة غزاها بنفسه.

٢ : ٨٥ مختصر مسلم للحافظ المنذري وقال ابن هشام: سبعاً وعشرين غزوة غزاها الرسول بنفسه (٤:٢٨٠ سيرة ابن هشام).

وفي طريق عودة الرسول من تبوك هم بعض المنافقين بالفتك برسول الله فعصمه الله منهم، وكان حذيفة يأخذ بخطام ناقة رسول الله وعمار يسوق الناقة، وربما تناوبا ذلك، حتى إذا بلغ الركب العقبة جاء خمسة عشر راكبا ملثمين فاعترضوا ناقة رسول الله يريدون أن ينفروا برسول الله ويطرحوه، فأنبه حذيفة رسول الله فصرخ فيهم فولوا مدبرين، ويرى أنهم عقبوا عماراً فأخذ يضرب في وجوه رواحلهم، فقال النبي قد، قد حتى هبط رسول الله، فلما هبط ونزل رجع عمار، وعرفهم رسول الله، واعتذر له منهم ثلاثة.

ولما كان رسول الله في ذي أوان جاء المنافقون من أهل مسجد الضرار، وكانوا قد بنوه واجتمعوا فيه يدسون لرسول الله والمسلمين، وقال لهم أبو عامر ابنوا مسجدكم واستعدوا فإنني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فقالوا لرسول الله: إنا بنينا مسجدنا، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال لهم الرسول: إنا على جناح سفر، فلما قدم رسول الله من تبوك آتوه، ولعلهم كانوا يريدون الفتك برسول الله فآذنه الله، فأمر بهدمه وإحراقه.

وقد حكم اليونان الشام ٣٦٩ سنة كانت كلها حروباً وخلافات، ثم حكمها الروم سبعمائة سنة سادها الفوضى والاستعباد والاضطهاد والفقر والحرمان والجوع.

يقول (جيبون): « في آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف، ولم يبق منها إلا الجذع لا يزداد كل يوم إلا ذبولا ». ويقول مؤلفو تاريخ العالم:

إن المدن العظيمة التي أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية من انحطاط كانت نتيجته المغالاة في الضرائب والانحطاط في التجارة، وإهمال الزراعة، وتناقص العمران في البلدان[1].

وكذلك فإن المقاطعات العربية التي وقعت فريسة تحت حكم الروم لم تسلم هي الأخرى من هذه الفوضى وذلك الاضطراب، فمصر ذات النيل السعيد، والخصب المزيد كانت في القرن السابع من أشقى بلاد الله بالنصرانية، وبالدولة الرومية معاً، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات في طبيعة المسيح، وفي فلسفة ماوراء الطبيعة والفلسفة الإلهية، وقد ظهرت في القرن السابع في شر مظاهرها، وأنهكت قوى الأمة العقلية وأضعفت قواها العملية، وأما الأخرى فلم تلق منها إلا اضطهاداً دينياً فظيعاً واستبداداً سياسياً شنيعاً، تجرعت في سبيلهما من المرائر عشر سنين ما ذاقته أوربا في عهد التفتيش الديني في عقود

(١) الندوي، ماذا خسر العالم، ص ٢٣ وما بعدها.

من السنين، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة، وعن كل مهمة شريفة من مهمات الدين والروح: فلا هي تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية، ولا هي تتمتع بالحرية الدينية والعقلية، رغم كونها نصرانية[1].

إن حكومة مصر الرومية لم يكن لها إلا غرض واحد، هو أن تبتز الأموال من الرعية ليكون غنيمة للحاكمين، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكام توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم[2].

أما بلاد الشام فلم تكن أسعد حظا من مصر فقد كانت معاملة الرومان الشاميين بادئ ذي بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتها من المشاغب والمتاعب.

ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية ولم تضف رومية بلاد الشام مباشرة إليها ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ولا أرضهم أرضا رومية، بل ظلوا عرباً ورعايا، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق[3]. وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام[4].

---

(١) المرجع السابق ٣٢.

(٢) المرجع السابق ص ٦٧ وما بعدها.

(٣) الندوي ص ٦٨.

(٤) عن مجلة المنهل عدد ذي الحجة ١٣٩٠ هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جملة غزوات رسول الله بنفسه

هي سبع وعشرون غزوة:

غزوة ودايان.

غزوة الأبواء.

غزوة بواط من ناحية رضوي.

غزوة الشعيرة من بطن ينبع.

غزوة بدر الأولى لطلب كرز بن جابر.

غزوة بني سليم حتى بلغ الكدر.

غزوة السويق لطلب أبي سفيان بن حرب.

غزوة غطفان وهي غزوة ذي أمر.

غزوة بحران معدن بالحجاز.

غزوة أحد.

غزوة حمراء الأسد.

غزوة الرجيع.

غزوة بني النضير.

غزوة ذات الرقاع من نخل.

غزوة بدر الآخرة.

غزوة دومة الجندل.

غزوة الخندق.

غزوة بني قريظة.

غزوة بني لحيان من هذيل.

غزوة ذي قرد.

غزوة بني المصطلق من خزاعة.

غزوة الحديبية لا يريد قتالا فصده المشركون.

غزوة خيبر.

غزوة الفتح.

غزوة حنين.
غزوة الطائف
غزوة تبوك.
وجملة السرايا والبعوث ثمانية وثلاثين بين بعث وسرية.

١ ــ أما الغزوات فهي كما نذكرها

غزوة عبيدة بن الحارث إلى أسفل من ثنية المرة
غزوة حمزة إلى ساحل البحر من ناحية العيص.
غزوة سعد بن أبي وقاص إلى الخرار.
غزوة عبد الله بن جحش إلى نخلة.
غزوة زيد بن حارثة إلى القردة.
غزوة محمد بن مسلمة لكعب بن الأشرف.
غزوة مرثد الغنوي للرجيع.
غزوة المنذر بن عمرو لبئر معونة.
غزوة أبي عبيدة بن الجراح لذي القصة من طريق العراق.
غزوة عمر بن الخطاب لتربة من أرض بني عامر.
غزوة علي إلى اليمن.
غزوة غالب الكلبي الليثي لبني الملوح بالكديد.
غزوة علي لبني عبد الله بن سعد من أهل فدك.
غزوة أبي العوجاء السلمي أرض بني سليم، أصيب بها هو وأصحابه جميعا.

غزوة عكاشة بن محصن للغمرة.
غزوة أبي سلمة بن عبد الأسد لقطن ماء من مياه بني أسد بنجد.
غزوة محمد بن مسلمة للقرطاء من هوازن.
غزوة بشير بن مرة يفدك.
غزوة بشير بن مرة ناحية خيبر.

غزوة زيد بن حارثة للجموم من أرض بني سليم.
غزوة زيد بن حارثة لجذام من أرض خشين، أو أرض حسمى.
غزوة زيد بن حارثة للطرف من ناحية نخل من طريق العراق.
غزوة عبد الله بن رواحة لقتل ابن رزام.
غزوة عبد الله بن عتيق خيبر لقتل أبي رافع.
غزوة عبد الله بن أنيس لقتل خالد الهذلي وكان يجمع الجموع لحرب الرسول.

٢ ـ وأما البعوث فهي

غزوة زيد بن حارثة وجعفر بن طالب وابن رواحة لمؤتة.
غزوة كعب الغفاري لذات أطلاح من أرض الشام.
غزوة عيينة بن حصن لبني العنبر من تميم.
غزوة غالب بن عبد الله الكلبي لبني مرة.
غزوة عمرو بن العاص لذات السلاسل.
غزوة ابن أبي حدرد بطن إضم قبل الفتح.
غزوة ابن أبي حدرد لقتل رفاعة الجشمي.
غزوة ابن أبي حدرد الغابة.
غزوة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل.
غزوة أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر.
بعث عمرو بن أمية الضمري لقتل أبي سفيان بعد مقتل خبيب.

سرايا

سرية زيد بن حارثة إلى مدين.
سرية سالم بن عمير لقتل أبي عفك الذي هجا رسول الله.

غزوة عمير بن عدي لقتل عصماء بنت مروان وكانت هجت رسول الله، وكان عمير يدعى القاري.

أسر ثمامة بن أثال الحنفي وإسلامه.

سرية علقمة بن مجزز.

سرية كرز بن جابر لقتل البجليين.

غزوة علي بن أبي طالب إلى اليمن.

بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين.

غزوة غالب بن عبد الله الليثي لبني الملوح

بعث رسول الله غالب بن عبد الله الكلبي الليثي في سرية، وأمره أن يشن الغارة على بني الملوح، وهم بالكديد، وفي الطريق لقوا الحارث ابن مالك الليثي فأسروه، ثم ساروا إلى الكديد، فبلغوه عند غروب الشمس، فكمنوا في ناحية الوادي، وأمهلوهم حتى إذا اطمأنوا وناموا ودخلوا في السحر شنوا الغارة على بني الملوح، فقتلوا منهم، واستاقوا النعم، وخرجوا، فخرج القوم وراءهم، فكان وادي قديد بينهم، فأرسل الله الوادي بالسيل. فما قدروا أن يعبروه، ووقفوا ينظرون إلى المسلمين وهم يسوقون النعم، لا يقدرون على أن يعبروا الوادي، فقدموا بما معهم على رسول الله، وكان شعار رسول الله تلك الليلة: أمت، أمت.

غزوة زيد بن حارثة إلى جذام

قدم رفاعة بن زيد الجذامي على قومه عند رسول الله بكتابه يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا له.

ثم لم يلبث أن قدم دحية الكلبي من عند قيصر ملك الروم وقدم دحية بتجارة له، فلما كان بواد من أوديتهم يقال له شنار أغار على دحية بعض بني جذام، فأخذوا كل شيء كان معه.

فقام قوم ممن أسلم من رهط رفاعة بن زيد فقاتلوا الذين سلبوا دحية ماله، وأخذوا ما كان في أيديهم فردوه على دحية، فخرج دحية حتى أتى رسول الله، فأخبره خبرهم، فبعث رسول الله إليهم زيد بن حارثة بجيش من المسلمين.

فجمعوا ما وجدوا من مال أو أناس، وقتلوا من قتلوا منهم، فسمعت بنو الضبيب بذلك والجيش بفيفاء مدان، وتقاتلوا، فأسر منهم وقتل، فقدموا إلى رسول الله، وجاءوا معهم برفاعة بن زيد يشكون إلى الرسول، فأمر رسول الله أن يطلق من كان حيا منهم. وبعث عليا إلى زيد ابن حارثة بذلك، فلقوا الجيش بفيفاء الفحلتين، فأخذوا ما في أيديهم.

غزوة زيد بن حارثة لبني فزارة في وادي القرى

وفيها أصيب ناس من أصحابه، وأصيب زيد أيضا، فلما شفي من جراحه بعثه رسول الله في جيش إلى بني فزارة، فقاتلهم بوادي القرى، وأصاب فيهم، وأسرت أم قرفة زوجة مالك بن حذيفة بن بدر وبنت لها فقتلت أم قرفة، وجيء بابنتها إلى رسول الله، وكان الذي أسرها هو سلمة بن عمرو بن الأكوع، وكانت في بيت شرف من قومها، كانت العرب تقول: « لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت »، فسألها رسول الله سلمة فوهبها له، فأهداها لخاله حزن بن أبي وهب فكانت أم ابنه عبد الرحمن بن حزن.

بعث أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين

وكان هذا البعث آخر البعوث، حيث بعثه رسول الله إلى الشام، وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء، والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وسار مع أسامة المهاجرون الأولون.

وفد ثقيف إلى رسول الله
في ٢١ رمضان من العام الثامن

بعد حصار الطائف قدم عروة بن مسعود الثقفي إلى رسول الله، فلقي الرسول في الطريق قبل أن يصل رسول الله إلى المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فأذن له الرسول، وخرج يدعو قومه إلى الإسلام فرموه بالنبل فقتلوه.

وأقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا، ثم رأوا أنه لا طاقة لهم بحرب محمد وأصحابه، فأسلمت وبايعت.

بعثت ثقيف إلى رسول الله وفدا، من ستة، رئيسه عبد ياليل بن عمرو بن عمير، فقدموا المدينة، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله، وكانوا لا يطعمون طعاما يأتيهم من عند رسول الله حتى يأكل منه خالد.

وسألوا رسول الله أن يدع لهم اللات، لا يهدمها، ثلاث سنين، فأبى رسول الله ذلك عليهم، وبعث بأبي سفيان والمغيرة بن شعبة ليهدماها.

وسألوا رسول الله فيما سألوه أن يعفيهم من الصلاة، ومن كسر

أوثانهم بأيديهم، فقال لهم رسول الله: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه.

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله كتاباً أمر عليهم عثمان بن أبي العاص وبعث معهم أبا سفيان والمغيرة لهدم الطاغية.

فخرجا مع القوم، وقام المغيرة بضربها بمعول، وخرجت نساء ثقيف يبكين عليها، ويندبنها، وأبو سفيان يقول والمغيرة يهدمها: « واهالك، آهالك ».

وأخذ المغيرة مال اللات وحليها فبعث به إلى رسول الله.

وكان كتاب رسول الله الذي أعطاه وفد ثقيف هو:

بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد النبي رسول الله إلى المؤمنين، إن عضاء « وج » وصيده لا يعضد ـــ لا يقطع، من وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ به النبي محمدا، وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله ﷺ، وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله، فلا يتعده أحد، فيظلم نفسه فيما أمره به محمد رسول الله ﷺ.

ويروى أن الوفد لما قدموا على رسول الله قالوا: يا محمد إنا أخوالك وأصهارك وجيرانك، إن حاربناك حاربك من بعدنا، وأن سالمناك سالمك من بعدنا، ثم قالوا: فاجعل لنا ألا نعشر ولا نحشر الخ ـــ ص ٨٣ الأوائل لأبي هلال.

حج أبي بكر بالناس سنة تسع

أقام رسول الله في المدينة بقية شهر رمضان وشوالا وذا القعدة.

ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج سنة تسع، ليقيم المسلمين حجهم والمشركون من العرب على منازلهم من حجهم.

فخرج أبو بكر ومعه من المسلمين نحو ثلثمائة، ونزلت براءة في نقض ما بين رسول الله وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم: أن لا يصد عن البيت أحد جاءه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام، وكان ذلك عهدا عاما بينه وبين الناس من أهل الشرك، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله وبين قبائل من العرب مخصوصين إلى آجال مسماة. فنزلت السورة في ذلك وفيمن تخلف من المنافقين عنه في تبوك، وكانت براءة تسمى في عهد النبي وبعده: المبعثرة لما كشفت من سرائر الناس.

ولما نزلت براءة وقد بعث أبا بكر يقيم للناس الحج، قيل له يا رسول الله، لو بعثت بها إلى أبي بكر؟ فقال لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي ثم دعا علي بن أبي طالب فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته.

فخرج علي على ناقة رسول الله العضباء، حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلما راه أبو بكر قال: أمير أو مأمور، قال: بل مأمور. ثم مضيا.

فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام علي فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله فقال: أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو

بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحدا كان له عند رسول الله عهد إلى مدة فهو إلى مدته.

فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.
ثم قدما على رسول الله ﷺ بعد الموسم.

الأنصار وجهادهم في سبيل الله

وكم للأنصار من مواقف صادقات في الجهاد في سبيل الله، كما كان للمهاجرين، رضوان الله عليهم أجمعين، وجزاهم خير الجزاء عن الإسلام والمسلمين.

ولحسان بن ثابت، وقيل: بل لابنه عبد الرحمن، قصيدة يعدد فيها أيام الأنصار مع النبي ﷺ ويذكر مواطنهم معه في أيام غزوه، منها:

ألست خير معد كلها نفرا ... ومعشرا إن هموا وإن حصلوا
قوم همو شهدوا بدراً بأجمعهم ... مع الرسول فما ألووا وما خذلوا
وبايعوه فلم ينكث به أحد ... منهم ولم يك في إيمانهم دخل

ثم يقول منها:

ويوم بويع كانوا أهل بيعته ... على الجلاد فآسوه وما عدلوا
وغزوة الفتح كانوا في سريته ... مرابطين فما طاشوا وما عجلوا
ويوم سار رسول الله محتسبا ... إلى تبوك، وهم راياته الأول
أولئك القوم أنصار النبي وهم ... قومي أصير إليهم حين أتصل
ماتوا كراما ولم تنكث عهودهم ... وقتلهم في سبيل الله إذ قتلوا

وقال حسان من قصيدة أخرى:

كنا ملوك الناس قبل محمد ... فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
أولئك قومي خير قوم بأسرهم ... فما عد من خير فقومي له أهل
وقائلهم بالحق إن قال قائل ... وحلمهمو عود وحكمهمو عدل

وقال أيضاً من قصيدة أخرى:

قومـــي أولـــئك إن تسألـــي ... كـرام إذا الضيـف يومـا ألـم
فلمـا أتانـا الرسـول الرشيـد ... بالحـق والنـور بعـد الظلـم
فقلنا صدقت رسول المليك ... هلـم إلينـا وفينـا أقـم
فنشهـد أنك عبـد الإلـه ... بـه أرسلت نـوراً بديـن قيـم
فإنـا وأولادنـا جنـة ... نقـيك، وفـي مالنـا فاحتكـم
فنحـن أولـئك إن كذبـوك ... فنـاد نـداء، ولا تحتشـم
ونـاد بمـا كـنت أخفيتـه ... نـداء جهـاراً ولا تكتتـم

سنة الوفود

وهي السنة التاسعة من الهجرة
واستمر قدوم الوفود طوال السنة العاشرة

العرب يدخلون في الدين أفواجا

لما فتح الرسول مكة، وفرغ من تبوك. وأسلمت ثقيف وبايعت. ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

وإنما كانت العرب تنتظر بالإسلام ماذا يكون من أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله ﷺ معهم، وماذا تؤول إليه الأمور لأن قريشاً كانون أئمة العرب وقادتهم، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخلافه.

فلما فتحت مكة، ودانت قريش لكلمة الله، ودخولها الإسلام عرف العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله وعداوته.

فدخلوا في دين الله أفواجا، يضربون إليه من كل وجه، وفي ذلك نزلت سورة الفتح، وهي السورة العاشرة بعد المائة من سور القرآن

الكريم وآياتها ثلاث: ﴿إذا جاءَ نصرُ اللهِ والفتحُ. ورأيتَ الناسَ يدخلُونَ في دينِ اللهِ أفواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكِ واسْتغفِرْهُ إنه كانَ تَوَّاباً﴾[1].

فقدمت على رسول الله وفود العرب من كل مكان.

وفد تميم

ورئيسه: عطارد بن حاجب، ومعه أشراف تميم، منهم: الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم، والحبحاب بن يزيد الذي آخى رسول الله بينه وبين معاوية[2]، ونعيم بن يزيد، وقيس بن الحارث، وقيس بن عاصم.. في وفد عظيم من تميم.

ومع الوفد عيينة بن حصن الفزاري، وهو والأقرع قد شهدا مع رسول الله فتح مكة، وحنينا، والطائف، فلما قدم وفد تميم كانا معهم.

ودخل الوفد مسجد رسول الله في المدينة، فنادوا من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله من صياحهم فخرج إليهم.

فقالوا يا محمد، جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا.

قال: قد أذنت لخطيبكم فليقل.

فقام عطارد فقال:

الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهله الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاما، ففعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق، وأكثرهم عدداً، وأيسرهم عدة، فمن مثلنا في الناس، ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام،

---

(١) سورة النصر وآياتها الثلاث.

(٢) كان رسول الله قد آخى بين نفر من أصحابه من المهاجرين: بين أبي بكر وعمر، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين أبي ذر والمقداد بن عمرو.

ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك.. أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا.

فقال رسول الله لثابت بن قيس الأنصاري الخزرجي: قم فأجب الرجل في خطبته، فقام ثابت، فقال:

الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه، وذوي رحمه، أكرم الناس حسبا وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالا، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله.. فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله فمن آمن بالله ورسوله، منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً.. أقول قولي هذا، واستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم[1].

ثم أذن رسول الله لشاعرهم، فقام الزبرقان بن بدر، فقال قصيدته:

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا   منا الملوك وفينا تنصب البيع

ويروي: منا الملوك وفينا يقسم الربع.

وكان حسان غائباً، فبعث إليه رسول الله، فآتاه واستمع في مجلسه إلى شاعر تميم الزبرقان، فقال ﷺ: قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال: فقام حسان، فأنشد قصيدته:

(١) قتل ثابت عام ١٢ هـ في موقعة اليمامة (٢٢٤ ـــ ١:٢٢٧ سير أعلام النبلاء).

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع[1]
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس: وأبي، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا.

وأسلم الوفد، وأجازهم رسول الله فأحسن جوائزهم.

وفد العامريين

وقدم على رسول الله في المدينة وفد بني عامر: عامر بن الطفيل، أربد بن قيس، جبار بن سلمى، وهم رؤساء القوم وشياطينهم، وأربد أخو لبيد لأمه.

وكان عامر يريد الغدر برسول الله، وكان قومه قالوا له: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم، قال: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش. وقال لأربد: إذا قدمنا على الرجل، فإني أشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف.

فلما قدموا على رسول الله قال عامر: يا محمد، خالني ــ اتخذني خليلا ــ قال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده، وجعل عامر يكلمه

---

(١) يروى: تقوي الإله وبالأمر الذي شرعوا.

ليتمكن أربد مما يريد، وجعل أربد لا يحير شيئاً، فلما رأى عامر ذلك قال لرسول الله: أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا، فلما ولى قال رسول الله: اللهم اكفني عامرا.

وخرجوا من عند رسول الله، فقال عامر لأربد: ويلك يا أربد، أين ما كنت أمرتك به قال: والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا دخلت بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم، فمات عامر في الطريق، وأصابت أربد صاعقة فأحرقته، ولقد رثى لبيد أخاه أربد بقصائد كثيرة.

وفد سعد بن بكر

وهم الذين كان رسول الله مسترضعاً فيهم، وقد بعثوا إلى رسول الله رجلا منهم يقال له ضمام بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله.

فقدم عليه، وأناخ بعيره عند باب المسجد، ثم عقله، ودخل المسجد والرسول جالس في أصحابه.

فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟.
قال رسول الله: أنا ابن عبد المطلب.
قال: أمحمد؟
قال: نعم.

فسأله ضمام عن الإسلام والصلاة والزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها، والرسول يجيبه.

حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله الا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

وجاء قومه فدعاهم إلى الإسلام وسب لهم: اللات والعزى، فأسلموا جميعاً.

وفد عبد القيس

١ ــ لعبد القيس[1] وفادة على رسول الله سنة سبع في ستة عشر رجلا منهم وقيل: في عشرين، وقيل: في خمس وعشرين، وقالوا له: مرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا فقال: آمركم بأربع: بالإيمان بالله وحده وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأنهاكم عن الانتباذ في الدباء والحنتم والمزفت والنقير[2].

وقال لهم: احفظوها وادعوا إليهن من وراءكم، ودعا لهم: اللهم اغفر لعبد القيس، وقال صلوات الله عليه: يا معشر الأنصار، أكرموا إخوانكم فإنهم أشبه الناس بكم في الإسلام، أسلموا طائعين، غير مكرهين، ولا موتورين.

٢ ــ وفي السنة التاسعة قدم وفد عبد القيس إلى رسول الله وعليهم الجارود بن بشر بن المعلى، وكان نصرانياً، فلما انتهى إلى رسول الله كلمه، فعرض عليه رسول الله الإسلام، ودعاه إليه ورغبه فيه، فقال: يا محمد، إني قد كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟ فقال رسول الله: نعم، أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه.

(١) ٥٧٧/١ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٦ ــ ٢/٢٥ تحفة المستفيد للعبد القادر.

(٢) الدباء: قشر القرع. الحنتم: الجرار المطلية بالدهان الأخضر ــ والمزفت: المطلية بالزفت، والنقير: إناء يتخذ من جذع النخل.

فأسلم وأسلم أصحابه[1] وكان عددهم أربعين رجلا[2].

وعاد الوفد، فدعا الجارود عبد القيس إلى الإسلام، فأسلموا.

ولما تبعت عبد القيس الغرور بن المنذر بعد موت رسول الله، وارتدت عن الإسلام قام الجارود يدعوهم إلى الله.

٣ ــ وكان رسول الله بعث العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة إلى المنذر بن ساوي العبدي، فأسلم المنذر، ومات المنذر بعد وفاة رسول الله، وقبل أن يرتد أهل البحرين، والعلاء عندهم أمير لرسول الله على البحرين..

وفد بني حنيفة

وفد على رسول الله وفد بني حنيفة[3]، وفيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب، ونزلوا في دار كبشة بنت الحارث الأنصارية.

وأسلم الوفد، فلما انصرفوا عن رسول الله، وانتهوا إلى اليمامة، ارتد مسيلمة وتنبأ، وتكذب لهم، وقال: إني قد أشركت في الأمر معه، وجعل يسجع لهم الأساجيع، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن الكريم: لقد أنعم الله الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى.. ».

ووضع مسيلمة عنهم الصلاة، وأحل لهم الخمر، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله بأنه نبي . وانتصر له بعض بني قومه، وقال قائلهم: كذاب

---

(١) مات الجارود عام ٢١ هـ في فارس، وقيل: إن اسم الجارود: الجارود بن حنش بن المعلى العبدي ــ وحديث هذا الوفد مع رسول الله طويل (تحفة المستفيد للعبد القادر جـ ١ ص ٤).

(٢) ص ٧ جـ ١ تحفة المستفيد ــ طبع دمشق ١٩٦٣.

(٣) منهم هوذة الحنفي الذي توجه كسرى ملكا على اليمامة في الخرج وكان في اليمامة أمير آخر هو ثمامة بن أثال ومقره حجر (الرياض الآن) وأرسل رسول الله الى هوذة يدعوه الى الاسلام فأبى الا إذا جعل له من الامر شيئا ــ وأسلم ثمامة.

ربيعة، أحب إلينا من صادق مضر ـــ وكان مسيلمة يقول: يا بني حنيفة، مما جعل الله قريشاً أحق بالنبوة منكم.

وفد طيئ

١ ـــ وقدم على رسول الله وفد طيِّئ، فيهم زيد الخيل، وهو سيدهم. فعرض عليهم رسول الله الإسلام، فأسلموا، وقال رسول الله:

ما ذكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني، إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما فيه، وسماه رسول الله زيد الخير.

وفي طريق عودة الوفد إلى بلادهم، مات زيد في أرض نجد.

٢ ـــ وكان عدي بن حاتم الطائي شريفاً في طيئ، وكان نصرانياً، وكان ملكاً في قومه، ويسير في نفسه على دين، وله المرباع في قومه، أي ربع الغنيمة، ولا يأخذه إلى رئيس القوم.

فهرب من الإسلام إلى بلاد الشام، حين قدمت خيل لرسول الله بلاده وأخذ المسملون ابنة لحاتم، مع سبايا من طيئ، فمر بها رسول الله فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ مَنّ الله عليك، قال: ومن وافدك؟ قالت عدي بن حاتم قال: الفار من الله ورسوله، ثم مضى رسول الله، وتركها، وفي الغد مر بها رسول الله، فقالت له مثل ذلك، وقال لها مثل ما قال بالأمس، وبعد الغد مر بها فكلمته، فقال ﷺ: « قد فعلت، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك. ثم آذنيني ».

فقدم ركب من بلي أو قضاعة، فرأت أن تخرج معهم لأخيها بالشام، فجاءت رسول الله فقالت: يا رسول الله قدم رهط من قومي، لي

فيهم ثقة وبلاغ، فكساها رسول الله وحملها، وأعطاها نفقة فخرجت معهم حتى قدمت الشام إلى أخيها، فقالت له: القاطع، الظالم، احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقية والدك عورتك، ثم نزلت وأقامت عنده، فقال لها: ماذا ترين في أمر هذا الرجل: قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن نذل في عز اليمن وأنت أنت، قال لها: والله إن هذا للرأي.

فخرج حاتم، حتى قدم على رسول الله المدينة، فدخل عليه وهو في مسجده، فسلم: فقال: من الرجل؟ قال: عدي بن حاتم، فقام رسول الله وانطلق به إلى المدينة، فتناول وسادة من آدم محشوة ليفاً، فقذفها إليه، وقال: اجلس عليها، قال عدي: بل أنت، فقال ﷺ: بل أنت، فجلس عدي عليها وجلس رسول الله بالأرض. ثم قال رسول الله له: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم[1]، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم.

فأسلم عدي، وعاد إلى بلاده داعية إلى الله ورسوله[2].

---

(١) أي فقر المسلمين وجدب بلادهم.

(٢) توفي عدي عام ٦٨ هـ، وميلاده عام الفيل ٥٧١ م في السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ــ ٣/٤٢ الإصابة، أو عام ٥٦٧ (٤٦١/٢ الاستيعاب على هامش الإصابة) ــ وراجع فيه سيرة ابن هشام، والطبري الجزء الثاني.

وفد مراد

وقدم فروة بن مسيك المرادي على رسول الله، مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم، وكان بين مراد وهمدان قبيل الإسلام حرب نالت فيها همدان ــ بقيادة الأجدع بن مالك[١] ــ من مراد ما نالت، في يوم يقال له « يوم الردم »، وفيه قال فروة بن مسيك من قبل:

فإن تغلب فغلابون قدما ... وإن تغلب فغير مغلبينا
فلو خلد الملوك إذن خلدنا ... ولو بقي الكرام إذا بقينا

وانتهى فروة إلى رسول الله، فأكرمه الرسول، واستعمله على مراد ومذحج وزبيد، وبعث معه خالد بن سعيد على الصدقة، فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله[٢].

وفد زبيد

وقدم على رسول الله عمرو بن معد يكرب الزبيدي في وفد من قومه فأسلم عمرو والوفد.

وأقام عمرو في قومه من بني زبيد، وعليهم فروة بن مسيك، فلما توفي رسول الله ارتد عمرو عن الإسلام.

(١) وقيل: بل بقيادة مالك بن خريم الهمداني.

(٢) كان عمرو بن معديكرب الزبيدي قد قال لقيس بن مكشوح المرادي حين انتهى إليهم أمر رسول الله: يا قيس إنك سيد قومك، وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز، يقول: إنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبياً كما يقول فإنه لن يخفى عليك، إذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه.. فأبى عليه قيس ذلك، وسفه رأيه، فذهب عمرو وحده إلى رسول الله.

وفد كندة

وقدم على رسول الله الأشعث بن قيس في وفد كندة، في ثمانين راكباً منهم، فلما دخلوا على رسول الله قال: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى. قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ فشقوه منها، فألقوه، ثم قال له الأشعث يا رسول الله، نحن آكلو المرار، وأنت ابن آكل المرار، فتبسم رسول الله، وقال: ناسبوا بهذا النسب العباس[1] بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث، ثم قال لهم: لا، بل نحن بنو النضر بن كنانة لا ننتفي من أبينا.

وأسلم الوفد. وعاش الأشعث مجاهداً حتى توفي عام ٤٠ هـ عن ٦٣ عاماً[2].

وفد الأزد

وقدم على رسول الله، وفد الأزد، وعليه صرد بن عبد الله الأزدي، فأسلموا، وأمر رسول الله صرد الأزدي على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن، فسار صرد إلى جرش، وهي يومئذ مدينة مغلقة، بها قبائل من قبائل اليمن، وانضوت إليهم خثعم، فدخلوها معهم حين سمعوا بمسيرة المسلمين إليهم.. فحاصرها صرد والمسلمون قريباً من شهر، ثم فك

---

(١) كانت كندة ملوكاً، وكان العباس وربيعة، إذا أبعدا في السير في أرض العرب في تجاراتهم في الجاهلية، فسئلا: ممن هما؟ قالا: نحن بنو آكل المرار، يتعززان بذلك.

ـــ وفي رواية أن وفد كندة كان سبعين رجلا ـــ ٢/٢٥ سير أعلام النبلاء، والأشعث بن قيس زوجه أبو بكر أخته ـــ ٢/٢٦ المرجع السابق ـــ وتوفي الأشعث عام ٤٠ هـ بالكوفة ٢/٢٨ سير أعلام النبلاء.

(٢) ٢٨:٢ سير أعلام النبلاء.

الحصار، فخرج إليه من فيها يقاتلونه فقاتلهم وقتل منهم، وخرج وفد من جرش حتى قدموا على رسول الله، فأسلموا.

رسول ملوك حمير في رمضان من السنة التاسعة

وكتب ملوك حمير كتابا إلى رسول الله. بعثوا به مع رسول منهم، وفيه إسلامهم، فوصل الكتاب في مقدم رسول الله من تبوك، وهؤلاء هم ملوك حمير: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، ونعيم قيل ذي رعين ومعافر وهمدان.

فكتب إليهم رسول الله:
بسم الله الرحمن الرحيم
من محمد رسول الله النبي.
إلى الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان.

أما بعد ذلكم..
فإني أحمد الله إليكم الله الذي لا إله إلا هو
أما بعد.

فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم، فلقينا بالمدينة، فبلغ ما أرسلتم به، وخبر ما قبلكم، وأنبأ بإسلامكم وقتلكم المشركين.

وإن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم، وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبي وصفيه، وما كتب على المؤمنين من الصدقة..

أما بعد، فإن رسول الله النبي محمداً أرسل إلى زرعة ذي يزن

أن إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيرا، معاذ بن جبل[1]، وعبد الله ابن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نحر، ومالك بن مرة، وأصحابهم، وأن أجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وأبلغوها رسلي. وإن أميرهم معاذ بن جبل، فلا ينقلبن إلا راضياً.

أما بعد فإن محمداً يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله. ثم إن مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير، وقتلت المشركين، فابشر بخير، وآمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا، فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته، وإنما هي زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وإن مالكا قد بلغ الخبر، وحفظ الغيب، وآمركم به خيراً.

وإني قد أرسلت إليكم من صالحي أهلي وأولي دينهم وأولي علمهم وآمركم بهم خيراً، فإنهم منظور إليهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

---

(١) لما بعث الرسول معاذاً إلى اليمن خرج الرسول يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: يا معاذ إنك عسي أن لا تلقى بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي ومقامي فبكى معاذ لفراق رسول الله فقال الرسول: لا تبك يا معاذ (٣٢١ — ١ سير أعلام النبلاء للذهبي).

(٢) عبد كلال أمير حميري (٤٥٥ — ٤٦٠ م) وكان أحد قادة الملك حسان تبع، والفترة الماضية الخمس سنوات كان وصيا فيها على العرش، وقد اعتنق المسيحية، وتولى تبع حسان بعد عبد كلال وبعد تبع جاء إلى الحكم مرثد بن عبد كلال أخو تبع لأمه، وأولاد عبد كلال كانوا قادة في الجيش الحميري وهم كثيرون، وقد تسلم الرسول بعد عودته من تبوك (٨ هـ) رسالة من أولاد عبد كلال يعلنون فيها قبولهم للإسلام، ووفد على رسول الله منهم: الحارث ونعيم ابنا عبد كلال (مجلة العرب ص ٦٢٨ ٦٣٤ — عدد مارس ١٩٧١ مقال لخالد العسلي).

رسول فروة الجذامي

وبعث فروة الجذامي إلى رسول الله رسولا بإسلامه وكان عاملا للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام، وأهدى له بغلة بيضاء، فلما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه عندهم، ثم صلبوه على ماء بالشام يقال له عفرى.

إسلام بني الحارث بن كعب
على يدي خالد

بعث رسول الله خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، ثلاثا فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم.

فقدم خالد عليهم، وبعث الركبان يقولون: أيها الناس، أسلموا تسلموا فأسلم الناس، فأقام فيهم، يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه.

وأقام بين أظهرهم، يأمرهم بما أمر الله به، وينهاهم عما نهاهم الله عنه، وكتب إلى رسول الله بذلك وكتب إليه الرسول:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فإن كتابك جاء بي مع رسولك تخبر أن بني الحارث ابن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه، فبشرهم وأنذرهم، وأقبل ولتقبل معك وفدهم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فجاء خالد برؤوسهم، فأعلنوا إسلامهم بين يدي رسول الله، فأمر عليهم رسول الله قيس بن الحصين. ثم رجعوا إلى قومهم، قبل وفاة رسول الله بأشهر، وكان رجوعهم في صدر ذي القعدة من السنة العاشرة.

وبعث رسول الله إليهم بعد أن انصرف وفدهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتابا عهد إليه فيه عهده، وأمره فيه بأمره، فيه:

و« وينهي — إذا كان بين الناس هيج — عن الدعاء إلى القبائل والعشائر وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له ».

رفاعة بن زيد الجذامي

وقدم على رسول الله ﷺ في هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة ابن زيد الجذامي، فأهدى لرسول الله غلاماً، وأسلم، وكتب له رسول الله كتاباً إلى قومه، فيه: إني بعثته إلى قومه عامة، ومن دخل فيهم، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله.

فأجابه قومه، وأسلموا.

وفد همدان

وقدم وفد همدان إلى رسول الله، فلقوا رسول الله في عودته من تبوك فخطب مالك بن نمط بين يديه، وأعلن إسلام قومه.

فكتب لهم رسول الله كتاباً بعهد الله وذمام رسوله.

ولمالك بن نمط قصيدة في مدح الرسول، منها:

ذكرت رسول الله في فحمة الدجى ... ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عند ذي العرش مهتد

فما حملت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد
وأعطي إذا ما طالب العرف جاءه وأمضى بحد المشرفي المهند

وفد مزينة

وقدم على رسول الله وفد مزينة.

وفد نجران

وفي السنة العاشرة قدم على رسول الله وفد نجران، ستون راكباً، منهم أربعة وعشرون من أشرافهم، فيهم: العاقب أمير القوم، والسيد صاحب رحلهم، وأبو حارثة أسقفهم وإمامهم وصاحب مدارسهم، وكان قد شرف فيهم ودرس كتبهم، كانت ملوك الروم قد شرفوه ومولوه. وخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات، لما بلغهم من علمه واجتهاده، وهو أبو حارثة بن علمة أخو بكر بن وائل.

وفد دوس

وقد قدم على رسول الله من قبل ذلك، بخيبر.

وفود أخرى

وقدم عليه وفود كثيرة أخرى، ومنها:

وفد طارق بن عبد الله.

وفد تجيب سنة تسع من الهجرة، وهم من السكون.

وفد بني سعد بن هذيم بن قضاعة وهم من أهل اليمن في سنة تسع.

وفد بني فزارة.

وفد بني أسد.

وفد بهراء من اليمن سنة تسع.

وفد عذرة.
وفد بلي في ربيع الأول من سنة تسع.
وفد ذي مرة.
وفد حولان.
وفد محارب في العام العاشر.
وفد صداء في سنة ثمان.

وفد غسان في شهر رمضان سنة عشر.

وفد سلامان. وفد الأزد.
وفد عبس. وفد بني المنتفق.
وفد عامر. وفد النخع.

وفاة إبراهيم ابن رسول الله

في السنة التاسعة وفي يوم الثلاثاء ٢٧ كانون الثاني عام ٦٣١ م. لعشر خلون من ربيع الأول، توفي إبراهيم بن رسول الله، وهو ابن ثمانية عشر شهراً، ودفن بالبقيع. وانكسفت الشمس يوم موته، فقال الناس: إنما كسفت لموت إبراهيم، فقال رسول الله: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته. وفي هذه السنة أيضاً ماتت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ في شعبان.

عمال الصدقات لرسول الله

وفي هذه السنة بعث رسول الله أمراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما وطئ الإسلام:

فبعث المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء فخرج عليه الأسود العنسي الكذاب وهو بها.

وبعث زياد بن لبيد الأنصاري إلى حضرموت.

وبعث عدي بن حاتم على كل طيئ وصدقاتها وعلى بني أسد.

وبعث الزبرقان على ناحية من بني سعد.

وقيس بن عاصم على ناحية من بني سعد.

والعلاء بن الحضرمي على البحرين.

وعلي بن أبي طالب إلى نجران.

وعيينة بن حصن إلى بني تميم.

ويزيد بن الحصين إلى أسلم وغفار.

ورافع بن مكيث إلى جهينة.

وعمرو بن العاص إلى فزارة.

والضحاك بن سفيان إلى بني كلاب.

وبشير بن سفيان إلى بني كعب.

وابن اللتبية الأتردي إلى بني ذبيان.

ومالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة.

وممن وجههم رسول الله ﷺ إلى اليمن معاذ بن جبل.

وقد جمع القرآن على عهد رسول الله أربعة كلهم من الأنصار: معاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد[1].

ومات معاذ عام ١٨ هـ عن ٣٨ عاما فميلاده قبل الهجرة بعشرين عاماً، وقبل البعثة النبوية بسبعة أعوام، أي عام ٣٣ من ميلاد الرسول الكريم.

---

(١) ١:٣٨١ سير أعلام النبلاء للذهبي.

وقد سأله الرسول حين وجهه إلى اليمن: « بم تقضي يا معاذ؟ ».
فأجاب قائلا: بكتاب الله.
قال الرسول: « فإن لم تجد في كتاب الله ».
قال معاذ: « أقضي بسنة الرسول ».
قال الرسول: « فإذا لم تجد في سنة رسوله ».
قال معاذ: « أجتهد رأيي. لا آلو ».

فتهلل وجه الرسول وقال: « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله ».

ويقول عائذ الله بن عبد الله: « دخلت المسجد يوماً مع أصحاب الرسول في أول خلافة عمر، فجلست مجلساً. بضع وثلاثون كلهم يذكرون حديثاً عن رسول الله ﷺ. وفي الحلقة شاب شديد الأدمة حلو المنطق، وضيء، وهو أشب القوم سناً، فإذا اشتبه عليهم من الحديث شيء ردوه إليه فأفتاهم، ولا يحدثهم إلا حين يسألونه، ولما قضى مجلسهم دنوت منه وسألته من أنت يا عبد الله؟ قال: أنا معاذ بن جبل ».

ويقول فيه عمر وهو أمير المؤمنين: « لولا معاذ بن جبل لهلك عمر ».
وحينما مات الرسول كان معاذ باليمن منذ بعثه النبي إليها، يعلم المسلمين ويفقههم في الدين.. ولكنه عاد إلى المدينة في خلافة أبي بكر وكان عمر قد علم أن معاذاً أثرى فاقترح على الخليفة أن يشاطره ماله. ولم ينتظر عمر.. بل أسرع إلى دار معاذ وألقي عليه مقالته.

ولكن معاذ كان طاهر الكف، ظاهر الذمة، لم يكتسب إثماً، ولم يقترف شبهة، لذلك رفض عرض عمر وناقشه رأيه.

وتمر ليلة وإذ بمعاذ يطوي الأرض مسرعاً إلى دار عمر، ولا يكاد يلقاه حتى يقول ودموعه تسح على خديه: « لقد رأيت في منامي أني

أخوض حومة ماء وأخشى على نفسي الغرق، حتى جئت فخلصتني يا عمر ».

وذهبا معاً إلى أبي بكر. وسأله معاذ أن يشاطره ماله. ولكن أبا بكر الذي ما كان ليترك لمعاذ درهماً لو علم أنه أخذه بغير حق يقول له: « لا آخذ منك شيئاً ».

وهاجر معاذ إلى الشام، حيث يعيش معلماً وفقيهاً.. فإذا مات أميرها أبو عبيدة عام ١٨ هـ استخلفه أمير المؤمنين عمر مكانه.. ولا يمضي عليه في الإمارة سوى أشهر معدودات حتى يلقي ربه عام ١٨ هـ.

وحينما طعن عمر، طلب إليه أصحابه أن يوصي بالخلافة فأجاب: لو كان معاذ بن جبل حياً، لوليته، ثم قدمت على ربي عز وجل، فسألني من وليته على أمة محمد لقلت:

وليت عليهم معاذ بن جبل بعد أن سمعت النبي يقول: معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة..

ووصفه ابن مسعود فقال: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، ولقد كنا نشبه معاذاً بإبراهيم عليه السلام.

وكما كان دائب الدعاء إلى الله بقوله: « اللهم أعني على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك » كان دائب الإلحاح على الناس أن يلتمسوا العلم الصحيح النافع ويقول: « احذروا زيغ الحكيم. واعرفوا الحق بالحق، فإن للحق نوراً ».

وكان يرى العبادة قصداً وعدلاً. قال له يوماً أحد المسلمين: علمني.. فسأله معاذ: « وهل أنت مطيعي إذا علمتك؟ ».. قال الرجل: إني على طاعتك لحريص. فقال له معاذ: صم، وأفطر.. وصل، ونم واكتسب ولا تأثم.. ولا تموتن إلا مسلماً.. وإياك ودعوة لمظلوم..

كتاب مسيلمة إلى رسول الله.

من مسيلمة إلى محمد رسول الله.

سلام عليك أما بعد:

فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون.

كتاب رسول الله إلى مسيلمة في آخر سنة عشر

بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد رسول الله.

إلى مسيلمة الكذاب.

السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

حجة الوداع

في ذي الحجة من السنة العاشرة

١ ـــ لما دخل على رسول الله ذو القعدة، تجهز للحج، وأمر الناس بالجهاز له، وخرج من المدينة لخمس ليال بقين من ذي القعدة: واستعمل عليها أبا دجانة الساعدي[1]، ويقال بل، سباع بن عرفطة الغفاري.

ودخل رسول الله إلى مكة.

وجاء علي من نجران، فلقي الرسول الله بمكة وقد أحرم وكان قد خلف على جنده الذين معه رجلا من أصحابه، وتعجل هو إلى رسول الله.

ومضى رسول الله على حجه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين.

ولقد كان مع رسول الله ﷺ في ذلك العام، ما يزيد على عشرة

(١) ثبت يوم أحد وشارك في قتل مسيلمة وتوفي يومئذ سنة ١٢ في موقعة اليمامة.

آلاف صحابي، كلهم خرجوا لينالوا الخير والبركة، بالاقتداء والتأسي برسول الله عليه السلام في حجه ونسكه، فكان ذلك الحج الكبير الذي شهدته ــ عرفة ــ لأول مرة في تاريخها من حين البعثة النبوية إلى أن كان ذلك العام. وقد جمع لنا تلك المشاهد والصور الرائعة الصحابي الجليل ــ جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه وأرضاه، في حديثه الطويل الذي هو الأصل في بيان ــ مناسك الحج ــ لأنه أجمع حديث ورد في بيان صفة الحج وشروطه، وأركانه، وطريقة أدائه، وفي المناسك التي ينبغي أن يحرص عليها الإنسان ليكون حجه موافقاً لهدى الرسول الكريم وسنته العطرة.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد، عن أبيه ــ محمد بن علي بن حسين ــ قال: ــ دخلنا على جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وأنا يومئذ غلام شاب، فسأل عن القوم حتى انتهى إلي، فقلت: أنا محمد بن علي بن حسين، فأهوى بيده إلى رأسي فنزع زرعي الأعلى، ثم نزع زرعي الأسفل، ثم وضع كفه بين ثديي فقال مرحبا بك يا ابن أخي، سل عما شئت! فسألته ــ وهو أعمى ــ وحضر وقت الصلاة فقام في نساجة ملتحفاً بها، كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها، ورداؤه إلى جنبه على المشجب. فصلى بنا. فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ فقال بيده، فعقد تسعاً فقال: إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس بالعاشرة أن رسول الله ﷺ حاج، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله.

فخرجنا معه حتى إذا أتينا ــ ذا الحليفة ــ ولدت أسماء بنت عميس ــ زوج أبي بكر محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع، قال: اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي.

فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب ـ القصواء[١] حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرت مد بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به فأهل[٢] بالتوحيد ـ لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وأهل الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته.

قال جابر رضي الله عنه: لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن، فرحل ثلاثا، ومشى أربعا، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلي**﴾[٣].

فجعل المقام بينه وبين البيت فكان يقرأ في الركعتين: ﴿**قل هو الله أحد**﴾[٤] و ﴿**وقل يا أيها الكافرون**﴾[٥] ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا والمروة من شعائر الله. ـ أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فرقي عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره قال:

ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو

---

(١) القصواء: اسم لناقة النبي ﷺ.
(٢) فأهل: الإهلال رفع الصوت بالتلبية.
(٣) سورة البقرة الآية ١٢٥.
(٤) سورة الاخلاص الآية ١.
(٥) سورة الكافرون الآية ١.

على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعي، حتى إذا صعدنا مشى، حتى إذا أتى المروة ففعل على المروة كما فعل الصفا.

حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل، وليجعلها عمرة ـــ فقام سراقة بن ماالك فقال يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال دخلت العمرة في الحج مرتين، لا بل لأبد، أبد.

وقدم علي من اليمن ببدن للنبي ﷺ فوجدنا فاطمة رضي الله عنها ممن حل. ولبست ثوباً صبيغاً واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت: إن أبي أمر بهذا.

قال: فكان علي يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرشا[1] على فاطمة الذي صنعت، مستفتيا لرسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها: فقال صدقت.. ماذا قلت حين فرضت الحج؟.

قال قلت: اللهم إني أهل بما أهل به رسولك.. قال: فإن معي الهدي فلا تحل قال: فكان جماعة الهدي الذي قدم به على اليمن، والذي أتى به النبي ﷺ مائة.

قال: فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

---

(١) محرشا: أي مغريا الرسول ـــ ص ـــ على عتابها ومؤاخذتها.

فلما كان يوم ــ التروية ــ توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج، وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر.

ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة.

فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية(١).

فأجاز(٢) رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة. فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرحلت(٣) له، فأتى بطن الوادي فخطب الناس.

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئا، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة(٤) بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا، حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه.

ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول(٥) بيده اليمنى ــ : أيها الناس السكينة

---

(١) كانت قريش في الجاهلية لا تقف بعرفة وإنما تقف بالمزدلفة، لأن مزدلفة من الحرم وكانوا يقولون نحن أهل حرم الله فلا تخرج منه وقد ظنت قريش أن النبي سيقف بالمشعر الحرام في مزدلفة على عادتهم فتجاوزه النبي ــ ص ــ إلى عرفات ولم يقف فيه لأن الله تعالى أمره بذلك.

(٢) فاجاز: أي جاوز المزدلفة.

(٣) فرحلت: أي جعل عليها الرحل.

(٤) جبل المشاة: المراد به مجتمعهم.

(٥) أي يشير بها قائلا: الزموا السكينة.

السكينة كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين. ولم يسبح[1] بينهما شيئا.

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا، فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف ــ الفضل بن عباس ــ وكان رجلا حسن الشعر، أبيض وسيما، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن[2] يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر، حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلا، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخَذْف رمي من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بيده، ثم أعطى عليا فنحر ما غبر[3] وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها.

ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت، فصلى بمكة الظهر.

فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: انزعوا بني عبد

---

(١) ولم يسبح: أي لم ينتقل بين الصلاتين.

(٢) ظعن: جمع ظعينة: وهي المرأة التي تركب البعير وأصل الظعينة في اللغة البعير نفسه ثم أطلق على المرأة مجازا.

(٣) غبر: أي بقي.

المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم، فناولوه دلوا فشرب منه.

وكذلك رواه مسلم.

٢ ــ لماذا سميت خطبة الوداع

١ ــ هي آخر خطب الرسول ودع فيها المسلمين وأومأ إلى ذلك فيها وتسمى خطبة أيام التشريق وهي الأيام التي ينحر فيها الهدي في موسم الحج وقد خطب الرسول في عرفة من أيام التشريق وكان مبلغ رسول الله إلى الناس بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف.

٢ ــ موضوعها: التحذير من البغي والعدوان وسنن الجاهلية الأولى وبيان أصول الإسلام.

٣ ــ معانيها: قوية سامية متسقة وواضحة مع الدقة والعمق في تناولها فهي مسوقة سياق الفكر المرتب والمنطق السليم.

٤ ــ أسلوبها: تمتاز بسلاسة أسلوبها وسهولته مع الوضوح والخلو من الصنعة والتعقيد والغموض، إلى الإيجاز في بلاغة وجزالة وإلى تأثر الأسلوب ببلاغة القرآن الكريم بالاقتباس من أساليبه والاحتذاء بطريقة تصويره وجمال تعبيره وفيها من روائع التشبيه والكناية والاستعارة ما هو نابع من البلاغة النبوية هذا مع حلاوة الألفاظ وعذوبتها وسلاستها وتجاوب الفقرات فيها تجاوباً يجمع بين بلاغة اللفظ وسمو المعنى.

٣ ــ مضمون الخطبة النبوية في حجة الوداع

١ ــ الدعوة إلى التوحيد الخالص والإيمان الكامل.

٢ ــ الدعوة إلى وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله لأنهما الهدى الذي لا يضل من تمسك به.

٣ ــ **الدعوة إلى تبليغ الرسالة للناس كافة** لأنها رسالة عامة.

٤ ــ الدعوة إلى وجوب احترام حقوق الإنسان وبخاصة في النفس والعرض والمال.

٥ ــ إلغاء التعامل بالربا لما فيه من استغلال للضعيف والفقير.

٦ ــ تأكيد حقوق المرأة ورعايتها ورعاية العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة.

٧ ــ إعلان المساواة التامة بين الإنسان في الحقوق والواجبات مساواة تامة بغض النظر عن اللون والجنس.

٨ ــ صيانة الروابط الدينية والأخوية بين المسلمين.

٩ ــ التحذير من فتن الشيطان والتنبيه إلى وجوب التزام اليقظة والحذر من إفساده للأخوة بين المسلمين وتفريق صفوفهم.

وهكذا رأينا الخطبة إعلاناً دستورياً للرسالة المحمدية وللأمة الإسلامية، كما كانت أعظم وأنبل إعلان إنساني عرفته البشرية لحقوق الإنسان.

٤ ــ الأفكار الرئيسية في الخطبة

١ ــ حقوق الإنسان والتزام رعايتها.

٢ ــ وحدة المسلمين ووجوب الحرص عليها.

٣ ــ المرأة في المجتمع الإسلامي حقوقها وواجباتها.

٤ ــ أداء الأمانة والوفاء بها.

٥ ــ الدعوة إلى تبليغ شريعة الإسلام للناس كافة.

٥ ــ وهذه هي الخطبة الشريفة

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً..

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله.

وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أمنع، دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[1]، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد ــ أيها الناس: فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إن النسي زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله،

---

(١) كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ٤/٢٧٥ سيرة ابن هشام.
وكان اسم هذا الابن آدم، كان صغيراً يحبو أمام البيوت، فأصابه حجر فقتله ١٨٦ جـ ١ سير أعلام النبلاء للذهبي.

ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان.

أما بعد أيها الناس: فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح.. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهم شيئاً، وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله.

فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بينا: كتاب الله، وسنة نبيه.

أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، ألا هل بلغت؟

قالوا: نعم.

قال: اللهم اشهد.

وكان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله وهو بعرفة: ربيعة بن أمية بن خلف.

ويروى من هذه الخطبة النبوية الشريفة في رواية عمرو بن خارجة.

أيها الناس: إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقه، وإنه لا تجوز وصية لوارث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ومن ادعى إلى غير

أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

٦ ــ وقضى رسول الله الحج، وقد أراهم مناسكهم، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم من الموقف ورمي الجمار وطواف البيت، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم.

فكانت حجة البلاغ، وحجة التمام كما كانت هي حجة الوداع، وذلك أن رسول الله لم يحج بعدها. ولقد نعيت إلى رسول الله نفسه في سورة النصر الجليلة : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ (١).

هذا وفي خطبة حجة الوداع قال النبي ﷺ بعد تحريم النسيء إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السماوات والأرض.

وفي تفسير هذه العبارة يقول الدكتور إبراهيم فرج رئيس قسم الجيولوجيا بكلية العلوم بجامعة الرياض:

يمكننا أن نثبت بالحساب أن أول المحرم سنة ١١ هـ يوافق أول نيسان (أبريل) سنة ٤٣٩٢ عبرية، والمحرم هو أول السنة العربية القمرية ونيسان أول السنة العبرية الدينية.

فاستدارة الزمان إشارة إلى أنه بعد انقضاء ذي الحجة سنة ١٠ هـ يعود الاتفاق بين مبدأ السنة القمرية العربية ومبدأ السنة الدينية العبرية كأن الأخيرة لم تتأثر بالكبس وعادت كما كانت عليه في القدم.

لقد حرم النسيء في السنة العاشرة للهجرة وأصبحت الشهور العربية قمرية بحتة، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نحسب التاريخ العبري الموافق لأول المحرم سنة ١١ هـ:

(١) سورة النصر آية ١.

وذلك بأن نأخذ تاريخين متفقين في وقتنا الحاضر أحدهما هجري والآخر عبري، ونرجع بالأخير المدة بين التاريخ الهجري وأول المحرم سنة ١١ فالتاريخ العبري الذي نصل إليه هو الذي يوافق أول المحرم سنة ١١.

وبالرجوع إلى نتيجة الحكومة المصرية سنة ١٣٧٤ هـ نجد أن أول المحرم في هذه السنة يوافق أول طبت سنة ٥٧٠٤ عبرية والمدة من أول المحرم سنة ١١ إلى أول المحرم سنة ١٣٦٣ تساوي ١٣٥٢ عاماً.

وبالرجوع ٩ أشهر من هذاالتاريخ نصل إلى أول نيسان سنة ٤٣٩٢ عبرية.

وينتج أن أول المحرم سنة ١١ هـ يوافق أول نيسان سنة ٤٣٩١. هذا ويعتقد اليهود أن مبدأ تاريخهم راجع إلى بدء خلق العالم(١). وهذا الرأي عندي قابل للمناقشة والنقد.

—

العائد العظيم

وعاد رسول الله صلوات الله عليه من حجة الوداع إلى منزله في المدينة المنورة، بعد منصرفه من مكة المكرمة، فقضى صلوات الله عليه في المدينة بقية ذي الحجة، والمحرم، وصفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة النبوية العاطرة الشريفة.

---

(١) راجع كتاب التقاويم لمحمد محمد فياض سنة ١٩٥٨ الألف كتاب (١٦٣) مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بالفجالة القاهرة صفحة ١٧٧ — ١٧٨، ص ١٠١.

مرض رسول الله

١ ـــ كان بدء مرض رسول الله في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة الشريفة.

وذلك أنه خرج إلى بقيع الغرقد من جوف الليل يستغفر للموتى، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدأ بوجعه من يومه ذلك.

واصطحب رسول الله معه وهو ذاهب إلى بقيع الغرقد مولاه أبا مويهبة، فقال رسول الله:

السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى.

ثم قال لأبي مويهبة: إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة.

فقال أبو مويهبة: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة.

قال رسول الله: لا، والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة. ثم استغفر رسول الله لأهل البقيع، ثم انصرف.

فبدأ برسول الله وجعه الذي مات فيه.

ولما اشتد به مرضه دعا نساءه، وكان عند ميمونة، فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة، فأذن له.

٢ ــ وحدث عبدالله بن مسعود قال: نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمنا عائشة، فنظر إلينا وشدد فدمعت عينه، وقال:

مرحباً بكم، رحمكم الله آواكم الله، حفظكم الله، رفعكم الله، نفعكم الله، وفقكم الله، نصركم الله، سلمكم الله، رحمكم الله، قبلكم الله. أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، واستخلفه عليكم وأؤديكم إليه، إني لكم نذير وبشير.

لا تعلو على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين**﴾[1] وقال: ﴿**أليس في جهنم مثوى للمتكبرين**﴾[2].

فقلنا: متى أجلك؟ قال: قد دنا الفراق، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى[3].

٣ ــ زيادة المرض على رسول الله

١ ــ لما أذنت أمهات المؤمنين لرسول الله أن يمرض في بيت عائشة، خرج يمشي بين رجلين من أهله: الفضل بن عباس، وآخر هو علي، عاصبا رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيت عائشة.

---

(١) سورة القصص الآية ٨٣.

(٢) سورة الزمر الآية ٦٠.

(٣) الطبري ٢ : ٤٢٥.

ثم غمر رسول الله، واشتد به المرض، فصبوا عليه الماء، حتى قال: حسبكم، حسبكم.

وعن ابن عباس قال: يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد برسول الله وجعه الخ[1].

٢ ــ وحدث أيوب بن بشير أن رسول الله خرج عاصبا رأسه، حتى جلس على المنبر.. ثم قال بعد حمد الله، والصلاة على أصحاب أحد، والاستغفار لهم.

إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا، وبين ما عنده، فاختار ما عند الله[2].

فعرف أبو بكر أن رسول الله يريد نفسه، فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا.

ويروى أن رسول الله استبطأ الناس في بعث أسامة، وهو في مرضه،

(١) ٢:٤٣٦ الطبري.

(٢) ويروى أن رسول الله قال في هذه الخطبة: يا معشر المهاجرين: استوصوا بالأنصار خيرا، فإن الناس يزيدون، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئتهم.

ويروي الطبري (٤٣٣/٢) أن رسول الله جاء الفضل بن عباس، فخرج إليه الفضل فوجده موعوكا قد عصب رأسه، فقال: خذ بيدي يا فضل، فأخذ بيده حتى جلس على المنبر، ثم قال: ناد في الناس، فاجتمعوا إليه، فقال:

أما بعد، أيها الناس: فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وإنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري، فليستقده منه، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقا إن كان له، أو حللني فلقيت الله وأنا أطيب النفس، وقد أرى أن هذا غير مغن حتى أقوم فيكم مرارا.

فخرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر، وقد كان الناس قالوا في إمرة أسامة: أمر غلاما حدثا على جلة المهاجرين والأنصار(١):

فحمد رسول الله الله تعالى، وأثنى عليه بما هو له أهل، ثم قال: أيها الناس: أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقا لها.

ثم نزل رسول الله.
واشتغل الناس في جهاز بعث أسامة.
وغلب المرض رسول الله.
وخرج أسامة بجيشه، حتى نزلوا الجرف على فرسخ من المدينة. فضرب به أسامة عسكره، وأخذ المسلمون يفدون على الجيش.

وثقل رسول الله فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض في رسول الله.

٣ ــ وعن عائشة: كانت آخر كلمة سمعتها من رسول الله: بل الرفيق الأعلى من الجنة.

٤ ــ صلاة أبي بكر بالناس

ولما غلب المرض رسول الله قال:
مروا أبا بكر فليصل بالناس.
فقالت عائشة: يا نبي الله، إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت: كثير البكاء إذ قرأ القرآن.

---

(١) يقول الطبري (٤٢٩:٢ ــ طبعة الاستقامة بالقاهرة): إن رسول الله ضرب في المحرم من سنة إحدى عشرة على الناس بعثا إلى الشام، وأمر عليهم مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد ابن حارثة ولقد أبلى أسامة بلاء حسنا في سبيل الإسلام ومات عام ٥٩ هـ (٣٥٥:٢ ــ ٣٦٢ سير أعلام النبلاء).

قال: مروه فليصل بالناس.

فعادت عائشة بمثل قولها.

فقال صلوات الله عليه: إنكن صواحب يوسف، فمروه فليصل بالناس.

وكانت عائشة تحب أن تصرف خلافة رسول الله عن أبي بكر لأن الناس لا يحبون رجلا قام مقامه أبدا، وأنهم سيتشاءمون به في كل حدث كان.

٥ ــ ولما كان يوم الإثنين الذي قبض الله فيه رسوله ﷺ، خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح، فرفع الستر، وفتح الباب، فخرج رسول الله، فقام على باب عائشة، فضج المسلمون بالفرح فرحا برسول الله، فأشار صلوات الله عليه إليهم: أن اثبتوا على صلاتكم، وتبسم رسول الله سرورا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم، ثم رجع وانصرف الناس، وهم يرون أن رسول الله قد أبل من مرضه، فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح.

ويروى أن رسول الله لما خرج تفرج الناس، فعرف أبو بكر أن الناس لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله، فنكص عن مصلاه فدفع رسول الله في ظهره، وقال: صلِّ بالناس، وجلس رسول الله إلى جنبه، فصلى قاعدا عن يمين أبي بكر.

فلما فرغ من الصلاة، أقبل على الناس، فكلمهم رافعاً صوته فيقول: أيها الناس: سعرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تمسكون علي بشيء، إني لم أحل إلا ما أحل القرآن، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن.

فلما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: يا نبي الله، إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب، واليوم يوم بنت خارجة أفآتيها؟ قال: نعم.

ثم دخل رسول الله، وخرج أبو بكر إلى أهله بالسنح.

فتوفي رسول الله حين اشتد الضحاء من ذلك اليوم، ﷺ، وهو يوم الإثنين قرب نصف النهار لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة النبوية، ﷺ.. وذلك يوافق السابع من يونيو ٦٣٣ هـ والصحيح ما يقول صاحب كتاب « التوفيقات الإلهامية » أن ذلك يوافق يوم الأحد لا يوم الإثنين.

قالت عائشة: رجع رسول الله من صلاته يومئذ، فاضطجع في حجري فقال ﷺ: أصلى الناس؟ قلنا لا هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: ضعوا لي ماء في المخضب، قالت: فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق، فقال أصلى الناس، فقلنا لا هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: ضعوا لي ماء في المخضب فقعد فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال أصلى الناس فقلنا لا هم ينتظرونك يا رسول الله والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي عليه السلام الصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس فقال أبو بكر: وكان رجلا رقيقا، يا عمر صل بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، فصلى أبو بكر تلك الأيام، ثم إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر، قال: أجلساني إلى جنبه فأجلساه إلى جنب أبي بكر، قال فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ قاعد. قال عبيد الله فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت له: ألا أعرض عليك ما حدثتني به عائشة عن مرض النبي ﷺ؟ قال هات، فعرضت عليه حديثها، فما أنكر منه شيئاً غير أنه قال: أسمت لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قلت لا، قال: هو علي.

وعن عائشة قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: مروا أبا بكر أن يصلي بالناس، فقلت يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر؟ فقال: مروا أبا بكر يصلي بالناس، فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر؟ فدخل علي رجل من آل أبي بكر، وفي يده سواك أخضر، فنظر رسول الله إليه في يده نظراً عرفت أنه يريده، فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: نعم، فأخذته، ثم أعطيته إياه، فاستاك به ثم وضع.

ووجدت رسول الله يثقل في حجري، فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة.

فقلت: خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق.
ومات رسول الله ﷺ.

وكان آخر ما عهد رسول الله أن قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان، وقال: أجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم[1].

وما ترك رسول الله ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة، وعن عائشة توفي رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير.

---

(١) لما ذهب جيش أسامة إلى الشام وغنموا قدم على هرقل موت رسول الله وإغارة أسامة على أرضه في آن واحد (٢/٣٥٩ سير أعلام النبلاء للذهبي).. وألبس الرسول أسامة حلة ذي يزن (٢/٣٦٠ المرجع السابق) ـــ ومات أسامة عام ٥٩ هـ (٣٥٥ــ٢/٢٦٢ المرجع السابق).

وما مات رسول الله وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام(١). وروي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: دخلت على عائشة قلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت بلى، ثقل النبي ﷺ فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا هم ينتظرونك، قال ضعوا لي ماء في المخضب قالت: ففعلنا فاغتسل فذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق، قال: إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس! فلما دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ في نفسه خفة فقام يهادي بين رجلين ورجلاه يخطان في الأرض حتى دخل المسجد فلما سمع أبو بكر حسه ذهب أبو بكر يتأخر. فأومأ إليه رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي قائما، وكان رسول الله ﷺ قاعداً، يقتدي أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ، والناس مقتدون بصلاة أبي بكر رضي الله عنه.

وعن الزهري قال أخبرني أبو سلمة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته قالت: أقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرسه من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيمم النبي ﷺ وهو مسجي ببزد حبرة تكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى فقال: بأبي أنت يا نبي الله. لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها. قال أبو سلمة: فأخبرني ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا بكر رضي الله عنه خرج وعمر رضي الله عنه يكلم الناس فقال: اجلس فأبى، فقال أجلس فأبى. فتشهد أبو بكر رضي الله عنه فمال إليه الناس وتركوا عمر. فقال أما بعد: فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً ﷺ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله

(١) ١٧٣ الشفاء للقاضي عياض.

تعالى (وما محمد إلا رسول إلى الشاكرين). والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه فتلقاها منه الناس فما يسمع بشر إلا يتلوها.

بعد وفاة رسول الله ﷺ

بلغ عمر وفاة رسول الله، فقال:

إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفي، وإن رسول الله والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات، والله ليرجعن رسول الله ﷺ، كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات.

وأقبل أبو بكر، حتى نزل على باب المسجد، حين بلغه الخبر، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة، ورسول الله مسجى في ناحية البيت، عليه برد حبرة.

فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله، ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً. ثم رد البرد على وجه رسول الله.

ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر، أنصت. فحمد أبو بكر الله، وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس: إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن

كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾**[1].

حديث السقيفة

ولما قبض رسول الله انحاز الأنصار إلى سعد بن عبادة[2]، واعتزل علي والزبير وطلحة في بيت فاطمة.

وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر وعمر، ومعهم أسيد بن حضير في بني عبد الأشهل.

فأبيّ آتٍ إلى أبي بكر وعمر، فقال: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم.

فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه.

فذهبا فوجدا خطيباً من الأنصار يخطب ويقول: نحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا.

فقام أبو بكر فيهم فقال: لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هو أوسط العرب نسباً وداراً، وقد وهبت لكم أحد هذين

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

(٢) أنصاري خزرجي، سيد الخزرج، كان ملكاً شريفاً مطاعاً في قومه وكان يرجع إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يأكلون معه وكان يقول: اللهم هب لي حمداً ومجداً، اللهم لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه، مات بحوران الشام سنة ١٤ هـ أو ١٦ هـ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ١ ص ١٩٦ــ٢٠٢).

الرجلين، وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة[1]، وقال: فبايعوا أيهما شئت.

فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش.

فكثر اللغط فقال عمر: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعه، ثم بايعه المهاجرون. ثم بايعه الأنصار.

ولما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر، فتكلم قبل أبي بكر.

ثم تكلم أبو بكر فحمد الله وأثني عليه بالذي هو أهله، ثم قال:

أما بعد أيها الناس: فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

جهاز رسول الله ودفنه

فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله يوم الثلاثاء.

وولي غسله ﷺ علي والعباس[2] والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ومعهم أوس بن خولي

---

(١) ابن الجراح، مات عام ١٨ هـ، وكان من السابقين الأولين، وله مكانته في الإسلام، وكان رسول الله ثم صاحباه يجلان منه، لقي عمر أبا عبيدة فصافحه وقبل يده (١/٩ سير أعلام النبلاء).

(٢) عاش العباس بعد رسول الله طويلا، ومات عام ٢٢ هـ عن ٨٠ سنة.

الخزرجي، وكان علي يغسله وقد أسنده ﷺ إلى صدره، وهو يقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله طبت حياً وميتاً، وغسلوا النبي وعليه ثيابه قميصه، يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه والقميص دون أيديهم.

ودفن رسول الله حيث توفي، ثم دخل الناس على رسول الله يصلون عليه أرسالا، ثم النساء، ثم الصبيان.

ثم دفن رسول الله ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء.

وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله: علي والفضل بن عباس، وقثم ابن عباس وشقران مولى رسول الله وأوس بن خولي.

المسلمون بعد رسول الله

١ ــ لما توفي رسول الله هم أكثر أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك، حتى خافهم عتاب بن أسيد، فتوارى، فقام سهيل بن عمرو وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله، وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس، وكفوا عما هموا به وظهر عتاب بن أسيد.

٢ ــ وقالت عائشة:

لما توفي رسول الله ﷺ، ارتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ حتى جمعهم الله على أبي بكر.

٣ ــ وصار أبو بكر خليفة لرسول الله، وهو الخليفة الأول رضي الله وأرضاه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

٤ ــ ويقول الطبري: اشتكى رسول الله فوثب الأسود[1] باليمن

(١) يقول الطبري: أول ردة كانت على عهد رسول الله على يدي ذوي الخمار عبهلة بن كعب =

ومسيلمة باليمامة وجاء الخبر عنهما للنبي، ثم وثب طليحة في بلاد أسد بعد ما أفاق النبي، ثم اشتكى في المحرم وجعه الذي توفي فيه.

الشعراء يبكون رسول الله

قال حسان بن ثابت يرثي رسول الله في قصيدة طويلة منها:

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا ... عليه بناء من صفيح منضد
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة ... عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم ... وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوماً رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد
تقطع فيه منزل الوحي عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا ... معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
فبينا هم في ذلك النور إذ غدا ... إلى نورهم سهم من الموت مقصد
فبكى رسول الله يا عين عبرة ... ولا أعرفك الدهر دمعك يجمد

= وهو الأسود في عامه مذ حج خرج بعد الوداع ٢ــ/٤٣٠ الطبري.

وفي عهد أبي بكر كتب زيد بن ثابت (المتوفي عام ٤٥ هـ عن ست وخمسين سنة) القرآن بأمر أبي بكر الصديق (راجع ٢:٣٠٥ــ٣١٦ سير أعلام النبلاء) وقد جمع القرآن في زمن النبي خمسة من الأنصار، هم: معاذ، وعبادة بن الصامت وأبي، وأبو أيوب، وأبو الدرداء عويمر بن زيد (٢/٢ سير أعلام النبلاء).

وفي عهد عثمان جمع القرآن إثنا عشر رجلا من قريش والأنصار منهم أبي وزيد بن ثابت (٢٥٩:١ المرجع السابق) وتوفي أبي عام ٣٣ هـ في عهد عثمان (٢٨٠:١ــ٢٨٨ المرجع).

وما فقد الماضون مثل محمد   ولا مثله حتى القيامة يفقد
رباه وليداً فاستتم تمامه   على أكرم الخيرات رب ممجد

٢ ــ وقال حسان أيضاً يرثي رسول الله:

بأبي وأمي من شهدت وفاته   في يوم الاثنين النبي المهتدي
يا بكر آمنة المبارك بكرها   ولدته محصنة بسعد الأسعد
نوراً أضاء على البرية كلها   من يهد للنور المبارك يهتدي

٣ ــ وقال حسان:

نب المساكين أن الخير فارقهم   مع النبي تولى عنهمو سحرا
كان الضياء وكان النور نتبعه   بعد الإله وكان السمع والبصرا

٤ ــ وقال أيضاً[١]:

يا أفضل الناس إني كنت في نهر   أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

٥ ــ وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (٢٠ هـ)، وهو ابن عم الرسول، وأخوه رضاعا، وأحد من يشبه الرسول (وهم أبو سفيان، والحسن بن علي، وقثم بن العباس)، يقول في رثاء الرسول[٢]:

أرقت فبات ليلي لا يزول   وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسعدني البكاء، وذاك فيما   أصيب المسلمون به قليل
فقد عظمت مصيبتنا وجلت   عشية قيل قد قبض الرسول
فقدنا الوحي والتنزيل فينا   يروح به ويغدو جبرئيل

(١) عاش حسان نحو مائة وعشرين عاماً نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام، ومات عام ٥٤ هـ (٣:٣٦٦ـ٣٧٤ سير أعلام النبلاء).

(٢) ١/١٤٩ سير أعلام النبلاء للذهبي.

وذاك أحق ما سالت عليه ... نفوس الخلق أو كادت تسيل
نبي كان يجلو الشك عنا ... بما يوحي إليه وما يقول
ويهدينا فلا نخشى ضلالا ... علينا، والرسول لنا دليل
فلم نر مثله في الناس حيا ... وليس له من الموتى عديل
أفاطم إن جزعت فذاك عذر ... وإن لم تجزعي فهو السبيل
وقولي في أبيك ولا تملي ... وهل يجزى بفضل أبيك قيل
فقبر أبيك سيد كل قبر ... وفيه سيد الناس الرسول

فاطمة تبكي أباها[1]

لما ثقل النبي جعل يتغشاه ما يتغشاه، فقالت فاطمة: وأكرب أباه، فقال لها ﷺ: ليس على أبيك كرب بعد اليوم.

فلما مات قالت:
يا أبتاه، أجاب ربا دعاه، يا أبتاه، جنة الفردوس مأواه.
يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه.
فلما دفن قالت فاطمة:
يا أنس، أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب[2].

---

(١) ولدت قبل البعثة بقليل، وتزوجها علي في ذي القعدة من سنة ٢ هـ بعد بدر — وتوفيت بعد رسول الله بستة أشهر عن ٢٩ عاماً وابناها الحسن والحسين (٧٧—٢/٩٧ سير أعلام النبلاء).

(٢) حدثت عائشة رضي الله عنها، قالت:
ما رأيت أحدا من الناس كان أشبه بالنبي كلاماً ولا حديثاً ولا جلسة، من فاطمة. وكان إذا رآها قد أقبلت رحب بها، ثم قام إليها فقبلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلس في مكانه. وكانت إذا أتاها رحبت به ثم قامت إليه وقبلته.

وراجع كتاب « تزويج فاطمة بنت الرسول » — تحقيق صلاح الدين المنجد — طبع بيروت ١٩٦٢.

وابن عباس يحدث

وعن ابن عباس قال:

يوم الخميس!!

وما يوم الخميس؟.

ثم جرت دموع ابن عباس تسيل على خديه كأنها نظام اللؤلؤ، واسترسل في الحديث يقول:

قال رسول الله ﷺ: أئتوني باللوح والدواة، أو بالكف والدواة وأكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده.

فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي أن يتنازع، فقالوا: ما شأنه؟ استفهموه، فذهبوا: يعيدون عليه، فقال: دعوني، فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه[1]:

وقال أبو ذؤيب الهذلي: بلغنا أن رسول الله عليل، فأوجس أهل الحي خيفة عليه، فبت بليلة، ثابتة النجوم، طويلة الاناة، لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها، حتى إذا قرب السحر، غفوت، فهتف لي هاتف يقول:

خطب أجل أناخ بالإسلام ... بين النخيل ومعقد الآطام[2]

قبض النبي محمد فعيوننا ... تذري الدموع عليه بالتسجام[3]

= وميلاد فاطمة قبل البعثة بخمس سنين، أي في عام بناء الكعبة، وذلك سنة ١٨ ق هـ: تزوجت وهي بنت خمسة عشر عاماً وخمسة أشهر ونصف، وتوفيت بعد رسول الله بستة أشهر عن ٢٩ عاماً (راجع ١:٢٧١ العقد الثمين للفاسي)، وقيل إنها توفيت عن ٢٤ عاماً (راجع سير أعلام النبلاء).

(١) الطبري ٢ : ٤٢٦

(٢) الأطم: القصر وكل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع السطح جمعه آطام.

(٣) سجم الدمع: قطر وسال قليلا وكثيراً.

فوثبت من نومي فزعا، فنظرت إلى السماء، فلم أر إلا سعد الذابح، فتفاءلت به ذبحاً يقع في العرب، وعلمت أن النبي ﷺ قد مات أو هو ميت عن علته.

فركبت ناقتي وسرت ثم قدمت المدينة ولأهلها ضجيج كضجيج الحجيج أهلوا جميعاً بالإحرام. فقلت: مه؟ قالوا: قبض رسول الله ﷺ فجئت المسجد فأصبته خالياً. فأتيت رسول الله ﷺ فأصبت بابه مرتجاً[1] وقد خلا به أهله فقلت: أين الناس. فقيل: في سقيفة بني ساعدة، صاروا إلى الأنصار.

فجئت السقيفة فوجدت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وأبا عبيدة وسالما وجماعة من قريش، ورأيت الأنصار فيهم سعد بن عبادة ومعهم شعراؤهم، وإمامهم حسان بن ثابت وكعب، في ملأ منهم، فآويت إلى الأنصار، فتكلموا فأكثروا، وتكلم أبو بكر، فلله من رجل لا يطيل الكلام، ويعلم مواضع الفصل.

والله لقد تكلم بكلام لم يسمعه سامع إلا انقاد له، ومال إليه، وتكلم بعده عمر رضي الله عنه بكلام دون كلامه، ومد يده فبايعه، ورجع أبو بكر رضي الله عنه، ورجعت معه فشهدت الصلاة على رسول الله ﷺ وشهدت دفنه.

روايات في يوم وفاة رسول الله

١ ــ لا خلاف في أن اليوم الذي مات فيه رسول الله كان يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ويقال: بل الأحد.

---

(١) أرتج الباب: أغلقه.

قيل: هو يوم الإثنين لليلتين مضتا من شهر ربيع الأول، وبويع أبو بكر يوم وفاته.

وقيل : بل يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، ودفن من الغد نحو نصف النهار(١)، حين زاغت الشمس وذلك يوم الثلاثاء(٢)، وقال بعضهم: إنما دفن بعد وفاته بثلاثة أيام(٣).

وهكذا توفي رسول الله ﷺ لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول في اليوم الذي قدم فيه المدينة مهاجراً فاستكملت هجرته عشر سنين كوامل(٤)، وذلك يوافق ٨ يونيو ٦٣٢ م.

٢ ــ واختلف في سنه ويوم توفي:

(ا) قيل: كان له يومئذ ثلاث وستون سنة، وأقام رسول الله بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، وبالمدينة عشراً، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

(ب) وقال سعيد بن المسيب: أنزل على رسول الله وهو ابن ثلاث وأربعين سنة، وأقام بمكة عشرا، وبالمدينة عشرا، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين(٥).

(جـ) وقيل: توفي رسول الله وهو ابن خمس وستين سنة(٦).

---

(١) وقيل: دفن رسول الله من وسط الليل ليلة الأربعاء كما يذكر ابن هشام.

(٢) ٢/٤٤١ و٤٤٢ الطبري.

(٣) ٢/٤٥٠ الطبري.

(٤) ٢/٤٥٣ المرجع، وذلك يوافق السابع من يونيو ٦٣٢ هـ، وفي كتاب « التوفيقات الإلهامية » أن ذلك كان يوم أحد.

(٥) ٢/٤٥٣ الطبري.

(٦) ٢/٤٥٤ الطبري.

أمهات رسول الله

أمه هي آمنة بنت وهب وقد توفيت ورسول الله في السادسة من عمره وأرضعت رسول الله ثلاث نسوة هن أمهاته من الرضاع، وهن:

١ ــ ثوبية مولاة أبي لهب ــ أرضعته أياما، وأرضعت معه أبا سلمة المخزومي بلبن ابنها مسروح، وأرضعت معهما عمه حمزة[١]:

٢ ــ حليمة السعدية بلبن ابنها[٢] عبد الله وهو أخو أنيسة وجذامة (الشيماء) أولاد الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدي، وأرضعت معه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، الذي كان فيما بعد شاعرا، وكان شديد العداوة لرسول الله، ثم أسلم قبل عام الفتح.

٣ ــ وأرضعت رسول الله كذلك امرأة سعدية أخرى غير حليمة، وهي التي كانت ترضع حمزة عم رسول الله ﷺ.

حواضن رسول الله

هن ما يلي:

١ ــ أمه آمنة.

---

(١) ١:٢٥ و٣٦ زاد المعاد.

(٢) يروي جلال الدين الرومي في المثنوي أن حليمة ردت رسول الله وهو في سن الرابعة خوفا عليه.

٢ ـــ ثويبة مولاة أبي لهب.
٣ ـــ حليمة السعدية.
٤ ـــ الشيماء ابنة حليمة، وهي أخته من الرضاع.
٥ ـــ أم أيمن بركة الحبشية التي ورثها رسول الله ﷺ من أبيه عبد الله، وكانت دايته، وهي التي زوجها رسول الله لزيد بن حارثة فولدت له أسامة.

أزواج رسول الله أمهات المؤمنين

١ ــ خديجة بنت خويلد

أولى أزواجه، زوجه إياها أبوها خويلد بن أسد، أو أخوها عمرو ابن خويلد، وأصدقها رسول الله عشرين بكرة، كان الرسول في الخامسة والعشرين وهي في الأربعين.

فولدت لرسول الله ولده كلهم، إلا إبراهيم.

وكانت قبل زواجها برسول الله زوجا لأبي هالة بن مالك التميمي، فولدت له هند بنت أبي هالة، وزينب بنت أبي هالة.

وقبل أبي هالة كانت زوجا لعتيق المخزومي، فولدت له عبد الله وجارية[1].

---

(١) كانت تدعى في الجاهلية: الطاهرة ــ بنى بها الرسول وله خمس وعشرون سنة ولها أربعون سنة ــ توفيت عام ٥٠ من ميلاد الرسول، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات، وذلك في رمضان عن خمس وستين سنة (٨١ــ٢/٨٦ سير أعلام النبلاء الذهبي).

راجع فضائل خديجة في صحيح مسلم ٢:٤:٢ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

وراجع كتاب « السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين » للامام الطبري (٦٩٤ هـ) ــ طبع حلب ــ فهو من المراجع المفيدة في هذا الجانب.

وراجع ص ١١٠ــ١١٣ من كتابنا هذا « سيرة رسول الله ».

٢ ــ عائشة بنت أبي بكر(١)

تزوجها رسول الله بمكة، وهي بنت سبع سنين، وبنى بها بالمدينة،

(١) تزوجها رسول الله قبل الهجرة ببضعة عشر شهرا، وقيل بعامين، ودخل بها في شوال سنة اثنتين بعد بدر وهي ابنة تسع، قبل زواج علي بفاطمة بنت رسول الله بقليل (بأربعة أشهر ونصف ــ ٣/٩٣ سير)، وما تزوج رسول الله بكرا سواها ــ تروي عائشة. لما هاجر رسول الله خلفنا وخلف بناته، فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة وأبا رافع، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم اتخذها من أبي بكر يشتريان بها ما نحتاج إليه من الظهر، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط الليثي ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى عبد الله يأمره أن يحمل أهله: أم رومان وأنا وأختي أسماء فخرجوا، فلما انتهوا إلى قديد اشترى بتلك الدراهم ثلاثة أبعرة، ثم دخلوا مكة، وصادفوا طلحة يريد الهجرة بآل أبي بكر، فخرجنا جميعاً. وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأم أيمن وأسامة فاصطحبنا جميعا فقدمنا والمسجد مبني ــ ١٠٩ جـ ٢ سير أعلام النبلاء ــ وتقول عائشة: أعطيت قسما ما أعطيتها امرأة بعد مريم بنت عمران: نزل جبريل بصورتي في راحته حتى أمر رسول الله أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكراً وما تزوج بكرا غيري، ولقد قبض ورأسه في حجري، ولقد قبرته في بيتي، ولقد حفت الملائكة بيتي، وإن كان الوحي أنزل عليه وإني لمعه في لحافه. وأني لابنة خليفته وصديقه ولقد نزل عذري من السماء ولقد خلقت طيبة عند طيب ــ ولقد وعدت مغفرة ورزقا كريما ــ ٢/١٠٢ سير أعلام النبلاء ــ وقالت عائشة: تزوجني رسول الله في شوال، وأعرس بي في شوال وكانت العرب تستحب لنسائها أن يدخلن على أزواجهن في شوال ٢/١١٧ سير أعلام النبلاء ــ وعن أسماء بنت عميس قالت: كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله، ومعي نسوة، فما وجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن، فشرب منه، ثم ناوله عائشة فاستحيت الجارية، فقلنا لا تردي يد رسول الله. خذي منه. فأخذته على حياء فشربته. ثم قال: ناولي صواحبك ٢/١٢٢ سير أعلام النبلاء ــ وكان عروة يقول لعائشة أيا أماه: لا أعجب من فقهك أقول: زوجة نبي الله وابنة أبي بكر. ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس. أقول: ابنة أبي بكر، وكان أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب ــ ٢/١٢٨ ــ سير. وربما روت عائشة القصيدة ستين بيتاً أو أكثر ٢/١٣٣ المرجع. وتوفيت في الليلة السابعة عشرة من رمضان سنة خمسين أو ثمان وخمسين ٢/١٣٥ ــ المرجع ــ ١٩٨ ــ ٢/٢٤٢ سير أعلام النبلاء): وكانت مولاة عائشة هي بريرة (٢١٥ ــ ٢/٢٢١).

وهي بنت تسع سنين أو عشر، ولم يتزوج بكراً غيرها، زوجه إياها أبوها أبو بكر، وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم[1].

ومن إخوتها عبد الرحمن بن أبي بكر وتوفي عام ٥٣ هـ[2].

٣ ـ سودة بنت زمعة[3] من عامر بن لؤي توفيت بالمدينة عام ٥٤ هـ

تزوجها رسول الله، زوجه إياها سليط بن عمرو، وقيل: حاطب ابن عمرو، أصدقها رسول الله أربعمائة درهم، وذلك في رمضان سنة عشر من النبوة، وهاجر بها.

وكانت قبل رسول الله زوجا للسكران بن عمرو بن بني عامر بن لؤي، وتوفي عنها بعد عودتها من الحبشة ـ وقد تزوجها رسول الله بعد موت خديجة بسنة[4].

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ١٣٠/٣ وما بعدها ـ مكتبة المعارف بيروت.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢: ٣٢٨ ـ مختصر صحيح مسلم للمنذري فضائل عائشة ٢: ٢ ـ ٢٠٤.

(٣) قرشية عامرية أول من تزوج بها رسول الله بعد خديجة، وانفردت به نحوا من ثلاث سنين أو أكثر حتى دخل بعائشة، وكانت سيدة جليلة ضخمة، وهي التي وهبت يومها لعائشة، وكانت أولا عند السكران بن عمرو، وكانا قد هاجرا إلى الحبشة فلما عادا توفي زوجها، فخطبها رسول الله. ولما قدم رسول الله إلى المدينة بعث زيدا وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة فأتيا بآل رسول الله إلى المدينة (١٩٠ـ/٢ سير) أعلام النبلاء.

(٤) ٢٣٠:١ العقد الثمين للفاسي.

٤ ـــ زينب بنت جحش الأسدية(١)

زوجه إياها أخوها أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم، وذلك عام خمس من الهجرة في ذي القعدة، وهي يومئذ بنت خمس وعشرين.

وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولي رسول الله.

وهي بنت عمة الرسول أميمة بنت عبد المطلب.

وكانت في بيت عز وشرف، لأنها ذات حسن ونسب، وهي من أشراف قريش، وهي ابنة عمة الرسول، وأمها ـــ أميمة بنت عبد المطلب ـــ وقد خطبها ﷺ لمولاه ومتبناه ـــ زيد بن حارثة ـــ فأبت أن تقبل وأبى أخوها عبد الله أن يزوجها لزيد لأنها من الأشراف، وهو عبد مملوك لا يدانيها في الشرف والمكانة، فنزلت الآية الكريمة عتابا لها ولأخيها على هذا الصنيع وهي قوله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضي الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً**﴾(٢)

لقد أراد الله أن يقضي على عادات الجاهلية، وتفاخرها بالأحساب والأنساب وتفريقها بين الناس بسبب الشرف المزعوم في العرق والجنس،

---

(١) من المهاجرات الأول، كانت من سادة النساء، توفيت في سنة عشرين وفيها قال الرسول: أسرعكن لحوقا بي أطولكن يدا، عني طول يدها بالمعروف، وعن عائشة: كانت زينب تساميني في المنزلة عند رسول الله ٢/١٥١ سير أعلام النبلاء، وقالت عائشة: يرحم الله زينب، لقد نالت في الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف، إن الله زوجها، ونطق به القرآن: ٢/١٥٣ سير ـــ (١٤٩ـــ١٥٤ جـ ٢ سير أعلام النبلاء) ـــ وأخوها عبد الله بن جحش قتل في أحد ودفن مع حمزة في قبر واحد وحمزة ابن أخته. وراجع ١:٥٨ كتاب زاد المعاد لابن القيم في حديثه عنها.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٦.

فأمر رسوله أن يزوج ابنة عمته لزيد فلما نزلت الآية بشأن زينب وأخيها رضخت للأمر، واستجابت، هي وأخوها لأمر الله ورسوله فقبلت الزواج به، وتم عقد النكاح بينهما، ولكن أمر هذا الزواج لم يدم طويلا فقد ساءت العلاقات بينهما. ولم تدم الألفة ولذلك طلقها زيد، ثم بعد تطليقه تزوجها الرسول بأمر من الله العلي الكبير لحكمة في زواج أحد من أزواجه الطاهرات، وهي إبطال بدعة التبني ـــ التي كانت متبعة في الجاهلية، وكانت ديناً تقليدياً عندهم، وما كان الإسلام ليقرهم على باطل، لا سيما وأنهم كانوا يعطون هؤلاء الأبناء الأدعياء، جميع حقوق الأبناء من النسب، في الزواج والميراث ومحرمات النكاح وغيرها من الأمور.

وكان رسول الله ﷺ قد تبني ـــ زيد بن حارثة ـــ بأمر من الله سبحانه، وسبب تنبيه له مع كرهه لعادات الجاهلية الباطلة، هو ما كان يدور في خلده ﷺ، من إرادة إبطال حكم التبني.. وكان قد أسر فخرج والده وعمه ـــ كعب ـــ إلى مكة من أجل أن يفدياه، فسألا عن محمد فقيل لهما إنه في المسجد، فدخلا عليه فقالا:

يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا عندك فامنن علينا، وأحسن في فدائه، فإنا سندفع لك ما تريد.

فقال لهم أو غير ذلك، أدعوه لكم وأخيره بينكم، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء..

ففرح أبوه وفرح عمه، فدعاه الرسول فقال: هل تعرف هؤلاء؟ قال نعم هذا أبي وهذا عمي؟ فخيره ﷺ بين أن يبقى عنده أو أن يذهب

مع أبيه وعمه، فقال زيد بعد أن ترقرقت الدمعة في عينيه: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكانة الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد: أتختار العبودية على الحرية؟ وعلى أبيك وعمك؟ فقال لهم زيد: لقد رأيت من هذا الرجل – يعني محمداً – شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك الموقف منه أخرجه إلى الحجر ثم قال أمام الناس أشهدكم أن زيداً ابني أرثه ويرثني.

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما فدعي منذ ذلك الحين – زيد بن محمد – وكان ذلك قبل بعثته ﷺ، وقبل أن تنزل عليه النبوة.

وكان التبني أعظم شيء مستطاع في تكريمه، وتعظيم قدره، وذلك لحكمة يريدها الله تعالى.

وقد كان زيد يلقب بـ – حب رسول الله – أي حبيبه، وقد ورد أن الرسول ﷺ لم يبعث سرية قط وفيهم زيد بن حارثة إلا وأمره عليهم، ثم أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم أن يزوج زينب لزيد بن حارثة مولاه، وهو عز وجل يعلم أنهما لا يتفقان على بقاء هذه الزوجية، لأنها تتكبر عليه بالطبع، وهو عزيز النفس لا يحمل ذل الكبرياء عليه، وبعد أن تزوجها بقيت عنده مدة، ثم ساءت العلاقات بينهما، فكانت تغلظ له القول، وتتعظم عليه بالشرف، فيذهب إلى النبي ﷺ باكياً منها، ويستأذنه في طلاقها فيقول الرسول الكريم: أمسك عليك زوجك.. وهو يعلم أنه لا بد له من طلاقها، وأن الله يأمره بالتزوج بها بعده إبطالا لتلك البدعة الجاهلية – بدعة التبني – ولكنه ﷺ لم يكن يظهر هذا له ولا لغيره وكان بمقتضى الشعور الطبيعي يخشى ما يقوله الناس، ولا سيما المنافقين والمشركين: إن محمدا تزوج امرأة ابنه فأنزل الله تعالى في ذلك قوله جل وعلا:

﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه، وأنعمت عليه، أمسك عليك زوجك واتق الله، وتخفي في نفسك ما الله مبديه؛ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فلما قضى زيد منها وطرا زوّجناكها. لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا. * وما كان على النبي من حرج فيما فرض له، سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾[1].

ثم أنزل الله سبحانه تتميما لهذا الحادث العظيم، ونفيا لتلك المزاعم الجاهلية حينما قال بعض الناس إنه قد تزوج حليلة ابنه، أنزل الله هذه الآية الكريمة:

﴿ ما كان محمداً أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليما﴾[2].

وهذه هي الحكمة الإلهية من تزوج الرسول بزينب رضي الله عنها وهي حكمة جليلة سامية... وسنتحدث عن بقية زوجاته الطاهرات.

٥ ــ أم سلمة المخزومية[3]

اسمها هند، زوج رسول الله إياها ابنها سلمة بن أبي سلمة[4]، وأصدقها رسول الله بعض المتاع.

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٣٧ و٣٨.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٤٠.

(٣) بنت عم خالد بن الوليد، من المهاجرات الأول، كان زوجاً قبل رسول الله لأخيه من الرضاعة أبي سلمة المخزومي ــ دخل بها النبي في سنة أربع من الهجرة، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً، وهي آخر من مات من أمهات المؤمنين، عاشت نحواً من تسعين سنة، توفيت سنة تسع وخمسين أو إحدى وستين في ذي القعدة، وقيل: في عام ٦٢ كما يذكر ابن القيم ١:٥٨ زاد المعاد ــ وتقول عائشة: لما تزوج النبي أم سلمة حزنت حزناً شديداً لما ذكروا لنا من جمالها (١٤٢ــ١٤٨ جـ ٢ سير أعلام النبلاء).

(٤) قيل: إن الذي زوج رسول الله إياها هو ابنها عمر: ويرجح ابن القيم في زاد المعاد أنه =

وكانت قبل رسول الله زوجاً لأبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد فولدت له سلمى، وعمر، وزينب، ورقية.

٦ ــ حصفة بنت عمر[١]

زوج رسول الله إياها أبوها عمر بن الخطاب، وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم، وذلك في سنة ثلاث من الهجرة.

وكانت قبل رسول الله زوجاً لخنيس بن حذافة السهمي.

٧ ــ أم حبيبة بنت أبي سفيان[٢]

اسمها رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب.

زوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص، وهما بأرض الحبشة، وأصدقها

= عمر بن الخطاب، وهو وأم سلمة يلتقيان في كعب، وكان ابنها عمر آنذاك في الثالثة من عمره.

(١) قالت عائشة: كانت حفصة هي التي تساميني من أزواج رسول الله.

مولدها عام ٣٥ من ميلاد الرسول دخل بها الرسول ولها نحو من عشرين سنة، وهي أسبق من أخيها ابن عمر بست سنين.

توفيت عام ٤١ هـ، وهي عام الجماعة، وقيل: بل عام ٤٥ هـ، بالمدينة، وصل عليها والي المدينة مروان (١٦٢ــ١٦٤ جـ ٢ سير أعلام النبلاء).

(٢) من بنات عم الرسول، ليس في أزواجه من هي أقرب نسباً إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقاً منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها، ولدت بمكة قبل الهجرة إلى الحبشة، وماتت في خلافة أخيها معاوية قبل ٤٩ هـ وقيل: سنة ٤٤ هـ أو ٤٢ هـ.

ولما قدم أبوها أبو سفيان المدينة والنبي يريد غزو مكة، فكلمه في أن يزيد في الهدنة فلم يقبل عليه، فقام أبو سفيان فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش النبي طوته دونه، وقالت: هو فراش رسول الله وأنت امرؤ نجس مشرك (١٥٥ــ١٥٩:٢ سير أعلام النبلاء) وأسلم أبو سفيان ومعاوية في فتح مكة سنة ٨ هـ.

النجاشي[1] عن رسول الله أربعمائة دينار، وذلك سنة ست، ودخل بها سنة سبع.

وكانت قبل رسول الله زوجاً لعبيد الله بن جحش الأسدي، الذي توفي بالحبشة مرتداً متنصراً.

٨ ـ جويرية بنت الحارث الخزاعية[2]
توفيت سنة خمسين من الهجرة

كانت في سبايا بني المصطلق من خزاعة، فوقعت في سهم ثابت ابن قيس الأنصاري، فكاتبها علي نفسها، فأتت رسول الله تستعينه في كتابتها، فقال: هل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو؟

قال: أقضي عنك كتابتك وأتزوجك.

قالت: نعم.

فتزوجها ﷺ...

وقيل: بل جاء أبوها فأسلم، ودفعت إليه ابنته فأسلمت، وخطبها الرسول من أبيها، فزوجها إياها، وأصدقها أربعمائة درهم.

وكانت قبل رسول الله زوجاً لابن عم لها اسمه عبد الله، وقيل اسمه: صفوان بن أبي الشعر.

وقيل: بل اشتراها رسول الله من ثابت بن قيس فأعتقها، وتزوجها، وأصدقها أربعمائة درهم.

---

(١) توفي سنة ٩ هـ.

(٢) سبيت يوم غزوة المريسيع في السنة الخامسة، واسمها برة، وكانت من أجمل النبلاء وتزوجها رسول الله وهي بنت عشرين (١٨٧ـ١٨٩/٢ سير أعلام النساء للذهبي).

٩ ــ صفية بنت حيي بن أخطب[١]
سيدة بني النضير

كانت بنت حيي بن أخطب ملك خيبر غير المتوج، وكانت من سبايا خيبر فاصطفاها رسول الله لنفسه وتزوجها.

وكانت قبل رسول الله زوجا لكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وقبله عند سلام بن أبي الحقيق، وكانا من شعراء اليهود.

١٠ ــ ميمونة بنت الحارث الهلالية[٢]

زوج العباس بن عبد المطلب رسول الله إياها، وكانت أخت أم الفضل زوج العباس، وأصدقها عن رسول الله أربعمائة درهم.

وكانت قبل رسول الله زوجاً لأبي رهم بن عبد العزى بن عامر ابن لؤي، ويقال إنها هي التي وهبت نفسها لرسول الله، وميمونة هي خالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس.

---

(١) كانت شريفة عاقلة، ذات حسب وجمال ودين: وتوفيت سنة ست وثلاثين، وقيل: سنة خمسين. وكانت صفية ذات حلم ووقار، وعن عطاء بن يسار قال: لما قدم رسول الله من خيبر ومعه صفية، أنزلها، فسمع بجمالها نساء المسلمين، فجئن ينظرن إليها، وكانت عائشة متنقبة حتى دخلت، فعرفها فلما خرجت خرج فقال كيف رأيت. قالت: رأيت يهودية بين يهوديات فقال: لا تقولي هذا فقد أسلمت وكان سنها سبعة عشر عاماً يوم دخلت على رسول الله، وقبرها بالبقيع وقد أوصت بثلثها لأخ يهودي وكان ثلاثين ألفاً (١٦٤ــ٢:١٦٨ سير).

(٢) تزوجها أولا مسعود بن عمرو الثقفي قبيل الإسلام، ففارقها، وتزوجها أبو رهم بن عبد العزى، فمات، فتزوجها رسول الله سنة سبع في ذي القعدة، وبني بها بسرف، وكانت من سادات النساء، وعن عكرمة أن ميمونة وهبت نفسها للنبي، وكان اسمها برة فسماها رسول الله ميمونة، توفيت بسرف أو قيل: بمكة فحملت إلى سرف، وماتت في خلافة يزيد سنة ٦١ هـ، ولها ثمانون سنة، وقيل سنة ٥١ هـ (٦٩ــ٢/٧٤ سير أعلام النبلاء)، وهي آخر من تزوج بها رسول الله بمكة في عمرة القضاء. ويقول ابن القيم في زاد المعاد ٥٨:١. إنها ماتت في أيام معاوية.

١١ ــ زينب بنت خزيمة الهلالية
وهي أخت أم المؤمنين ميمونة لأمها

كانت تسمى أيضاً أم المساكين لرقتها عليهم زوج رسول الله إياها قبيصة بن عمرو الهلالي، وأصدقها الرسول أربعمائة درهم.

وكانت قبل رسول الله زوجاً لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب[١]، وقبل عبيدة زوجاً لجهم بن عمرو الحارث، وهو ابن عمها[٢].

زوجات في حياة الرسول

وتزوج رسول الله، فيمن تزوج من أمهات المؤمنين، عدة نساء، هن:

١ ــ العالية وهي امرأة من بني بكر بن كلاب، وقيل: من بني غفار وهي بنت ظبيان وتزوجها ابن عم لها فولدت له.

ويروى أنها لما دخلت على رسول الله رأى في كشحها بياضا فأمر لها بالصداق وفارقها[٣].

---

(١) كانت أولا عند الطفيل بن الحارث ثم خلف عليه أخوه الشهيد: عبيدة بن الحارث، وهي أخت أم المؤمنين ميمونة لأمها (٢/١٥٤ سير أعلام النبلاء).

وقيل: كان زوجها هو عبد الله بن جحش، فقتل عنها يوم أحد، فتزوجها رسول الله. ولكن لم تمكث عنده إلا شهرين أو أكثر، وتوفيت رضي الله عنها (المرجع السابق ١:٥٨ زاد المعاد، وانظر الاستيعاب ٤/١٨١).

(٢) اختلف في اسم زوجها الذي استشهد ومات عنها، فعن ابن حجر (الإصابة ٨/٩٤) هو عبد الله بن جحش، وعن الطبري (تاريخ الأمم والملوك الجزء الثاني) هو الطفيل بن الحارث ابن عبد المطلب، وعن ابن هشام (سيرة ابن هشام ٤/٢٩٧) هو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.

(٣) ٢/١٨٠ سير أعلام النبلاء.

٢ ــ أسماء[١] بنت كعب الجونية الكندية: لم يدخل بها النبي ﷺ حتى طلقها، قالت لرسول الله: إني أعوذ بالله منك، فقال لها: لقد عذت بمعاذ، الحقي بأهلك، وتزوجها الرسول سنة ٩ هـ في ربيع الأول وقيل: بل هي أسماء بنت النعمان الغفارية التي دخل بها، فدعاها، فقالت تعالي أنت، فطلقها وخلف على أسماء بنت النعمان المهاجرين أمية لأن رسول الله لم يضرب عليها حجابا ولا سميت بأم المؤمنين بعد.

٣ ــ أم شريك النجارية الأنصارية، واسمها غزية بنت جابر، وقيل هي: أم شريك بنت عوف بن جابر، وقيل: هي غزية بنت دودان. لم يدخل بها وقيل: إنها فيمن وهبت نفسها للنبي[٢].

٤ ــ سناء بنت أسماء بن الصلت السليمة. وقيل: هي سناء بنت سفيان الكلابية، ماتت قبل أن يدخل بها[٣] واختلف على أي حال في اسم الكلابية التي تزوج بها رسول الله، وقيل هي التي استعاذت من رسول الله، وقيل: هي عمرة بنت زيد الكلابية أو بنت حزن.

٥ ــ قتيلة أخت الأشعث بن قيس تزوجها النبي حين قدم عليه وفد كندة سنة عشر فتوفي قبل أن تقدم عليه[٤].

٦ ــ خولة بنت حكيم: أرجأها رسول الله فيمن أرجأ من نسائه[٥].

---

(١) ١٨١ و١٨٤ و٢/١٨٥ المرجع.
(٢) ١٨١ و٢/١٨٢ سير أعلام النبلاء.
(٣) ٢/١٨٢ المرجع.
(٤) سير اعلام النبلاء ١٨:٢
(٥) سير اعلام النبلاء ١٨٦:٢

جملة أزواجه صلوات الله عليه

١ ــ هن إحدى عشرة.

٢ ــ مات قبله منهن اثنتان هما:

(ا) خديجة بنت خويلد.

(ب) زينب بنت خزيمة.

٣ ــ وتوفي عن تسع.

واثنتان لم يدخل بهما:

(ا) أسماء بنت النعمان الكندية.

(ب) عمرة بنت زيد الكلابية.

٤ ــ وسراري رسول الله هن:

(ا) مارية القبطية أم إبراهيم.

(ب) ريحانة بنت زيد[1].

---

(١) ٨ و٩ جـ ٢ سير أعلام النبلاء توفيت بالكوفة عام ٤٠.

ونخرج من جملة ذلك بنتائج كبيرة:

١ ــ قضى الرسول حياته حتى الهجرة (٥٣ سنة) ليس له إلا زوجة واحدة.

٢ ــ أزواج الرسول ما عدا عائشة كن كلهن أرامل ومطلقات.

٣ ــ خمس من أزواجه أرامل مات عنهن أزواجهن المسلمون، وثلاث من خصومه وأعدائه من القبائل العربية أو من اليهود.

هذا بينما كان لسليمان النبي مثلا مئات الأزواج (٣٠٠ امرأة، ٣٠٠ جارية) وكان لداود مائة زوجة (٥٣ الشفاء).

هذا ويروى عن الزهري: تزوج نبي الله اثنتي عشرة عربية محصنات (٢/١٧٩ سير أعلام النبلاء).

وعن قتادة: تزوج رسول الله خمس عشرة امرأة: ستا من قريش، وواحدة من حلفاء قريش، وسبعة من نساء العرب، وواحدة من بني إسرائيل: وقال أبو عبيد. ثبت أن رسول الله تزوج =

(جـ) جارية وهبتها له زينب جحش.
(د) جارية أخرى.

موالي رسول الله

١و٢ ــ زيد بن حارثة وابنه أسامة بن زيد.
٣ ــ ثوبان مولى رسول الله (٥٤ هـ).
٤ ــ شقران الحبشي، وكان لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبي.
٥ ــ رويفع أبو رافع، واسمه أسلم، كان للعباس فوهبه رسول الله فأعتقه وهو من قبط مصر، توفي عام ٤٠ هـ[1].

٦ ــ سلمان الفارسي.
٧ ــ سفينة مولى رسول الله وكان لأم سلمة فأعتقته واشترطت عليه خدمة رسول الله في حياته.

٨ ــ أبو كبشة توفي أول يوم استخلف فيه عمر (١٣ هـ).
٩ ــ أبو مويهبة.
١٠ ــ رباح الأسود.
١١ ــ فضالة مولى رسول الله.
١٢ ــ مدعم مولى رسول الله.
١٣ ــ أبو ضميرة النوبي.

= ثماني عشرة امرأة: سبعاً من قريش، وواحدة من حلفائهم وتسعاً من سائر العرب وواحدة من نساء بني إسرائيل، فأولهن خديجة ثم سودة، ثم عائشة ثم أم سلمة، ثم حفصة، ثم زينب بنت جحش، ثم جويرية، ثم أم حبيبة، فصفية، فميمونة، ففاطمة بنت شريح ثم تزوج زينب بنت خزيمة، ثم هند بنت يزيد، ثم أسماء بنت النعمان ثم قتيلة أخت الأشعث، ثم سناء بنت أسماء السلمية (٢/١٨٠ سير أعلام النبلاء).

(١) سير اعلام النبلاء ٢:٩.

١٤ ــ مهران.

١٥ ــ كركرة.

١٦ ــ سلمي مولاة رسول الله[1].

١٧ ــ عبد أهداه المقوقس له.

١٨ ــ وكان أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، وأبوه هو أبو أسيد مالك بن ربيعة الأنصاري من بني ساعدة وقد توفي عام ٤٠ هـ، وكانت مع أبي أسيد راية بني ساعدة يوم الفتح، وكان أبو أسيد من كبراء الأنصار شهد بدرا والمشاهد كلها وعاش ثمانيا وسبعين عاما وأخوه البراء بن مالك توفي عام ٢٠ هـ[2]

ومن إماء رسول الله ﷺ

ربيحة، ويقال هي ريحانة السرية.

خدم رسول الله ﷺ

١ ــ من الرجال: أنس بن مالك الأنصاري، ربيعة بن كعب صاحب وضوئه ــ أبو مسعود صاحب نعليه ــ عقبة بن عامر يقود بغلته ــ بلال مولي أبي بكر ــ أبو ذر ــ أيمن بن أم أيمن صاحب مطهرته.

٢ ــ ومن النساء: بركة أم أيمن.

كتاب رسول الله

كان عددهم اثنين وأربعين كاتبا، منهم: الخلفاء الأربعة ــ معاوية ــ زيد بن ثابت.

---

(١) الشفاء صفحة ٥٣

(٢) سير اعلام النبلاء ١٤٣:١ ــ مختصر صحيح مسلم للمنذري، فضائل أنس بن مالك ٧٠٢:٢.

أمراء رسول الله

منهم: معاذ بن جبل الأنصاري، ولي مكة للنبي صلوات الله عليه لما خرج إلى حنين — وهبيرة الثقفي، استخلف على مكة للنبي لما خرج إلى الطائف.

وعتاب بن أسيد، ولي مكة للرسول بعد الفتح لما خرج صلوات الله عليه إلى حنين.

حرس رسول الله

كان يحرس رسول الله في بدر سعد بن معاذ، وفي أحد، محمد بن مسلمة وفي غزوة الخندق الزبير، والمغيرة بن شعبة في الحديبية.

وحرسه عباد بن بشر.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿**والله يعصمك من الناس**﴾[1] صرف هؤلاء جميعاً.

وكان قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير[2].

وكان أبو طلحة الأنصاري يشور نفسه بين يدي رسول الله ، أي يعرضها على القتل. لقد كان أبو طلحة يترس على الرسول صيانة له ودفاعا عنه، ثم يرمي دونه ويرمى، وقد فعل مثل هذا في غزوة أحد والرسول مثخن بجراحه، وكان النبي يسوي له النصال ويجمع السهام، ويعطيها له حتى يواصل الرمي بها، وقد جاء في كتاب « النهاية » لابن الأثير: « وكان أبو طلحة يرمي ورسول الله ﷺ يقتر بين يديه » أي يسوي له النصال ويجمع السهام.

(١) سورة المائدة الآية ٦٧.

(٢) راجع ص ٦٥ جـ ١ زاد المعاد لابن القيم.

ويذكر ابن سيد الناس في كتابه « عيون الأثر » شدة بلاء أبي طلحة يوم أحد، وكيف ظل يجاهد ويناضل حتى أجهد اجهادا شديدا فوق طاقته فيقول: « وعن أبي طلحة غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، فجعل سيفي يسقط من يدي، وآخذه، ويسقط، وآخذه، وكان يوم بلاء وتمحيص، أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة، حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ ».

وكانت لأبي طلحة زوجة صالحة مجاهدة، هي أم سليم بنت ملحان وكانت متزوجة قبله والد أنس بن مالك، ويصفها أبو نعيم في « الحلية » بقوله عنها: المستسلمة لحكم المحبوب، الطاعنة بالخناجر في الوقائع، أسلمت قبل زوجها أبي طلحة، ولما تقدم إلى خطبتها قالت له: إني فيك لراغبة، وما مثلك يرد، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، فإن تسلم فذلك مهري، لا أسألك غيره، لا أريد منك صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام فإن أسلمت تزوجتك.

وتلبث أبو طلحة قليلا، ثم انشرح صدره لنور الإسلام وذهب إلى النبي ليعلن إسلامه، فلما رآه الرسول مقبلا قال لصحابته من حوله « جاءكم أبو طلحة وغرة الإسلام بين يديه ».

ونطق أبو طلحة بالشهادتين: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وصار مسلما، فكان الإسلام هو مهر زوجته، وقال بعضهم: « فما بلغنا أن مهرا كان أعظم منه، إنها رضيت بالإسلام مهرا فتزوجها »، وعاشت أم سليم مع زوجها أبي طلحة عيشة طويلة، ولقد جاء في صحيح البخاري عن رجل من الأنصار قال: رأيت لأبي طلحة تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن.

وكانت أم سليم امرأة عاقلة مؤمنة، ويروى أنه كان لها طفل من زوجها أبي طلحة، فمات الطفل وأبو طلحة خارج الدار، فغطته أمه

في جانب من البيت، فلما دخل عليها زوجها ليلا سألها عن الطفل، فقالت: هو أهدأ ما يكون، ثم قدمت إليه طعامه فأكل، ثم تزينت له فواقعها، وعند السحر قالت له:

يا أبا طلحة، ألم تر آل فلان استعاروا عارية فتمتعوا بها، فلما طلبها أهلها منهم شق عليهم ذلك، فقال طلحة: ما أنصفوا. فقالت: فان ابنك كان عارية من الله عز وجل، وإن الله تعالى قد قبضه واسترد عاريته ووديعته!، فاسترجع أبو طلحة وصبر.

ولما ذهب أبو طلحة إلى رسول الله عند الصباح قال له الرسول: يا أبا طلحة، بارك الله لكما في ليلتكما، وحملت أم سليم في ليلتها بعبد الله.

ولقد اشتركت أم سليم مع زوجها في غزوة حنين وكانت تمسك بيمينها خنجرا، وبيسارها بعير زوجها، ويروى أن أبا طلحة حينما رأى الخنجر في يدها قال لها: ما هذا يا أم سليم؟ قالت: خنجر اتخذته، إن دنا مني بعض المشركين بعجته به (أي شققت به بطنه).

فقال أبو طلحة للرسول: يا رسول الله، أما تسمع ما تقول أم سليم، تقول كذا وكذا.

فقال النبي: «يا أم سليم، إن الله عز وجل قد كفى وأحسن».

وعن أنس بن مالك قال: لما كان يوم أحد رأيت عائشة وأم سليم، وإنهما مشمرتان، أرى خدم سوقهما ينقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانها في أفواه القوم، وترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغان في أفواه القوم.

ولقد روى أبو نعيم في «الحلية» أن رسول الله ﷺ: لم يكن يدخل بيتاً بالمدينة غير بيت أم سليم، إلا على أزواجه، ولما قيل له في ذلك قال: إني أرحمها، قتل أخوها معي.

ابناء رسول الله ﷺ

١ ـ القاسم

ابن الرسول ﷺ من خديجة ومات عن سنتين قبل الإسلام..[١].

٢ ـ عبد الله الطيب

ابن رسول الله من خديجة، توفي بمكة.

٣ ـ فاطمة بنت رسول الله

أم الحسن والحسين. وقد تقدمت ترجمتها. وولد لها الحسن في السنة الثالثة من الهجرة في نصف رمضان.

وقد توفيت في الثالث من رمضان عام ١١ هـ بعد وفاة رسول الله بستة أشهر[٢].

---

(١) ١:٢٧٠ العقد الثمين للفاسي وقيل: مات في سن الثالثة (١:٤٩، زاد المعاد).

(٢) في فضائل فاطمة بنت رسول الله راجع صحيح مسلم ٢:١٩٨ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

٤ ـــ زينب بنت رسول الله
توفيت عام ٨ هـ

أمها خديجة.

وهي أكبر أخواتها من المهاجرات السيدات.

تزوجها في حياة أمها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، فولدت له أمامة التي تزوجها علي بعد وفاة فاطمة بنت رسول الله. كما ولدت لأبي العاص كذلك ابنه علي بن أبي العاص، ومات صبياً.

أسلمت زينب وهاجرت قبل إسلام زوجها بخمس سنين[1].

ولما أسر زوجها في بدر افتدته زينب بقلادة لها أهدتها إياها أمها خديجة، فلما رأى رسول الله القلادة عرفها، ورق لها، وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فعلتم؟ قالوا: نعم، فأخذ عليه العهد أن يخلي سبيل زينب لتهاجر إلى أبيها في المدينة، ففعل.

ولما خرج أبو العاص إلى الشام في عير لقريش، ندب رسول الله لهذه القافلة زيدا في سبعين ومائة راكب، فلقوا العير في سنة ست من الهجرة، فأخذوها وأسروا رجالا من حراسها، فسار أبو العاص إلى المدينة، فدخل على زينب سحرا، فأجارته. ثم سألت أباها أن يرد متاعه، ففعل، وأمرها ألا يقربها ما دام مشركا. فرجع إلى مكة فأدى إلى كل ذي حق حقه ثم رجع مسلما مهاجرا في المحرم سنة سبع، فعادت إليه زوجته زينب.

ماتت في حياة الرسول ﷺ عام ٨ هـ، وعاشت نحو ثلاثين سنة وقد ولدت والرسول في سن الحادية والثلاثين، وقيل في الثلاثين.

---

(١) يروى: بست سنين (٣/١٧٦ سير أعلام النبلاء).

ومات أبو العاص في شهر ذي الحجة من عام ١٢ هـ[١].

وصلى رسول الله بأمامة ابنة ابنته زينب، يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها، وإذا قام قام فحملها[٢].

٥ ــ رقية بنت رسول الله
توفيت في السنة الثانية.

أمها خديجة ــ أسلمت مع أمها وأخواتها، تزوجها عتبة بن أبي لهب قبل الهجرة فلما نزل قوله تعالى: ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ (سورة المسد)، قال أبو لهب لابنه: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق بنته، ففارقها قبل الدخول، ثم تزوجها عثمان.

وقد هاجرت مع عثمان إلى الحبشة الهجرتين، وولدت لعثمان: عبد الله، وبه كان يكنى، ومات وهو في السابعة من عمره.

ثم هاجرت إلى المدينة بعد عثمان، ومرضت قبيل بدر فخلف رسول الله عليها زوجها عثمان، فتوفيت والمسلمون ببدر[٣].

وتزوج عثمان أختها أم كلثوم، وهي بكر، في ربيع الأول من سنة ثلاث فلم تلد له.

وكانت رقية أسن أولاد رسول الله.

---

(١) ٢٣٩ــ١/٢٤١و١٧٤ــ٢/١٧٧ سير أعلام النبلاء، ٢/١:١١ ابن سعد، ٤/٢٦٤ أسد الغابة، ١١٨/٧ الاصابة، وسيرة ابن هشام جـ ١ و٣ و٤.

(٢) ٧٥ الشفاء طبعة الحلبي ١٥٩٠.

(٣) ١٧٧ و٢/١٧٨ سير أعلام النبلاء الذهبي، وراجع ١:٢٧١ العقد الثمين الفاسي.

٦ ــ أم كلثوم بنت رسول الله
توفيت في شعبان سنة تسع

تزوجها عتبة بن أبي لهب، ثم فارقها.
أسلمت وهاجرت بعد النبي.

فلما توفيت أختها رقية، تزوج بها عثمان بن عفان، وكانت بكراً، وذلك في ربيع الأول سنة ثلاث. فلم تلد له. وعن النبي ﷺ: لو كن عشرا لزوجتهن عثمان.

ولما ماتت ذرف رسول الله على قبرها الدموع(1).

٧ ــ إبراهيم ابن رسول الله

عن أنس بن مالك قال:

كان إبراهيم بن رسول الله مسترضعا له في عوالي المدينة، فكان رسول الله ينطلق ونحن معه فيدخل البيت، وإنه ــ البيت ــ ليدخن، وكان ظئره فينا، فيأخذه فيقبله، ثم يرجع.

وأم إبراهيم هي أم المؤمنين مارية القبطية أهداها المقوقس إلى رسول الله، فأحسن إليها إذ بنى بها، وأنجبت له إبراهيم.

ولما توفي إبراهيم حزن عليه الرسول، وقال فيه: تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون، وإنا لله وإنا إليه راجعون(2).

وكان ميلاد إبراهيم في السنة الثامنة من الهجرة في ذي الحجة، وتوفي عن سبعين يوماً؛ وقيل غير ذلك(3).

---

(١) ٢/١٧٩ سير أعلام النبلاء.

(٢) راجع ١:٩٥ زاد المعاد لابن القيم.

(٣) ١:٢٧١ العقد الثمين الفاسي.

ولما ولد إبراهيم بشر به أبو رافع[1] فوهب له رسول الله عبداً.

وفي ٢:‏١٧٨ و١٧٩ مختصر صحيح مسلم للمنذري: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: ما رأيت أحداً كان أرحم الناس بالعيال من رسول الله ﷺ.

كان إبراهيم مسترضعا له في عوالي المدينة، فكان ﷺ ينطلق ونجن معه، فيدخل البيت وإنه ليدخن وكان ظئره — زوج مرضعته — فينا، فيأخذه ثم يرجع.

فلما توفي إبراهيم قال رسول الله: إن إبراهيم ابني، وإنه مات في الثدي وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة... وكسفت الشمس والقمر العاشرة الهجرية عند وفاة إبراهيم وورد في الحديث (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته)، وقد كان هذا الكسوف في ٢٩ شوال سنة ١٠ هـ الموافق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢ م.

وأم إبراهيم عليه السلام هي مارية القبطية التي أهداها المقوقس لرسول الله ﷺ ويقال: إنها من حفن من أعمال (أنصنا) المندرسة وهي بصعيد مصر على ضفة النيل الشرقية تجاه الأشمونين، وهي في الحقيقة مدينة « أنطينوه » التي أسسها الامبراطور الروماني أوريان (١١٧ ١٢٨ م)، وقد سماها الأقباط « أنصلة » وعربها العرب فصارت « أنصنا »[2].

---

(١) ١:‏٤٩ و٥٠ زاد المعاد.

(٢) راجع مقالا كتبه إبراهيم محمد الفحام: مجلة منبر الاسلام عدد جمادى الأولى ١٣٨٩ هـ ص ١٦٢ بعنوان « مارية القبطية في موطنها في مصر ».

أعمام رسول الله

حمزة ــ أبو طالب واسمه عبد مناف ــ أبو لهب وأسمه عبد العزى كني بأبي لهب لجماله ــ العباس وهو أصغر أعمامه ــ الحارث وهو أسن أعمامه ــ المقوم ويجعل بعض العلماء الحارث والمقوم شخصاً واحداً ــ الزبير ــ عبد الكعبة[1] ضرار ــ قثم ــ المغيرة (حجل) ــ الغيداق[2] (مصعب أو نوفل).

هذه هي رواية ابن القيم في زاد المعاد، وجملة أعمامه صلوات الله عليه عشرة، وفي أسمائهم بعض الخلاف.

عمات رسول الله

السيدة صفية بنت عبد المطلب
توفيت سنة عشرين

شقيقة حمزة وأم الزبير بن العوام.

تزوجها الحارث، أخو أبي سفيان بن حرب، فتوفي عنها.

قيل: وما أسلم من عمات النبي سواها.

---

(١) يقال: هو والمقوم واحد.

(٢) يقال: هو المغيرة واحد.

وهي من المهاجرات الأول.
وجدت على مصرع أخيها حمزة، وصبرت واحتسبت.
ودفنت بالبقيع.
ولما نزلت الآية الكريمة: ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[1] قام النبي ﷺ فقال:

يا فاطمة بنت محمد.
يا صفية بنت عبد المطلب.
يا بني عبد المطلب.
لا أملك لكم من الله شيئاً.
سلوني من مالي ما شئتم[2].

ومن شعرها في رثاء الرسول[3]:

عين جـودي بدمعـة وشهـود ... واندبـي خيـر هـالك مفقـود
واندبي المصطفى بحزن شديـد ... خالـط القـلب فهـو كالمعمـود
كدت أقضـي الحياة لمـا أتـاه ... قـدر خـط فـي كتـاب مجيـد
فلقـد كـان بالعبـاد رؤوفـا ... ولهـم رحمـة وخيـر رشيـد
رضـي الله عنـه حيـاً وميتـاً ... وجـزاه الجنـان يـوم الخلـود

أروى عمة رسول الله[4]

تزوجها عمير بن وهب.
ولدت له: طليبا.

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.
(٢) ١٩٣ و١٩٤:٢ سير أعلام النبلاء.
(٣) ١٩٤:٢ المرجع.
(٤) ١٩٥:٢ ــ سير أعلام النبلاء ــ الطبقات ٢٨:٨، الاصابة ٢٢٢:٤ الاستيعاب ٢١٩:٤، أسد الغابة ٣٩١:٥.

ثم خلف عليها أرطاة.
فولدت له: فاطمة.
ثم أسلمت أروى وهاجرت.
وأسلم ولدها طليب في دار الأرقم.
ولم يسمع لها بذكر بعد.

عاتكة عمة رسول الله(١)

بنت عبد المطلب
أسلمت وهاجرت.
وهي صاحبة الرؤيا في هلاك أهل بدر، وتلك الرؤيا ثبطت أخاها أبا لهب عن شهود بدر.

ولم يسمع لها بذكر بعد ذلك.
وكانت عاتكة زوجة أبي أمية المخزومي، ولها منه أولاد منهم: عبدالله.

عمات أخر لرسول الله(٢)

١ ــ البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب، وهي والدة عثمان بن عفان ما أدركت البعثة.

٢ ــ برة بنت عبد المطلب والدة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ــ تزوجها عبد الأسد، ثم أبو رهم بن عبد العزى، لم تدرك البعثة.

٣ ــ أميمة عمة رسول الله، والدة أم المؤمنين زينب بنت جحش الأسدي حليف قريش أسلمت وهاجرت ــ وقيل إنها أميمة بنت ربيعة،

---

(١) ٢/١٩٥ سير أعلام النبلاء، ١٢٩/٨ الطبقات، ٣٤٧/٤ الإصابة، ٢٥٧/٤ الاستيعاب. ٤٩٩/٥ أسد الغابة، ٢٥٨/٢ــ٢٦١ سيرة ابن هشام.
(٢) ١٩٦ و٢/١٩٧ سير أعلام النبلاء.

أو ابنة عم رسول الله الحارث بن عبد المطلب، والظاهر أن أميمة الكبرى، العمة، ما هاجرت ولا أدركت الإسلام.

نساء من آل الرسول[1]

١ ــ ضباعة: بنت عم الرسول الزبير بن عبد المطلب، كانت زوجة للمقداد بن الأسود، وقتل ولدها عبد الله بن المقداد يوم الجمل، وعاشت إلى عام ٤٠ هـ.

٢ ــ درة، بنت أبي لهب بن عبد المطلب عم الرسول، من المهاجرات تزوج بها دحية الكلبي.

٣ ــ أم هانئ بنت عم رسول الله أبي طالب بن عبد المطلب، أخت علي وجعفر ــ كانت زوجة هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومي، فهرب يوم الفتح إلى نجران ــ أسلمت يوم الفتح، ولم يذكر أحد أن زوجها أسلم[2].

٤ ــ أم الفضل بنت الحارث الهلالية زوجة العباس عم الرسول، وأخت أم المؤمنين ميمونة وخالة خالد بن الوليد، وأختها لأمها أسماء بنت عميس من المهاجرات الأول ماتت بعد عام ٤ هـ[3]. وتوفيت أم الفضل في خلافة عثمان[4].

٥ ــ أم عثمان بن أبي العاص وقد شهدت مولد النبي ﷺ[5].

---

(١) ١٩٨ و٢/١٩٩ المرجع نفسه.

(٢) ٢٢٧ و٢/٢٢٨ سير أعلام النبلاء.

(٣) ٢٠٤ـ٢/٢٠٧ المرجع.

(٤) ٢٢٨ و٢/٢٢٩ المرجع.

(٥) ٢/٢٦٩ المرجع.

من أبناء اعمام الرسول

نوفل ابن عم رسول الله

توفي عام ٢٠ هـ[1]

أبو سفيان بن عم رسول الله

هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله، وأخوه من الرضاعة، أرضعتهما حليمة، وكان أحد الذين يشبهون رسول الله، وهم جعفر بن أبي طالب، وقثم بن العباس، والحسن بن علي، وأبو سفيان بن الحارث[2]

عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله

هو عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، قتل في موقعة أجنادين عام ١٣ هـ[3].

إخوة رسول الله من الرضاع

١ ــ حمزة عم الرسول قتل عام ٢ هـ في أحد.
٢ ــ أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. ابن عم الرسول.
٣ ــ عبد الله بن الحارث بن حليمة السعدية.

---

(١) ١٤٤:١ سير اعلام النبلاء.
(٢) ٢٤٨:١ سير اعلام النبلاء.
(٣) ٢٢٨:١ سير اعلام النبلاء.

٤ ــ أنيسة بنت الحارث.
٥ ــ الشيماء بنت الحارث.
٦ ــ مسروح بن ثوبية مولاة أبي لهب.

زيد بن حارثة

كان مولى لخديجة، وهبته لرسول الله بعد زواجها منه ﷺ.

قدم أبوه وعمه إلى مكة في فدائه فسألا عن رسول الله، فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا:

يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه.
أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الأسير.
جئناك في ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه.

قال: ومن هو؟

قالا: زيد بن حارثة.

فقال رسول الله: فهلا غير ذلك؟

قالا: وما هو؟

قال: أدعوه، فأخيره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار علي من اختارني أحدا.

قالا: قد رددتنا على النصف، وأحسنت.

فدعا صلوات الله عليه زيدا، فقال: تعرف هؤلاء؟

قال نعم، هذا أبي، وهذا عمي.

قال: فأنا من قد علمت ورأيت وعرفت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما.

قال: ما أنا بالذي اختار عليك أحدا أبدا، أنت مني مكان الأب والعم.

فقالا: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وعلى أهل بيتك؟

قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً.

فلما رأى رسول الله ذلك أخرجه إلى الحجر، فقال: أشهد أن زيدا ابني يرثني وأرثه، ودعي زيد بن محمد.

فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفساهما، فانصرفا.

ولما نزلت الآية الكريمة ﴿**ادعوهم لآبائهم**﴾[1]، دعي من يومئذ زيد ابن حارثة، وهو الذي سماه القرآن الكريم باسمه: ﴿**فلما قضي زيد منها وطراً زوجناكها**﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٧.

أعلام في حياة رسول الله

١ ــ السيدة أم أيمن حاضنة رسول الله

هي حبشية، اسمها بركة.

مولاة رسول الله وحاضنته.

ورثها من أبيه ثم أعتقها عندما تزوج خديجة.

تزوجها عبيد بن الحارث الخزرجي، فولدت له أيمن، وقد استشهد أيمن يوم حنين، وترك ولداً اسمه الحجاج بن أيمن، وآخر اسمه عبد الواحد.

ثم تزوجها زيد بن حارثة ليالي بعث النبي فولدت له أسامة حب رسول الله.

وكان رسول الله يقول لها يا أمة، ويقول: هذه بقية أهل بيتي. وكان أم أيمن تلطف بالنبي وتقوم عليه وتخدمه، وماتت في خلافة عثمان.

وقالت حين استشهد عمر: اليوم وهى الإسلام(١).

وكانت أم أيمن حاضنة رسول الله وتزوجها زيد بن حارثة بعد

---

١٥١ ــ ١٦١ /٢ سير أعلام النبلاء.

طلاقه زينب بنت جحش عام خمس من الهجرة، وابنه أسامة منها، وكان رسول الله ﷺ يقول في أسامة: من كان يحب الله ورسوله فليحب أسامة، وقال فيه كذلك أحب الناس إلى أسامة، ما حاشا فاطمة ولا غيرها ــ وراجع فضائل أم أيمن مولاة النبي في مسلم ٢٠٦:٢ مختصر مسلم للمنذري.

وكانت أم أيمن تخدم رسول الله، كما في الشفاء للقاضي عياض ــ ص ٤١.

ويقول الفاسي في العقد الثمين (٢٢٢:١): كانت أم أيمن داية رسول الله وحاضنته بعد موت أمه.

٢ ــ بريرة مولاة أم المؤمنين عائشة

كان زوجها يسمى مغيب بن جحش (٢١٥ــ٢/٢٢١ سير أعلام النبلاء).

٣ ــ أم سليم والدة خادم النبي أنس بن مالك[1]

هي من الخزرج زوجها مالك بن النضر توفي عنها، فتزوجها أبو طلحة[2] زيد الأنصاري، شهدت أحدا وحنينا، ولم يكن رسول الله يدخل بيتاً غير بيتها راجع ٢٠٥:٢ مختصر صحيح مسلم للمنذري وفيه: إني أرحمها قتل أخوها معي.

---

(١) ٢٢١ــ٢/٢٢٦ المرجع.

(٢) توفي عام ٣٤ هـ ــ ويقول أنس بن مالك: خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي أف قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟ ــ ٧٠ و٧١ الشفاء.

٤ ــ أبو اليسر

صاحب رسول الله ﷺ[١].

٥ ــ تميم الداري

صاحب رسول الله توفي عام ٤٠ هـ[٢].

٦ ــ ثويبة

هي مولاة أبي لهب ــ أرضعت رسول الله ﷺ: بلبانها وهو لبان ابنها « مسروح »[٣].

(١) ١٦٧:٢ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

(٢) ٣١٦:٢ــ٣٢٠ سير أعلام النبلاء.

(٣) ١٢٢:١ العقد الثمين لتقي الدين الفاسي.

حوادث دبرت لاغتيال رسول الله
اليهود وتدبير المؤامرات لاغتيال الرسول

١ ــ حاول اليهود قتل رسول الله لما خرج إلى بني النضير، يستعينهم في دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، فقال بعضهم لبعض: لن تجدوا محمد أقرب منه الآن. فمن يظهر على هذا البيت فيرميه بصخرة فيريحنا منه؟.

فقال رجل منهم: أنا.

فنزل الوحي على رسول الله بالأمر، فانصرف عنهم، ونزل قول الله عز وجل: ﴿**يا أيها الذين آمنوا، اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم**﴾[1].

ويروي أنه: عمرو بن جحاش، وأنه انبعث ليطرح عليه رحى، فقام النبي وانصرف إلى المدينة، وأعلمهم بقصتهم[2].

ويروى أن حيي بن أخطب قال لرسول الله: اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا، فجلس الرسول مع أبي بكر وعمر،

---

(١) سورة المائدة ١١

(٢) ٢٣٢ الشفاء.

وتآمر حيي معهم على قتله، فأعلم جبريل رسول الله بذلك، فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة[1].

٢ ـــ وقصة اليهودية التي وضعت السم في شاة مشوية قدمتها لرسول الله فأكل منها، وأكل معه بشر بن البراء، معروفة فأما بشر فاستمر يأكل ويستسيغ ما أكل فمات. وأما الرسول الأعظم فلفظ ما أكل فمرض، واستمر يعاوده المرض، حتى ليروى أنه مات بسبب ذلك.

وقد اعترفت اليهودية بجريمتها، فعفا عنها، فلما مات بشر اقتص رسول الله منها.

وقد سبق تفصيل ذلك ـــ في حديث مسلم (٢:١٧١) أن رسول الله لم يأمر بقتلها، وأن أثر السم ما زال يعرف في لهوات رسول الله.

وعن أبي هريرة أن يهودية أهدت لرسول الله ﷺ بخيبر شاة مصلية سمتها، فأكل رسول الله منها، وأكل القوم، فقال: ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة، فمات بشر بن البراء، وقال لليهودية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك، فأمر بها فقتلت[2].

وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله قال في وجعه الذي مات فيه: ما زالت أكلة خيبر تعاودني فالآن أوان قطعت أبهري، وحكى ابن اسحاق أن كان المسلمون ليرون أن رسول الله مات شهيداً مع ما أكرمه الله به من النبوة[2].

وفي رواية ابن عباس أن رسول الله دفعها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها[2].

---

(١) ٢٣٢ الشفاء

(٢) ٢٠٩ الشفاء، وراجع في ذلك حديث مسلم (٢:١٧١ مختصر صحيح مسلم).

وهذه اليهودية هي زينب بنت الحارث ابنة أخي مرحب وامرأة سَلام ابن مشكم[١].

وقد لفظ رسول الله ما أكل، واحتجم بعد الأكل من الشاة المسمومة وأمر من أكل معه منها فاحتجم، فمات بعضهم[٢].

وقيل: أسلمت المرأة فتركها وعفاها، والناس يقولون: بل قتلها رسول الله[٢]، وعن أبي هريرة: لما مات بشر بن البراء بن معرور بعد أكله من الشاة قتلها رسول الله[٢].

٣ ـــ عمير بن وهب وصفوان بن أمية:

وكذلك حاول عمير بن وهب قتل رسول الله بعد بدر بتحريض من صفوان بن أمية.. ولم تنجح المحاولة كما سبق أن ذكرناه.

وقال أنس:

هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح، ليقيلوا رسول الله، فأخذوا، فأعتقهم رسول الله وعفا عنهم[٣].

٤ ـــ وحاول غورث بن الحارث الفتك برسول الله. والرسول منتبذ تحت شجرة وحده قائلا[٤]، والناس قائلون في غزاة[٥]، فلم ينتبه رسول الله إلا وهو قائم والسيف في يده، فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله، فسقط السيف من يده، فأخذه النبي، وقال: من يمنعك مني، قال: كن خير آخذ.

---

(١) ٣٣٩:٢ زاد المعاد.

(٢) ٣٤٠:٢ المرجع.

(٣) ٦٤ الشفاء للقاضي عياض ـــ طبعة مصطفى الحلبي ـــ القاهرة.

(٤) من القيلولة: وهي النوم عند الظهر وحرارة الشمس.

(٥) أي غزوة.

فعفا عنه رسول الله[1]، فرجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس[2].

ويروى أن الأعرابي لما سقط سيفه ضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه فنزل الآية: ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾[3].

وقد حكيت مثل هذه الحكاية التي جرت له يوم بدر. وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته فتبعه رجل من المنافقين وذكر مثله[4].

وروي أنه وقع له مثلها في غزوة غطفان بذي أمر، مع رجل اسمه دعثور بن الحارث، وأن الرجل أسلم، فلما رجع إلى قومه الذين أغروه وكان سيدهم وأشجعهم قالوا له: أين ما كنت تقول وقد أمسكتك؟ فقال: إني نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع في صدري فوقعت لظهري وسقط السيف فعرفت أنه ملك وأسلمت[5].

٥ ــ ولما نزلت سورة ﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾ وفيها ذكر امرأته « حمالة الحطب »، أتت رسول الله وهو جالس في المسجد، ومعه أبو بكر، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما ــ تريد ضرب رسول الله به ــ لم تر إلا أبا بكر، وأخذ الله تعالى ببصرها عن نبيه ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه[6].

---

(١) ٦٢ الشفاء.

(٢) ٢٢٨ المرجع.

(٣) ٢٦٩ المرجع. والآية من سورة المائدة رقم ٦٧

(٤) راجع في ذلك حديث مسلم ٨٧١:٢ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

(٥) ٢٦٩ المرجع.

(٦) ٢٢٩ و٢٣٠ الشفاء.

٦ ـــ محاولة عند الكعبة:

عن فضالة بن عمرو قال:

أردت قتل النبي عام الفتح وهو يطوف، بالبيت، فلما دنوت منه، قال: أفضالة؟ قال: نعم.

قال رسول الله: ما كنت تحدث به نفسك؟

قلت: لا شيء.

فضحك واستغفر لي، ووضع يده على صدري، فسكن قلبي، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه(١).

٧ ـــ وسحر لبيد بن الأعصم رسول الله فبطل سحره، وعفا عنه رسول الله(٢).

وقيل: اختلف في قتل الذي سحره، قال الواقدي: وعفوه عنه أثبت عندنا، وقد روي عنه أنه قتله(٣).

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: سحر رسول الله يهودي من بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله(٤).

٨ ـــ وعن الحكم بن أبي العاص قال:

تواعدنا على قتل النبي ﷺ، فلما رأيناه سمعنا صوتاً خلفنا ما ظننا أنه بقي بتهامة أحد، فوقعنا مغشياً علينا، فما أفقنا حتى قضى صلاته، ورجع إلى أهله.

---

(١) ٢٣٣ الشفاء.

(٢) ٦٢ الشفاء.

(٣) ٢١٠ المرجع.

(٤) ١٤٠:٢ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى إذا رأيناه جاء الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه(١).

٩ — وعن عمر رضي الله عنه قال:
تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول الله ﷺ، فجئنا منزله، فسمعنا له، فافتتح، وقرأ ﴿**الحاقة ما الحاقة**﴾ إلى قوله: **فهل ترى لهم من باقية؟**﴾(٢).

فضرب أبو جهم على عضد عمر، وقال: انج، وفرا هاربين.
فكانت من مقدمات عمر(٣).

١٠ — ومؤامرة قريش(٤) الكبرى لقتل رسول الله، وهي مؤامرة ليلة الهجرة، مشهورة مذكورة عند جميع المؤرخين.

وحين طافوا بغار ثور، قالوا: ندخله، فقال لهم أمية بن خلف: ما أرابكم فيه، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى إلا أنه قبل أن يولد محمد(٥).

---

(١) ٢٣٠ الشفاء.

(٢) الآيات ١ — ٨ من سورة الحاقة.

(٣) ٢٣٠ الشفاء.

(٤) لا شك أن بيت عبد شمس كان له دور كبير في ذلك، ومن قديم كان يعادي البيت الهاشمي، يروى أنه أصاب قريشاً أزمة فخرج هاشم بن عبد مناف بالإبل تحمل الغرائر من الكعك — الخبز اليابس — وجمع ذلك في الجفان وطبخ لحوم الإبل فصبها عليها، فكان أول خصبهم، فخرج أمية بن عبد شمس يتكلف بعض ذلك فعجز، فنافر هاشماً فأبى هاشم المنافرة لفضله وسنه حتى زمرته قريش — حضته — فأبى إلا على أن ينفي المنفر من الحرم عشر سنين فنافره على ذلك (١٩٣ الجمان في تشبيهات القرآن لابن نافيا البغدادي) (٤١٠—٤٨٥ هـ).

(٥) ٢٣٠ الشفاء.

١١ ــ وتبع رسول الله بعد الهجرة في طريقه إلى المدينة سراقة ابن مالك بن جعشم، وقد جعلت قريش فيه وفي أبي بكر الجعائل، فأنذر به، فركب فرسه، واتبعه، حتى إذا قرب منه دعا عليه النبي ﷺ، فساخت قوائم فرسه، فخر عنها، واستقسم بالأزلام، فخرج له ما يكره، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر رضي الله عنه يلتفت، وقال للنبي: أتينا، فقال: لا تحزن إن الله معنا، فساخت ثانية إلى ركبتها وخر عنها، فزجرها فنهضت، ولقوائمها مثل الدخان فناداهم بالأمان.

فكتب له النبي ﷺ أماناً، كتبه ابن فهيرة، وقيل: أبو بكر، وأخبرهم بالأخبار وأمره النبي ألا يترك أحداً يلحق بهم، فانصرف يقول للناس: كفيتم ما ههنا[١].

وقال رسول الله لسراقة: كيف بك: إذا لبست سواري كسرى، فلما أتى بهما عمر ألبسهما إياه، وقال: الحمد لله الذي سلبهما كسرى وألبسهما سراقة[٢].

وفي خبر آخر أن راعياً عرف رسول الله وأبا بكر فخرج يشتد يعلم قريشاً، فلما ورد مكة ضرب على قلبه، فما يدري ما يصنع، وأنسي ما خرج له حتى رجع إلى موضعه[٣].

١٢ ــ وجاء أبو جهل بصخرة ورسول الله ساجد، وقريش ينظرون ليطرحها عليه، فلزقت بيده ويبست يداه إلى عنقه، وأقبل يرجع القهقرى

---

(١) ٢٣٠ و٢٣١ الشفاء.
(٢) ٢٢٦ المرجع.
(٣) ٢٣١ المرجع.

إلى خلفه، ثم سأله أن يدعو له ففعل، فانطلقت يداه، وكان قد تواعد مع قريش بذلك، وحلف لئن رآه ليدمغنه، فسألوه عن شأنه، فذكر أنه عرض لي دونه فحل ما رأيت مثله قط هم بي أن يأكلني، فقال النبي ﷺ: ذاك جبريل، لو دنا لأخذه[1].

وهذه الحادثة تروى برواية مقاربة أخرى[2].

١٣ ــ وروي أن رجلا من بني المغيرة أتى النبي ﷺ ليقتله، فطمس الله على بصره، فلم ير النبي ﷺ، وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه، فلم يرهم حتى نادوه[3].

١٤ ــ ويروى أن شيبة بن عثمان الحجبي أدرك رسول الله يوم حنين، وكان حمزة قد قتل أباه وعمه، فقال: اليوم أدرك ثأري من محمد، فلما اختلط الناس أتاه من خلفه، ورفع سيفه ليصبه عليه.

قال شيبة: فلما دنوت منه ارتفع إليّ شواظ من نار أسرع من البرق، فوليت هارباً، وأحس بي النبي، فدعاني، فوضع يده على صدري، وهو أبغض الخلق إلي، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إلي، وقال لي: أدن، فقاتل، فتقدمت أمامه، أضرب بسيفي، وأقيه بنفسي، ولو لقيت أبي تلك الساعة لأوقعت به دونه[4].

١٥ ــ وخبر عامر بن الطفيل وأربد بن قيس حين وفدا على النبي ﷺ مشهور.

---

(١) ٢٣١ المرجع.

(٢) ٢٣٢ المرجع.

(٣) ٢٣١ الشفاء.

(٤) ٢٣٢ و٢٣٣ الشفاء.

وكان عامر قال لأربد: أنا أشغل عنك وجه محمد فاضربه أنت.

فلم يره فعل شيئاً، فلما كلمه في ذلك قال له: والله ما هممت أن أضربه، أضربه إلا وجدتك بيني وبينه، أفأضربك؟[1].

١٦ ـــ وقد سبق ذكر ما كان قد هم به عمر بن الخطاب قبيل إسلامه من الفتك برسول الله صلوات الله عليه وسلم.

١٧ ـــ كما سبق أن ذكرنا ما عزم عليه جماعة من المنافقين من الفتك برسول الله صلوات الله عليه وهو في طريقه من تبوك إلى المدينة المنورة، ولكن الله عز وجل نجاه من شرهم.

وقد أخبر رسول الله بقصة هؤلاء المنافقين، الذين تآمروا عليه بعد عودته من تبوك وسمى رسول الله بعضهم، نذكر منهم: عبد الله بن أبي، وسعد بن أبي سرح، وأبا خاطر الأعرابي، وعامراً أو أبا عامر، والجلاس بن سويد بن الصامت وهو الذي قال: لا ننتهي حتى نرى محمداً من العقبة الليلة، ومجمع بن حارثة، ومليحا التيمي وهو الذي سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام وانطلق محارباً في الأرض، فلا يدري أين ذهب، وحصن بن نمير، وطعيمة بن أبيرق، وعبد الله بن عيينة وهو الذي قال لأصحابه: « اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلوا هذا الرجل »، فدعاه رسول الله فقال، ويحك ما كان ينفعك من قتلي لو أني قتلت! فقال: والله يا رسول الله لا نزال بخير ما أعطاك الله النصر على عدوك، إنما نحن بالله وبك، فتركه رسول الله، ومنهم: مرة بن الربيع، وهو الذي قال: نقتل الواحد الفرد، فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين، فدعاه رسول الله فقال: ويحك ما حملك على أن تقول الذي قلت؟ فقال: يا رسول الله إن كنت قلت شيئاً من ذلك إنك لعالم به، وما قلت شيئاً من ذلك.

---

(١) راجع ٢٣٣ الشفاء.

فجمعهم رسول الله وهم إثنا عشر رجلا. ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿**وهموا بما لم ينالوا**﴾[1] وماتوا وهم منافقون.

وكان أبو عامر رأسهم، وله بنوا مسجد الضرار، وهو الذي كان يقال له الراهب، فسماه رسول الله: الفاسق، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، فانهارت بهم تلك العقبة في نار جهنم[2].

ويلاحظ ابن القيم أن عبد الله بن أبي كان قد تخلف عن تبوك، وأن ابن أبي سرح لم يعرف له إسلام قط، وابنه عبد الله أسلم عام الفتح ولم يكن مع هؤلاء الاثني عشر. وأن أبا عامر كان قد خرج من المدينة بعد هجرة رسول الله إليها ببضعة عشر رجلا، فلما فتح رسول الله مكة خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف خرج إلى الشام فمات بها طريداً.

ولعل منهم ثعلبة بن حاطب[3].

كان أبو عامر قال لأصحابه: ابنوا مسجدكم ــ الضرار ــ واستمدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه.

فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: إنا قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة، فأنزل الله تعالى فيه قوله عز وجل: ﴿ **لا تقم فيه أبداً** ﴾[4].

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٤.

(٢) ٣:١٧ و١٨ زاد المعاد.

(٣) ٣:١٩ زاد المعاد.

(٤) ٣:١٩ زاد المعاد. والآية من سورة التوبة رقم ١٠٨.

ملك غسان يكيد للاسلام

نحن نعلم قصة كعب بن مالك الذي تخلف عن غزوة تبوك، وكان كعب من شعراء الإسلام.

ولما جاء رسول الله من تبوك بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس الناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعاً وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، ويقول كعب: جئت، فلما سلمت تبسم الرسول تبسم المغضب، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد اتبعت ظهرك؟ قال كعب: والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

قال رسول الله: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، فقمت ولقيه رجلان قالا مثل ما قال: مرارة بن ربيعة العامري وهلال بن أمية.

ونهى رسول الله المسلمين عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم، قال كعب: حتى تنكرت لي في الأرض فما هي بالأرض التي أعرف. حتى إذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب

الناس إلي فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

وقال كعب: فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، فإذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، ويقول: من يدل على كعب ابن مالك، فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فقرأته، فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أنه صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، فقال كعب حين قرأ هذه الرسالة: وهذا أيضا من البلاء فتياممت التنور فسجرتها بها[1].

---

(١) راجع ٢ ٢٦٦ـ٢٨٦ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

إمارة الغسّانيين
وموقفها من الدولة الاسلامية في عهد رسول الله ﷺ

— ١ —

موضوع جديد من موضوعات السيرة النبوية، لم يقدم أحد بحثا عنه من قبل، ولم يدرسه الدارسون القدامى ولا المحدثون، مع صلته الوثيقة بالسيرة النبوية الشريفة.. وكنت قد كتبت من قبل عن موضوع جديد آخر من موضوعات السيرة النبوية، لم يدرسه أحد من قبل، وهو « مؤاخاة رسول الله ﷺ بين المسلمين الأولين في مكة ».. ولا شك أن هناك جوانب كثيرة في السيرة النبوية الشريفة لم تبحث من قبل، وهي جديرة بالتسجيل والدراسة والبحث العلمي.

وإمارة الغساسنة بالشام إمارة عربية صغيرة، قامت على حدود الجزيرة العربية من ناحية الشمال الشرقي، فاصلة بين عرب الجزيرة وبلاد الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية). وكان موقعها فريدا، ومن أجل ذلك فَرضت عليها الامبراطورية الرومانية حمايتها، وأيّدتها بنفوذها ومساعداتها، لتقوم بمهمة حماية حدودها من هجمات القبائل العربية من ناحية، ولتكون فاصلا بينها وبين مملكة كسرى من ناحية ثانية،

ولتظل قوة ضاربة تساعد الدولة ضد أعدائها من الفرس والمناذرة ملوك الحيرة من ناحية أخيرة..

ومن أجل ذلك تعهد الروم بأن يُمدّوا الغسانيين بأربعين ألف جندي من جند الروم عند وقوع اعتداء عليهم، وتعهدت غسان بأن تمد الروم بعشرين ألف محارب إذا تعرضت بلاد الروم لعدوان فارسي عليها..

وأصل الغسانيين من عرب أزد اليمن، أقاموا مدة في تهامة، حيث نزلوا فيها على ماء يسمى (غسان)، فعرفوا بأزد غسان؛ ثم هاجروا إلى الشمال ونزلوا على أطراف الجزيرة العربية الشمالية الشرقية؛ وأثبتوا صلابة وبسالة في الحروب، مما جعلهم موضع إعجاب الروم، ومن أجل ذلك آثروهم على القبائل العربية الأخرى، واتخذهم قيصر الروم عمّالاً له، وبذلك صارت لهم الرياسة على القبائل العربية الأخرى في هذه المنطقة، وعقدوا معهم المحالفة العسكرية السالفة الذكر..

ولم تكن عاصمة الغسانيين واحدة؛ ففي مبدأ دولتهم كانت عاصمتهم معسكرا متحركا، ثم اتخذوا لهم فيما بعد عاصمة في (الجابية)؛ ويذكر بعض المؤرخين أن عاصمتهم كانت دمشق، أو جِلّق القريبة منها؛ ويذكر آخرون: البلقاء، وتدمر، وصفين؛ على اختلاف بينهم.. ومما لا ريب فيه أنهم أقاموا في جلّق مدة غير قصيرة. وتقع جلّق إلى الجنوب الغربي من دمشق، وإلى الشمال من نهر اليرموك..

والملوك الغسانيون جَدهم جفنة، فهو جَد أسرة الغساسنة؛ ويقول حسان بن ثابت الشاعرُ الإسلاميُّ الخالد في مدحهم، وكان في الجاهلية يقصدهم مادحا:

أولادُ (جفنةَ) حوْل قبرِ أبيهمـو ... قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المفْضِلِ

ولغة الغسانيين هي العربية، وقد اتخذوا لغة الشام الآرامية لغة ثانية لهم. وكانوا بحكم مجاورتهم للروم يعرفون اللغة الرومية..

ويرى حمزة الأصفهانيّ أن الغسّانيين حكموا الشام ستة قرون، وتولى عرشَ الإمارة منهم اثنان وثلاثون ملكا. أما ابن قتيبة فيرى أن ملوك هذه الإمارة بلغوا أحد عشر ملكا. ويجعل المسعوديُّ عددَهم عشرةً، والجرجانيُّ يذكر أن عددهم تسعة أما المستشرق (نولدكه) الحُجَّة في تاريخ الغسانيين فيرجح أن عددهم عشرة وأنهم حكموا مدة قرن وبعض القرن من الزمان.

ومن أشهر الملوك الغسانيين:

١ ــ الحارث الثاني ابن جبلة (٥٢٩ ــ ٥٦٩ م).

وقد عاصر جوستنيان قيصر الروم، وكسرى انو شروان ملك فارس (٥٣١ــ٥٧٩ م)، والمنذر الثالث ملك الحيرة (٥٥٤ــ٥٦٩ م)؛ ومنحه القيصر البيزنطي رتبة ملك، وهي ثاني رتبة في الدولة البيزنطية، وكان الامبراطور يقصد من وراء ذلك أن يجعل منه حليفا قويا في مواجهة المنذر الثالث ملكِ الحيرة (٥٥٤ــ٥٦٩ م) الخاضع لحماية الفرس. وحين غزا كسرى بلاد الشام استنجد القيصر جوستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) بالحارث، الذي أثبت بسالة نادرة جعلته موضع ثقة الامبراطور وثنائه. ويذكر بعض المؤرخين أن الحارث زار القسطنطينية (بيزنطة) عام ٥٦٣ م.

وجلس على عرش الامبراطورية القيصر هيركليوس (هرقل) منذ عام ٦١٠ م وهو عام البعثة النبوية الشريفة.

٢ ــ المنذر بن الحارث (٥٦٩ ــ ٥٨٢ م).

تولى عرش الإمارة بعد موت أبيه عام ٥٦٩ م، ووقعت مناوشات

بينه وبين الفرس، وبينه وبين الروم، وأخذه الروم أسيراً إلى عاصمتهم ثم نفوه إلى صقلية، وأقاموا على الإمارة عاملا مكانه؛ وتمزقت عرى وحدة الإمارة فاختارت كل قبيلة منها أميرا لها، وقطعت بيزنطة الإتاوة التي كانت تعطيها سنويا لدولة الغساسنة.

٣ ــ جبلة بن الأيهم (٦١٦ ــ ٦٤٥ م).

ولي دراسة مستقلة عنه وعن موقفه من الإسلام، ليس هنا مجال إثباتها.

وقد عاصر تكوين الدولة الاسلامية الكبرى، وأسلم إثر معركة اليرموك عام (١٣ هـ. ٦٣٦ م)، ثم ارتد عن الإسلام، ولحق بقيصر في القسطنطينية، ومات فيها وكان هو آخرَ ملوكِ الغساسنة؛ وفي عهده انتهت دولة الغساسنة، وصارت جزءا من الدولة الاسلامية

ــ ٢ ــ

وبالضرورة كانت إمارة الغساسنة هي الصلة القوية بين العرب وقيصر الروم.

ولما عقدت قريش معاهدة تجارية مع الدولة البيزنطية كان الغسانيون هم الذين مهدوا الطريق لعقد هذه المعاهدة وكانت قوافل قريش التجارية إلى الشام تتجه غالبا إلى (بُصْرَى)، وهي عاصمة الغسانيين التجارية، وإحدى مدنهم المشهورة، وبالقرب منها أذرعات، وهي مدينة مشهورة أيضا.

ولم يكن يقع حادث في الجزيرة العربية إلا ويكون نبؤه عند الملك الغسَّاني، الذي يبلغه بدوره إلى قيصر وكان السموأل في حصنه بشيماء أحدَ عيونِ الملكِ الغسّانيِّ على الجزيرة العربية.

وكذلك كان الملك الغسانيّ هو الذي يتولى بطرق خفيَّة توجيه سياسة القبائل العربية في الحجاز وشمالي نجد، وهو الذي يخطط للشئون العربية من عاصمة إمارته على قدر ما يبلغه نفوذه..

ولما فرَّ عدي بن حاتم رئيس طيِّئ من حائل أمام الفتح الاسلامي في عهد الرسول، صلوات الله عليه، اتجه تَوًّا إلى الشام وإلى الغساسنة فيها، ليكون في انتظار الظروف المواتية، ليعود إلى حائل، وفق تقديره وأوهامه.

وكان الشعراء في الجاهلية يقصدون الملك الغسانيَّ مادحين، كما فعل النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت، في الجاهلية، وسواهما.

وحين نفى الملك اللخمي المنذر الثالث عمرو بن هند (٥٥٤ــ٥٦٩ م) ملك الحيرة الشاعر الجاهلي المتلمِّس من بلاده ذهب إلى الغساسنة في الشام، وأقام في بُصْرَى، وتوفي فيها عام ٥٨٠ م.

والملك الغسَّاني الحارث بن أبي شمَّر هو الذي مهَّد الطريق أمام رحلة امرئ القيس بن حُجْرٍ الكنديِّ إلى قيصر الروم (جوستنيان) بعد قتل القبائل العربية لأبيه حُجْرٍ ملكِ كندة بمساعدة المناذرة ملوك الحيرة. وكان غرض امرئ القيس من وراء هذه الرحلة أن يساعده القيصر على إعادته لعرش آبائه الذي فقده، وأن يحول دون تدمير مملكة كندة إلى الأبد، وأن يؤيده للانتقام من قتلة أبيه من أسد وغطفان.. وهكذا كانت المناذرة ومن ورائهم الفرس خلف الثورة التي اقتلعت عرش مملكة كندة، وأراد امرؤ القيس وضع الغساسنة ودولة بيزنطة في الصورة لاستعادة عرش آبائه وأجداده؛ وبذلك وقعت الجزيرة العربية بين شِقَّيْ الرَّحَى.. ولا ندري السبب في فَشل رحلة امرئ القيس، وامتناع القيصر عن مساعدته.. ومن الجدير بالذكر أن السموأل كان هو الذي مهد أولا طريق امرئ القيس عند الملك الغساني، ومن أجل ذلك تعرض لانتقام القبائل العربية منه، وكان السموأل عميلا للغساسنة، وكان يتخذ من حصنه مركزا للمؤامرات ضد القبائل العربية، ولي بحث منشور عن السموأل في كتابي « مشاهد من السيرة العطرة » بعنوان

« وفاء السموأل أسطورة »، وهو جدير بالتأمل لما فيه من وثائق مجهولة عن تاريخ ما قبل الإسلام؛ وكان السموأل أمه غسانية، وأبوه كان يهوديا، ولاعتبارات كثيرة جعل نفسه عميلا للغساسنة؛ وكان قصره الأبلق في تيماء، أو قريبا منها، مركزا لجمع المعلومات عن القبائل العربية ولإيصالها إلى الملك الغسَّاني في عاصمته..

والحارث بن أبي شمر كذلك كان يريد غزو المدينة ولكن هرقل ملك الروم منعه، وأمره بمسالمة الرسول ﷺ، فخضع لأمره على كره منه، وكان هرقل لا يرى حرب المسلمين، ولكن نصارى الشام من العرب والروم كانوا يرون حربهم[1].

— ٣ —

هذه الحقائق التي ذكرناها آنفا تساعدنا مساعدة كبيرة على استجلاء حقيقة الصلة بين الغساسنة والدولة الإسلامية في المدينة، على عهد الرسول الأعظم، محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ومن المؤكد أن هذه الصلة، بين الرسول والغساسنة، لم تكن أبدا صلة سلام، بل صلة عداء مستمر، وحرب دائمة غير معلنة، وخصومات ومؤامرات من جانب الغسانيين ضدَّ رسول الله والمسلمين والمدينة، منذ هجرة الرسول ﷺ، من مكة إلى المدينة،.. وكان يجعل من هذه الصلة صلة عدوان أن الغساسنة كانوا نصارى، شأنهم في ذلك شأن دولة الروم الشرقية وكانوا لا يؤثرون له دينا آخر على دينهم من ناحية؛ وكانوا كذلك يخافون من الدولة الاسلامية في المدينة على دولتهم من ناحية ثانية، وكان القيصر وأتباعه الغساسنة لا يحبون أن ترتفع راية فوق رايتهم ولا بجوارها من ناحية ثالثة. والغساسنة هم

(١) ١٧٨ السياسة الاسلامية في عهد النبوة — الشيخ عبد المتعال الصعيدي — نشر دار الفكر العربي.

ـــ أولا وقبل كل شيء ـــ أتباعٌ لقيصر سياسيا واقتصاديا وحضاريا. فكيف وقد رأى القيصر ما رأى في تبوك (رجب عام ٩ هـ)، وفي مؤتة من قبل، وشاهد وقوف الاسلام وجها لوجه أمام الامبراطورية البيزنطية، التي لم يستطع كسرى ودولته وجيشه الوقوف أمامها.

وكانت أحوال بلاد الشام آنذاك في غاية السوء؛ وكان الناس هناك على أشد ما يكونون من الحرمان. وقد حكم اليونان الشام مدة ٣٦٩ سنة، كانت كلها حروبا وخلافات؛ ثم حكمها الرومان سبعمائة سنة، سادها الفوضى والاضطراب والاستعباد والفقر والحرمان؛ يقول مؤلفو كتاب « تاريخ العالم »: « إن المقاطعات العربية التي وقعت فريسة تحت حكم الروم لم تسلم هي الأخرى من الفوضى والاضطراب؛ وكان العرب في الشام كثيرا ما يبيعون أبناءهم، ليوفوا بما عليهم من الأموال للدولة ».

ـــ ٤ ـــ

ومن البدهي أن الملك الغساني في عاصمة كان يتتبع باهتمام شديد أخبار الجزيرة العربية وبخاصة الحجاز منذ البعثة النبوية الشريفة عام ٦١٠ م، أي منذ ظهور الاسلام ونزول الرسالة؛ وكان يوالي استقاء الأخبار من منابعها:

ـــ عما حدث بين الرسول وقريش.
ـــ وما تلا ذلك من الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة.
ـــ وعما حدث بعد الهجرة من خلافات بين الرسول وقريش.
ـــ وعن هزيمة قريش في بدر (في السنة الثانية للهجرة ٦٢٤ م)، وفي موقعة الأحزاب (٦٢٧ م).

كما علم الملك الغساني بصلح الحديبية (عام ٦ هـ ـــ ٦٢٨ م)، وفتح مكة (٨ هـ ـــ ٦٣٠ م)، وحنين والطائف في العام نفسه.

وعلم كذلك بتصفية مراكز الجاسوسية، والتبعية اليهودية في الحجاز والجزيرة العربية، بإجلاء بني النضير (٤ هـ ـــ ٦٢٦ م)، واستيلاء الرسول على حصون بني قريظة (٥ هـ ـــ ٦٢٧ م)، وعلى حصون خيبر (٧ هـ ـــ ٦٢٩ م).

وبالقضاء على الرؤوس التي كانت تعمل في الخفاء لدولة الغساسنة، من مثل كعب بن الأشرف اليهودي، الذي خرج في السنة الثالثة للهجرة، بعد معركة بدر الكبرى، إلى مكة، ليحرض قريشا على رسول الله، ويستثيرَها لحربه، راثيا بشعره قتلى قريش في بدر؛ فقتله الفدائيون المسلمون من الأوس، وعلى رأسهم محمدُ بنُ مسلمة.

ومن مثل أبي رافع الذي كانت له مواقف مشابهة لمواقف كعب فقتلته الخزرج لعداوته للاسلام ولرسول الله.

وكان أبو عامر الأوسي اليهودي من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، وكان شريفا في قومه الأوس، مطاعا فيهم؛ وكان قدّ ترهَّب في الجاهلية، ولبس المسوح، فكان يقال له: الراهب. فلما ظهر الإسلام في المدينة، وعَلَتْ رايته، أَبَى أبو عامر إلا مفارقة المدينة، ومفارقة الله ورسوله، فجاء إلى رسول الله، وقال له في ثورة الغاضب الحاقد:

ـــ ما هذا الدين الذي جئت به؟
ـــ فرد عليه رسول الله: جئتُ بالحنيفية، دين إبراهيم.
ـــ فقال أبو عامر: فأنا عليها.
ـــ فردَّ عليه رسول الله: إنك لست عليها
ـــ قال ابو عامر: بلى، إنك يا محمد أدخلت في الحنيفية ما ليس منها.

فقال له رسول الله صلوات الله عليه: ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية.

فخرج أبو عامر من لدن رسول الله إلى مكة وإلى قريش.

وفي معركة أحد كان أبو عامر يتقدم صفوف قريش، وينادي على الأوس في جيش رسول الله ليخذلوا الرسول، فأذلَّه الله، ولعنه الأوس، ووقفوا مع رسول الله صفا واحدا كالبنيان يشد بعضه بعضا.. ولما فتحت مكة وهزمت قريش خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف فرَّ إلى الغساسنة في أرض الشام، ولحق بهم، فمات هناك طريدا غريبا وحيدا. وكان قد خرج معه الى الغساسنة من الطائف: علقمة بن علاثة، وكنانة بن عبد ياليل؛ ولما مات ابو عامر في بلاد الغساسنة اختصم علقمة وكنانة في ميراثه إلى قيصر، فقال قيصر لهما: إنما يرثه كنانة.

وكما أذلَّ الله أبا عامر، أذلَّ كذلك عبد الله بن أبي بن سلول، وكان شريفا في قومه لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين غيرِه؛ وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه وليملكوه عليهم، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ملكه الغضب والحقد والحسد لرسول الله، حيث ظن في نفسه أن رسول الله قد سلبه ملكا، فدخل في الاسلام نفاقاً، وصار يدبر الدسائس والمؤامرات لرسول الله في الخفاء؛ حتى أذله الله، وأظهر دينه، ونصر رسوله، وكبت أعداءه وخصومه، فعاشوا في هوان وذلة حتى لقوا الله وهو أحكم الحاكمين.

وكانت مؤامرات اليهود ضد رسول الله لا تنتهي، فمعركة الأحزاب كانت بتدبيرهم؛ ومن أجل خيانتهم غزا رسول الله، صلوات الله عليه، بني قريظة، ودمَّر حصونهم؛ وقتل الفدائيون المسلمون من الخزرج أبا رافع لتحريضه الأحزاب، وجمعه لهم لحرب رسول الله. كما دمر رسول الله حصون خيبر كذلك.

كل ذلك كان وقعه على الملك الغساني وقع الصاعقة؛ وبخاصة

أن مراكز استعلاماته في أرض الحجاز، وفي الجزيرة العربية، كانت قد أغلقت، بالقضاء على عملائه من اليهود وغيرهم.

وفوجئ الغسانيون والروم بأحداث غزوة مؤتة (٨ هـ — ٦٣٠ م)، حيث دارت الحرب بين المسلمين والروم في البلقاء وفي مؤتة... ثم بأحداث غزوة تبوك، وهي حرب حقيقية مع الروم.

لقد هزت هذه الأحداث الكبيرة كلها الملك الغساني في جلّق، والقيصر البيزنطي (هرقل) الجالس على عرشه في بيزنطة؛ هزا عنيفا، كما لم يحدث لها من قبل.

ولا ندري: هل استعانت قريش بالملك الغساني لينصرها في حروبها مع رسول الله ﷺ أم أنها لم تفعل ذلك؟... وفي اعتقادي أن أبا سفيان قبل إسلامه في فتح مكة، وكان وثيق الصلة بالغسانيين، وكان يخرج بقوافله التجارية إلى بلادهم، ربما كان قد فاتحهم في شيء من ذلك، وكان ابو سفيان قد قابل (عام ٣ هـ:٦٢٥ م) بعد بدر بقليل في بعض رحلاته التجارية القيصر (هرقل) في أرض الشام، وتحدث إليه القيصر في أمر رسول الله، صلوات الله عليه؛ وكما بعثت ثقيف من الطائف، أثناء حصار رسول الله لها بعد فتح مكة، بوفد إلى المقوقس للاستنصار به في حربهم مع رسول الله، صلوات الله عليه، ولعقد محالفة عسكرية معه، كذلك ربما يكون من الأرجح أن قريشا صنعت ذلك أيضا مستنصرة بغسّان، ولكن يبدو أن تلاحق الأحداث حال دون انتصار الغسانيين لقريش، ودون معونتهم لهم.. وقد يكون من المعوقات لدخول الغسانيين في الموقف المتأزم بين الرسول وقريش ولصالح القرشيين أن هوى قريش كان مع الفرس، فحين غلب الروم عام ٦١٦ م أمام الفرس أظهرت قريش فرحها الشديد بهذا الانتصار الفارسي، لأن الفرس وثنيون مثلهم، وحزن المسلمون حزنا شديداً لأن

الروم أصحابُ كتاب، وكان ذلك قبل الهجرة بست سنوات؛ ولا بد أن الروم ظلوا حانقين على قريش من أجل ذلك.

ـ ٥ ـ

وفجأة بلغت الأحداث ذروتها، إذ وقع حدث كبير، نَبَّهَ أذهان القيصر وتابعِه الملكِ الغسَّاني إلى خطورة الموقف السياسي بينهما وبين رسول الله، ﷺ.

ففي جلَّق عاصمةِ الملك الغسَّاني: الحارث بن أبي شمّر ملكِ الغساسنة في رواية، أو الملك جبلة بن الأيهم الغسَّاني كما قيل في رواية أخرى؟ نزل شجاع بن وهب الأسدي، من صحابة رسول الله، ﷺ، يحمل رسالة من محمد، صلوات الله عليه، إلى الملك الغسَّاني، يدعوه فيها إلى الدخول في الإسلام، ونصها:

بسم الله، من محمد رسول الله، إلى الحارث بن أبي شمَّر[1]؛ سلام على من اتبع الهدى، وآمن الله، وصدَّق رسوله. وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده، لا شريك له، يبقى لك ملكك[2].

وفي بيزنطة نزل الصحابيُّ المسلمُ دحيةُ الكلبيُّ، يحمل رسالة من محمد رسول الله، ﷺ، إلى هرقل قيصر الروم، عن طريق حاكم بصرى، يدعوه فيها كذلك رسول الله، ﷺ، إلى الدخول في دين الله، ونص الرسالة:

---

(١) هو طبعا الملك الغساني، الذي حكم دمشق، وما يتصل بها، تحت إمرة البيزنطيين، ومات عام ٨ هـ ــ ٦٣٠ م.

(٢) النص عن الزرقاني ٣/٣٥٦، والقسطلاني ١/٣٩٦.

« بسم الله، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم؛ سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[1]، يا أهل الكتاب: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فان تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون »[2].

ويقص أبو سفيان (٣١٠ هـ) قصة لقائه في سبت المقدس (إيلياء) بقيصر (عام ٣ هـ:٦٢٥ م) بعد بدر بقليل حيث سأله القيصر عن الرسول ورسالته بالتفصيل، وقال له القيصر في نهاية اللقاء: لئن كنت صدقتني عنه فليغلبن علي ما تحت قدميَّ هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه. ويقول أبو سفيان فقمت من عند قيصر، وأنا أضرب بإحدى يدي على الأخرى وأقول: يا لعباد الله، لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة (محمد)، أصبحت ملوك بنيَ الأصفر (الروم) يهابونه في ملكهم وسلطانهم. ويذكر ابن سعد في الطبقات أن أبا سفيان كان يزور هرقل كلما ذهب إلى أنقرة.. وهذا مما يثبت صلته الوثيقة بالروم إلى صلته الأوثق بالغساسنة.

وكذلك وصل إلى الاسكندرية حاطب بن أبي بلتعة الصحابي اللخميّ، الصحابي الجليل، يحمل رسالة، من رسول الله صلوات الله عليه إلى المقوقس، حاكم الاسكندرية للروم، يدعوه فيها أيضا إلى الإسلام؛

---

(١) هم الفلاحون والعمال لأنهم تبع لسادتهم وكبرائهم — وذهب الدكتور أحمد الحوفي أنها نسبة الي داعية من أتباع المسيح من دعاة التوحيد الخالص في مصر اسمه أريوس (مجلة مجمع اللغة العربية — عدد ٤٥ — مايلو ١٩٨٠ — ص ٧٣).

(٢) النص عن تاريخ الطبري ٣:٨٧، والكامل لابن الأثير ١٠/٢ وصبح الأعشى ٣٧٧/٦ — وتاريخ هذه الرسالة عام ٩ هـ أو ٨ أو ٦ (٨٩/٣ الطبري، ٨٠/٢ الكامل لابن الأثير، ٣٨٥/٢ الإصابة لابن حجر، ٤٦١/١ الاستيعاب لابن عبد البر.

ونصها: « بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط.. سلام على من اتبع الهدى..

أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم كل القبط.. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألاّ نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[1].

حدث كبير، هزَّ دولة الروم، وإمارة الغساسنة، التي تعيش في حماية دولة الروم؛ كما هزَّ الاسكندرية وحاكمها الروماني المقوقِس، الذي يحكم شعبا يعد أكبر الشعوب الخاضعة للامبراطورية البيزنطية، وأعرقَها حضارة ومدنية.

هذه الرسائل، وكذلك رسائل رسول الله صلوات الله عليه، إلى كسرى، والنجاشي، وإلى الملوك والأمراء في الجزيرة العربية، كانت في ذي الحجة (٦ هـ ــ ٦٢٨ م) كما يذكر الطبري[2]، أو في ربيع الأول من السنة نفسها[3]، أو في محرم من العام السابع للهجرة[4]، وكلام ابن الأثير يوحي بأن ذلك كان في العام الثامن للهجرة.. والأرجح أن هذه الرسائل بدأت منذ ذي الحجة من عام ستة من الهجرة واستمرَّ إرسالها بعد ذلك.

---

(١) أورد الطبري والقلقشندي نصا آخر لهذا الكتاب، بمخالفة يسيرة من الألفاظ، مثل: إن توليت فعليك غضب الأريسيين ــ أي الفلاحين وعامة الشعب ــ

(٢) ٢٨٨/٢ الطبري.

(٣) ٢٨٦/٢ الطبري

(٤) ١٥:٢/١ طبقات ابن سعد، و١٠٣/٨ فتح الباري لابن حجر

ومن المؤكد أن الملك الغسّاني قابل رسالة رسول الله، صلوات الله عليه، بالامتعاض ورفض الإذعان، وتقول المصادر: إنه أمر قواته بالاحتشاد والزحف على المدينة، ولكنَّ هرقل تدخّل في الأمر ودعاه إلى بيت المقدس(١).

أما المقوقس وهرقل فقد ردًّا ردًّا سياسيا لبقا لا استفزاز فيه ولا تحرُّشَ، ورد النجاشي بالحسنى، وردَّ كسرى بتمزيق الرسالة، فمزق الله ملكه.

كل هذا يوضح لنا توضيحا كاملا أن الرسول ﷺ كان يعلم شأن دولة الغساسنة في السياسة الدولية، وكان يرى دعوة ملكها وشعبها إلى الإسلام، كما رأى دعوة غيرها من ملوك وأمم الأرض الظاهرين على ساحة السياسة الدولية.

وهذا كله مما يوضح لنا بجلاء أن جزيرة العرب على عهد رسول الله ﷺ، كانت وثيقة الصلة بالعالم البيزنطي، كما كانت وثيقة الصلة أيضا بالعالم الساساني؛ وذلك عن طريق التجارة، وعن طريق الدويلات العربية الواقعة في أطراف الجزيرة، والمتحالفة مع الروم أو مع الفرس.

وكانت الرقعة العربية إبّان ذلك تهتز اهتزازاً شديداً، منذ تولي هرقل حكم الامبراطورية البيزنطية عام ٦١٠ م، وهو عام البعثة النّبوية الشريفة.. إذ كانت الانتصارات الفارسية على جيوش الروم، قد بلغت ذروتها، وكان ميدان المعركة الكبير يقع في بلاد الشام بين بصرى وأذرعات من أعمال إمارة الغساسنة... وفي عام ٦١٦ م غُلب الروم كليا؛ أي

(١) طبقات ابن سعد ١٧:٢/١، ١٧٨ السياسة الاسلامية في عهد النبوة ـــ عبد المتعال الصعيدي ـــ نشر دار الفكر.

قبل الهجرة بست سنوات، وفقدوا إمبراطوريّتهم على أيدي الجيش الفارسي.

وبعد ذلك بسنوات قلائل أخذت كفة الميزان تتقلب لصالح الروم رويدا رويدا، وأخذ هرقل يُعِدُّ جيشه وبلاده لخوض معركة كبرى جديدة مع الفرس، فلم يأت عام ٦٢٤ م، وهو عام معركة بدر، إلاَّ وقد هُزم الفرس هزيمة منكرة، ثم اقتحم جيشه بلاد فارس حتى دخل المدائن واستنقذ الصليب الأعظم من أيدي الفرس، وعاد هرقل إلى بيت المقدس ليحتفل باستعادة جيشه الصليب الأعظم احتفالا ضخما، وعلى طول الطريق من حمص الى بيت المقدس كانت تبسط له البسط وتلقى عليها الرياحين.. وفي (إيلياء) لقي أبو سفيان، وتحدث إليه القيصر عن الرسول ورسالته حديثا طويلا، رواه البخاري في صحيحه، وكان هذا اللقاء بعد بدر، أي في عام ٣ هـ ـــ ٦٢٥ م.

وكان للتحرشات البيزنطية على مشارف الشام في أعقاب انتصار الروم على الفرس صدى بعيد المدى في داخل جزيرة العرب؛ وهذه التحرشات ذاتُها كانت السبب في بعث رسول الله لجيشه قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى مؤتة في العام الثامن للهجرة، حيث دارت بين جيش الرسول والروم معركة غير متكافئة لكثرة الروم وأحلافهم من العرب. ويروى أن عمرو بن العاص ذهب خلال العام الثامن إلى ذات السلاسل في منطقة قضاعة بالشام ليدعو هناك قبائل بَلِيّ وعُذْرَة لمحاربة الغساسنة والبيزنطيين.

وعلى الرغم من الإشاعات التي راجت عن قرب غزوٍ غسّانيٍّ بيزنطي مرتقب على المدينة، فان رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه، رأى في تعبئة قواته وحشدها على الجبهة الشامية عملا ذا أهمية سياسية قصوى بالنسبة للمدينة ولجزيرة العرب كلها.

وقد أحدثت مسيرة رسول الله المظفرة إلى تبوك في العام التاسع للهجرة (٦٣١ م) رُدُودَ فعل مثيرة على الجبهة البيزنطية الغسّانية. قاد رسول الله في ثلاثين ألفا، وأقام في تبوك عشرين ليلة. وكان لذلك أثره في صرف الغساسنة عن غزو المدينة[١].

وقد أراد الطابور الخامس الموالي للغساسنة ومنهم أبو عامر اليهوديُّ اغتيال رسول الله في طريقه من تبوك الى المدينة في مسجد الضرار فأوحي إلى رسول الله بمكيدتهم فأحرق مسجد الضرار، وفر بعضهم هاربين، وأعترف البعض بما دبروه فتركهم رسول الله لله يؤاخذهم بما اقترفوا[٢].

واستطاع رسول الله ﷺ أن يملي إرادته على الدويلات الصغيرة، الواقعة في طريقه، والتي كانت منحازة كل الانحياز للروم؛ وقد ظلت الجبهة البيزنطية الغسّانية شغل رسول الله ﷺ الشاغل حتى أيامه الأخيرة. ومن ثم فقد أمر صلوات الله عليه قبل وفاته بقليل بتجهيز جيش إسلامي بقيادة أسامة بن زيد الذي قتل أبوه شهيدا في غزوة مؤتة قبل ذلك بعامين وذلك من أجل الزحف على مشارف الشام[٣].

وكان البيزنطيون شديدي الاهتمام بما يجري في أرض العرب من أحداث لتأثيره البالغ على مصادر تجارتهم مع الشرق، التي تخترق بعض طرقها بلاد العرب؛ وكان التجار العرب وهم في أغلب الأمر القرشيون، لأنهم أصحاب القوافل التجارية، كانوا يحملون دائما أخبار رسول الله إلى الشام حيث الغساسنة وكانوا يكثرون التردد على أسواقها.

---

(١) راجع ١٧٩ السياسة الاسلامية في عهد النبوة

(٢) ٤٨٢ السيرة النبوية الخالدة ــ لصاحب هذا البحث.

(٣) راجع ١٨١ السياسة الاسلامية في عهد النبوة.

وللقرشيين آنئذ، وهم ألدُّ أعداء رسول الله ﷺ، مصلحة خاصة في تضخيم الأحداث، ليثيروا سخْط البيزنطيين على رسول الله، صلوات الله عليه[1].

وتزيد الحوادث حِدَّةً بإسلام فَروةَ الجذاميِّ أميرِ الروم على من يليهم من العرب، وكانت عاصمته معان ولما علم الروم بإسلامه أخذوه وحبسوه ثم صلبوه.

وفي شهر رمضان من السنة العاشرة للهجرة ٦٣٢ قدم على رسول الله ﷺ وفد من غسان،قوامه ثلاثة رجال، وأعلنوا دخولهم في الاسلام.. بينما ظل الباقون على دينهم.

وهكذا كانت الأيام، يوما بعد يوم، تحمل في طياتها أسبابَ تأزم الموقف بين المدينة ودولة الغساسنة..

ويزيد من أمر الغسانيين وموقفهم من الاسلام، ومن رسول الله، ومن المدينة، وضوحا وجلاء، قصةُ كعبِ بن مالكٍ الخزرجيِّ، شاعر رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه.

ففي غزوة تبوك (٩ هـ ـــ ٦٣١ م) تخلَّف عن الخروج مع رسول الله، صلوات الله عليه، نفر من الصحابة، كان من بينهم كعبُ بنُ مالك..

ونهى رسول الله، صلوات الله عليه، بعد عودته إلى المدينة، الناس عن كلام كعب، وأمرهم بمقاطعته وشعر كعب بضيق شديد، فلزم بيته، وفاضت عيناه بالدموع، وهو يرى الناس يتجنبونه ولا يكلمونه..

---

(١) راجع ص ٨٦ وما بعدها من كتاب نشأة الدولة الإسلامية ـــ للدكتور عون الشريف ـــ دار الكتاب المصري اللبناني عام ١٩٨٠.

ويقول كعب: ثم غدوت إلى السوق فإذا نبطيٌّ من نبط الشام يسأل عني، وكان قد قدم بطعام يبيعه بالمدينة، فجاء فرفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، يقول فيه:

« أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة.. فالْحقْ بنا نُوَاسيكَ ».

وقال كعب حين قرأ هذه الرسالة: هذا أيضا من البلاء.. ثم قصد إلى التنور فأحرقها فيه[1].

فاهتمام الغسانيين بأمر محمد وبالإسلام أمر قامت عليه البراهين والشواهد، وتؤكد ذلك المصادر التي تفصح في أحيان قليلة عن مؤامرات الغسانيين ضد الاسلام، وعن محاولاتهم الدائمة بذر بذور الشقاق في صفوف أصحاب رسول الله ﷺ.

وهكذا عاشت المدينة في آخر أيام رسول الله صلوات الله عليه، على علاقات مقطوعة بينها وبين الغساسنة، وعلى ترقب غزو غسَّاني لها.

ويزيد الأمر وضوحا، في سوء نوايا الملك الغسانيِّ نحو رسول الله ونحو المسلمين، ونحو المدينة، أن عمر بن الخطاب حين دخل المدينة، عقب وفاة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ورأى ما عليه الناس من الاضطراب والجزع، ولم يكن يتصور وفاة رسول الله ﷺ، بادر يسأل الناس: أو قد جاءت غسَّان.

ومعنى ذلك أن المدينة كانت تعيش آنذاك على احتمال وقوع غزو غسَّانيٍّ لها.

وهكذا كانت غسَّان، وكانت دولة الغساسنة قصة غريبة وعجيبة

(١) البخاري، ٢٦٦/٢ وما بعدها من مختصر صحيح مسلم للمنذري ــ تحقيق ناصر الألباني.

في حياة الاسلام الأولى في المدينة، من خلال رسول الله، ﷺ.

إنها كانت مركزاً للمؤامرات ضد رسول الله، ﷺ، وكانت مهاجَراً لشراذم الفارِّين من الاسلام ومن سماحة رسول الله ﷺ، وكانت على استعداد دائم لغزو المدينة، حيث كان الحارث بن أبي شمر الملك الغساني يريد ذلك، وكان هرقل يمنعه من هذا الغزو.

ولم تلبث الأيام إلا قليلا حتى فتحت بلاد الشام كلها في عهد الخليفة الثاني عمرَ بنِ الخطاب، ودخلت مملكة غسان في الاسلام، وقدم ملكها جبلة بن الأيهم المدينة، وعاش فيها شهورا قلائل، ثم هرب منها بليل إلى الشام ليلحق بالغسانيين، واستدعاه قيصر من عاصمة الغساسنة، فذهب إليه، وعاش في بيزنطة ذليلا مهانا، بعد أن ارتدَّ إلى النصرانية، وخلع مواثيقه وعهوده لخليفة المسلمين عمرَ بنِ الخطاب، رضي الله عنه، ومات في بيزنطة دون أن يحزن أحد لموته، أو يجزع إنسان لوفاته.

وانتصرت كلمة الاسلام.

وذهبت إلى الابد أسطورة غسان، وأسطورة « الدولة البيزنطية التي لا تهزم »، وارتفعت راية الاسلام في كل مكان، حيث استظل الناس بظلها إلى الأبد.

مصادر البحث

صحيح الامام البخاري
صحيح الامام مسلم
سيرة ابن هشام
الروض الأنف للسهيلي
تاريخ الطبري
الكامل لابن الأثير
مروج الذهب للمسعودي
تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي
تاريخ العرب عصر ما قبل لاسلام لمبروك نافع
العرب والروم ترجمة د. محمد عبد الهادي ــ نشر دار الفكر العربي
نشأة الدولة الاسلامية ــ د عون الشريف
السياسة الاسلامية في عهد النبوة للشيخ عبد المتعال الصعيدي
الشفاء للقاضي عياض
مشاهد من السيرة العطرة ــ لخفاجي
السيرة النبوية الخالدة ــ لخفاجي
سيرة رسول الله ٣ أجزاء ــ لخفاجي
وغيرها من المصادر

خاتمة الكتاب

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، محمد ﷺ من الأولين، وصلى الله وسلم عليه في الآخرين، صلاة وسلاما داعين إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فهذه هي خاتمة هذه السيرة النبوية الماجدة، وهذا هو آخر الحديث عن محمد رسول الله ﷺ.. وقد وفينا السيرة النبوية العاطرة بعض حقها علينا بهذا الكتاب، الذي جمعنا فيه أهم أحداث السيرة ومواقفها وبطولاتها.

ونرجو من الله عز وجل أن ينفع بما كتبناه في هذا الكتاب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المؤلف

محتويات الكتاب